موسوعة التاريخ الإسلامي

عصر الخلفاء الراشدين

عبد الحكيم الكعبي



دار أسامة

الناشر

دار أسامة للنشر والتوزيع

الأردن- عمان

تلفون: ٥٦٥٨٢٥٣ - ٤٦٤٧٤٤٧

فاكس: ٥٦٥٨٢٥٤ ص. ب: ١٤١٧٨١

رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية

المؤلف،

* تم إعداد بيانات الفهرسة والتصنيف الأولية من قبل دائرة المكتبة الوطنية

المقدمة

عصر الخلافة الراشدة هو العصر المضيء بعد عصر النبوة، تلك النبوة التـــي أكرم الله بها العرب أولاً والعالمين جميعاً بما جاءت به من تعاليم وشرائع معـــتمدة على كتاب الله عزَّ وجل، فقُهر الظلم وساد مكانه الحرية، وتلاشى الكفر وأحل في موقعه الإيمان، وزال الشر واستبدل بالخير.

هــذا الديــن الــذي جاء به النبي محمد ﷺ وأراد أن ينشره في الجزيرة العربــية وخارجها، فأكمل رسالته وجاء من بعده بعض صحابته فأكملوا المشوار الذي بدأه نبيهم المصطفى، وحرصوا كل الحرص أن يشق الإسلام طريقه خارج صـــحراء العــرب، فعــم بلاد الشام وفلسطين ومصر، وتوسع في العراق وبلاد فارس، ودخلت فيه أمم شتى وشعوب متعددة، وهكذا ساد الدين الإسلامي.

وكنا قد أصدرنا مع هذا الكتاب كتاباً آخر حمل عنوان "موسوعة التاريخ الإســـلامي فـــي عصر النبوة وما قبله" وأظنه سيصدر مع هذا الجزء الذي تتولى دار أســـامة مشكورة بنشره ضمن سلسلة موسوعية عُرفت باسم موسوعة التاريخ الإسلامي التي شملت الأجزاء التالية:

١- عصر النبوة.

٢- عصر الخلفاء الراشدين.

٣- عصر الدولة الأموية.

٤- عصر الدولة العباسية.

٥- العصر العثماني.

٦- عصر المماليك.

وقد حرصت أن يكون هذا الجزء مسترسلاً لما بدأت به في الجزء الأول لا انقطاع بينهما إلا من خلال التسمية بالجزء الأول والجزء الثاني.

والحقيقة أن هذا العمل اعتبره عملاً خالصاً لوجه الله لخدمة أبناء الإسلام أنًا يكونون وإلى أي جنس أو لغة ينتمون.

وقد كان هذا الجزء خاصاً بالخلفاء الراشدين رضي الله عنهم:

١- أبو بكر الصديق.

٢- عمر بن الخطاب.

٣- عثمان بن عفان.

٤- علي بن أبي طالب.

وقد رأيت تسهيلاً على القراء ورأفة بأبناء الإسلام ألا أدخل في التفسيرات أو التأويلات التي لا أراها ذا فائدة ترجى أو هدفا يقصد، ومن هنا حاولت أن أتوقف عند الأحداث الجسام وذكر ما هو ينفع ويجدي ولا أتورط كما تورط بعض الباحثين في الاستشهاد والدعم لرأي وتصويب موقف يرى فيه قضيته الذي أنشأ بحثه وكتابه عليه.

ومن هنا كان هذا البحث علمياً بقدر الإمكان، وقد بدأته بالحديث عن خلافة أبي بكر الصديق رضي الله عنه متوقفاً عند الظهور الأول لمنصب

الخلافـــة، ثـــم تحدثت عن كيفية وصول الخلافة إلى صاحب رسول الله وصديقه وأول من أسلم من الناس -أبي بكر الصديق-.

وقد وقفت عند حركات المرتدين تلك الحركات التي أعقبت وفاة النبي ﷺ وتســـلم أبي بكر الصديق للخلافة كحركة مسيلمة الكذاب وسجاح وطليحة الأسدي وغـــيرها من الحركات التي صاحبت تولي أبي بكر للخلافة وكيف وقف الخليفة أبـــو بكـــر الصديق الموقف الحازم الصارم، فقتلهم بقادته وفرق شملهم بصناديد فرسانه، وأثخن جراحهم في كل موقع كانوا يلجأون إليه.

ثـــم تحدثت عن الفتوحات التي تمت في عهد الخليفة أبي بكر في العراق والشـــام والمعـــارك التـــي أشعلها قادته وجنوده كمعركة الحيرة وتحرير الأنبار ومعركة أجنادين واليرموك.

ثـــم انتقلت في الحديث إلى خلافة عمر بن الخطاب ﷺ ومبايعته بالخلافة والفتوحات التي تمت أثناء خلافته، كفتح بلاد الشام وفلسطين وتسلمه مفاتيح بيت المقـــدس، ودوره فـــي معركة القادسية الشهيرة التي كانت خير دليل على عبقرية هذا الرجل وصلابته في المواقف الصعبة.

ثـــم تحدثت عن فتوحات قادته في مصر وبرقة وأفريقيا، وكيف استطاع أن يقهـــر بحنكـــته كبار الدول كالرومان والفرس وغيرهم، وأشرنا فيما بعد إلى التنظـــيمات الإداريـــة التـــي كان له الفضل في إرساء قواعدها وابتداع أسسها، والدواويـــن التي أقامها مثل ديوان الجند وبيت المال وغيرهما، وكذلك دوره في بناء المدن الجديدة لجنده وسعة بصره فيها كتأسيس البصرة والكوفة والفسطاط.

وانتقلــنا بعــد ذلــك إلــى الخليفة عثمان بن عفان ﷺ فتحدثنا عن كيفية وصــول الخلافــة إلــيه، ودوره في إكمال مشوار الخليفة عمر بن الخطاب ﷺ وجمعه للمصحف وغيرها من الأعمال التي أقيمت في عهده ثم توقفنا عند جريمة مقتله، والأسباب التي أدت إلى مقتله والنتائج السياسية التي أعقبت استشهاده.

وتحدثــنا فيما بعد عن الخليفة علي بن أبي طالب ﷺ -حبيب محمد ﷺ - وأول المدافعيــن عــن محمــد فــي معــارك مكة المعنوية، ومعارك الصحراء العسكرية، مواقف ما زال يذكرها التاريخ، ويدرسها المعلمون للتلاميذ.

ووقفــنا عند الطريقة التي وصل بها إلى كرسي الخلافة والخلافات التي دارت حول هذه الخلافة، وموقف المسلمين في المدينة وخارجها من دم عثمان.

ولاشك أن علياً تسلم خلافته في وقت صعب، حيث بدأت الانشقاقات تدب فــي جســم الدولة الإسلامية، فحاول أن يهدئ من هذه الأحداث، والوقوف بهذه الدولــة مــن جديــد ولكن الأحداث كانت أكبر من طموحاته وأجبر على خوض معارك جانبية كالجمل وصفين والنهروان وغيرها، دفع بعدها حياته ثمنا لها.

نســأل الله أن يــرحم خلفاءنا الصالحين ويغفر لهم، ويسكننا وإياهم فسيح جنانه وأن يوفقنا فيما أردناه وسعينا إليه، والله من وراء القصد.

المؤلف

د. عبد الحكيم الكعبي

الفصل الأول

خلافة أبي بكر الصديق

المبحث الأول: ظهور منصب الخلافة وتولية أبي بكر الصديق

المبحث الثاني: حركات الردة

المبحث الثالث: انطلاق حركة الفتوح الإسلامية



المبحث الأول

ظهور منصب الخلافة وتولية أبي بكر الصديق ﷺ

نظام الخلافة:

مقدمة:

عـرف العرب نظام الحكم الملكي في اليمن وفي مملكة كندة وفي ممالك شـمال الحجاز التي قامت على تخوم العراق والشام، ولكن النظام القبلي في إقليم وسـط الحجـاز كان أحد الأنظمة الاجتماعية الذي لازم حياة البداوة، وكان زعيم هـذا الـنظام "شـيخ القبيلة" الذي يختار ضمن شروط منها: عَرَاقة القبيلة مجلس استشـاري من عقلاء القبيلة، وليست "دار الندوة" في مكة المكرمة إلا واحدة من تلك المجالس.

وبعد ظهور الإسلام أسس رسول الله ﷺ بعد الهجرة مباشرة حكومة دينية في المدينة (يثرب) اعتمدت على عقيدة الرعية، وقامت على أساس إحلال الوحدة الدينـية بدل العصبية القبلية، وأخذت صورة الجهاز الحكومي بالظهور، فالسلطة التنفـيذية بـدت فـي قيادته ﷺ للغزوات وبعثه للسرايا، وتوزيع الغنائم، وتولية الأمـراء، كمـا كـان ﷺ يسـتقبل في مسجد المدينة المنورة الوفود والمبعوثين،

ويُقبل عليه الناس يسألونه عن قضاياهم، وكان إلى جانبه أشبه بمجلس من الصحابة المقربين الذين كان يستشيرهم في مختلف الأمور الدنيوية، وفي المسجد أيضاً ظهرت نواة السلطة القضائية، فكان ﷺ يقضي بين المتخاصمين وكان حكمه ملزماً، أما السلطة التشريعية فقد تمثلت في نصوص آيات كتاب الله، وأحاديث الرسول وقراراته.

لقد كان رسول الله ﷺ في المدينة المنورة يمثل السلطتين المدنية والروحية معاً، وبعد فتح مكة واتساع رقعة الدولة بدأت تتضح معالم الإدارة الجديدة لجزيرة العرب، التي خضعت –لأول مرة– إلى رئاسة مركزية واحدة، لذا فكان يساعده في إدارة الدولة عدد من الكتاب والمستشارين من الصحابة، كما أرسل الأمراء والعمال إلى المناطق التي دخلت تحت سيادة الدولة الإسلامية، ولم يؤثر عن رسول الله ﷺ نص صريح في مسألة الحكم من بعده، وكأنما أراد الله بذلك أن يترك الأمر شورى للمسلمين ليختاروا من يصلح خليفة لهم.

ظهور منصب الخليفة[1]:

وجد المسلمون أنفسهم في سقيفة بني ساعدة بمدينة الرسول يبايعون أبا بكر بالخلافة، بعد وفاة الرسول ﷺ على النحو الذي كان مألوفا لدى العرب في الجاهلية عند اختيار شيوخهم، وتم انتخاب خليفة النبي ﷺ على أساس السبق إلى

الإســـلام، وعلى أساس الانتماء إلى قبيلة قريش، فما هي المعاني اللغوية والأسس الفقهية لهذا المنصب؟

الخلافـــة فـــي معـــناها اللغـــوي النيابة عن صاحب الأمر إذا وكله عند غيابـــه، أو الحلول بدلاً عنه بالشورى والاتفاق، حتى ليقال فلان خلف فلاناً، أي حـــل محله، وإذا كان خلف فلان، فإنه يكون بعده في المكان، وتصبح الخلافة في مواضـــع الغـــياب والموت أو العجز المفاجئ، وباعتبار الارتباط الديني بالدنيوي فإن معنى الخلافة اتخذ طابعاً شرعياً قوامه الوقوف على سياسة الدُنيا بما يتوافق ومصـــالح الآخرة، والخلافة مصدر خَلَف، يقال: خلَفه في قومه يخلفه خلافة فهو خلـــيفة، ومنه قوله تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي﴾[2]، ثم أطلقت في العرف العام على الزعامة العظمى وهي الولاية العامة على كافة الأمة.

وقد أُختلف في لفظ الخليفة، فقيل: هو فَعِيلٌ بمعنى مفعول، كجريح بمعنى مجـــروح، ويكون المعنى أنه يخلفه من بعده، وعليه حُمل قوله تعالى في حق آدم عليه السلام: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾[3]، على قول من قال: إن آدم أول من عمّر الأرض وخلفـــه فـــيها بنوه بعده، وقيل هو فعيل بمعنى فاعل، كعليم بمعنى عالم، وقديـــر بمعـــنى قـــادر، ويكـــون المعنى فيه أنه يخلَف من قبله وعليه حَمَل الآية الســـابقة من قال: إنه كان قبل آدم في الأرض مخلوقات منها الملائكة مثلاً، وأنه خلفهم فيها، وعليه خوطب أبو بكر ﷺ بخليفة رسول الله.

ويعمـد المـاوردي إلى تعريف الخلافة "بأنها النيابة عن صاحب الشرع (النبـي ﷺ) في حفظ الدين وسياسة الدنيا، وعقدها لمن يقوم بها في الأمة واجب بالإجمـاع وإن شـذ عـنهم الأصم"(٤). بمعنى أن الخليفة لا يعدو أن يكون رئيساً دينـيا وسياسـياً نـيابة عن رسول الله، يجمع بين سلطتين: دينية، باعتباره إماماً للمسـلمين يؤمهـم للصـلاة ويسهر على تطبيق العدالة والإنصاف ويحمي الدين ويـذب عـنه من خطر الخارجين عليه، ودنيوية لأنه ينظر في مصالح المسلمين الدُنـيوية، أما ابن خلدون فيشير إلى أن الخلافة "حمل الكافة على مقتضى النظر الشـرعي في مصالحهم الآخروية والدنيوية الراجعة إليها، إذ أحوال الدنيا ترجع كلها عند الشرع إلى اعتباره بمصالح الآخرة، فهي في الحقيقة خلافة عن صاحب الشـرع فـي حراسـة الدين وسياسة الدنيا به"(٥). وفي هذا يميز ابن خلدون بين أنـواع ثلاثة للحكم هي: الملك الطبيعي، والملك السياسي، والملك الشرعي الذي يوازن ما بين الديني والدنيوي ليطلق عليه تسمية الخلافة.

والخلافة نظام حكم عربي إسلامي مبتكر حتمته الظروف في أعقاب وفاة الرسـول ﷺ سنة ٦٣٢م/ ١١هـ، واستحدث منصب "الخليفة" في سقيفة بني ساعدة عـندما تـم اختـيار أبي بكر الصديق ﷺ، وعندما وصلت الخلافة إلى عمر بن الخطـاب ﷺ نادى المسلمون عليه بلقب فيه الكثير من الكلمة "خليفة خليفة رسول الله"فما كان منه إلا أن أشار عليهم "أنتم المؤمنون وأنا أميركم" ليظهر لقب "أمير المؤمنين"، ونتيجة لارتباط هذا المنصب بالجانب القدسي الذي يمثله الرسول ﷺ

فـإن وجـوب الطاعـة على جمهور المسلمين يعد أمراً لا يمكن المساس به أو الخـروج عليه، بل إن مرداف الإمامة يرتبط بالخلافة انطلاقاً من التوكيد الديني الـدال على إمامة الصلاة، وقد ظهرت بعض التسميات المنادية بخليفة الله، إلا أن الخلفـية أبـا بكر الصديق رفض اللقب وأكد على أنه خليفة الرسول منطلقاً من

فكرة أن الاستخلاف يكون للغائب وليس للحاضر، ويقوم معنى كلمة "الإمام" على إمكانية القيادة والإرشاد والهداية، قال تعالى: ﴿يَوْمَ نَدْعُو كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ﴾[٦].

وهكـذا نـرى أن الخلافـة والإمامة وإمارة المؤمنين هي ثلاث كلمات معـناها واحـد تقريـباً، وهـو رئاسة الحكومة الإسلامية الجامعة لمصالح الدين والدنـيا، وعلـى هذا الأساس أجمع معظم المسلمين على وجوب الخلافة ولم يقل بجوازهـا سوى فئة قليلة، ولا يعني ذلك عدم أهميتها عندهم، بل أرادوا من هذا تقدير أو تحديد مكانتها في المرتبة أو الأهمية[٧].

أما الشروط التي يجب توافرها في الخليفة فهي كما أوردها الماوردي في كـتابه الأحكام السلطانية سبعة، وهي: العدالة: العلم المؤدي إلى الاجتهاد، سلامة الحـواس، سـلامة الأعضـاء، سلامة الرأي المؤدي إلى سلامة الرعية وتدبير المصـالح وهو ما يعرف بالكفاية، الشجاعة والنجدة لحماية البلاد ومجاهدة العدو، وأخـيراً النسب القرشي، وهذا الشرط الأخير اختلف فيه إذ ينسب للرسول حديث في هذا الصدد يقول فيه "الأئمة من قريش".

اختيار خليفة لرسول الله ﷺ:

لــم يكــن اختــيار أبــي بكــر خليفة لرسول الله ﷺ سهلاً، فقد استعرت الأهــواء حول من يخلف الرسول في رئاسة الجماعة الإسلامية ونشب نزاع بين المهاجريــن والأنصار كاد يفتت وحدة المسلمين ويصدع إحدى المقومات الرئيسة التي قامت عليها الدولة العربية الإسلامية، وهي ارتباط المسلمين برابطة الإيمان والمواخــاة، فقد انقسم المسلمون عند وفاة الرسول إلى ثلاثة تكتلات أو فرق لكل مــنها مرشــحها: الفــرقة الأولى من الأنصار الذين أيدوا اختيار سعد بن عبادة الخزرجي، والفرقة الثانية من المهاجرين وقد أجمعوا في نهاية الأمر على اختيار أبي بكر، أما الفرقة الثالثة فكانت تتألف من الهاشمية وفئة من الأمويين بالإضافة إلــى طلحــة بن عبيد الله والزبير بن العوام وكان تميل إلى اختيار علي بن أبي طالب خليفة لرسول الله ﷺ[٨].

بعــد جــدل ونقــاش بيــن المهاجرين والأنصار كاد أن يؤدي إلى أزمة خطــيرة تمــت مبايعة أبي بكر الصديق من قبل أغلب الحاضرين من المهاجرين والأنصــار، وفــي اليوم التالي لهذه البيعة الخاصة بويع أبو بكر بالخلافة البيعة العامــة في المسجد، فخطب في الناس قائلاً: "أما بعد، أيها الناس، فإني قد وليت علــيكم ولست بخيركم، فإن أحسنت فأعينوني، وإن أسأت فقوموني، الصدق أمانة والكــذب خــيانة، والضعيف فيكم قوي عندي حتى آخذ له حقه، والقوي ضعيف عــندي حتى آخذ الحق منه إن شاء الله، لا يدع قوم الجهاد في سبيل الله، فإنه لا

يدعه قوم إلا ضربهم الله بالذل، ولا تشيع الفاحشة في قوم قط إلا عمهم الله بالبلاء، أطيعوني ما أطعت الله ورسوله، فإذا عصيت الله ورسوله فلا طاعة لي عليكم"[٩].

كان أبو بكر من أوائل الذين آمنوا بالدعوة الإسلامية، وكان يمتلك ثروة كبيرة ضحى بها في سبيل صحبة الرسول ونشر الإسلام، هذا إلى جانب أنه كان على الرغم من سنه يتصف بالبساطة والنزاهة والتواضع، فضلاً عن قدرته القيادية، فقد عرف كيف يستخدم سلطاته كخليفة للنبي، وبدأت سياسته تتضح منذ بداية خلافته، وتتلخص في السير على سنة الرسول ومنهجه في قيادة الدولة العربية الإسلامية، فقد كان النبي ﷺ قبل وفاته قد بدأ يعد العدة في إرسال حملة إلى شرق الأردن في بلاد الشام ربما للأخذ بثأر شهداء المسلمين في معركة مؤتة - التي تحدثنا عنها في كتابنا عصر النبوة - فأتم أبو بكر الاستعدادات اللازمة وأرسل الحملة على الرغم من الظروف الصعبة التي كانت تمر بها المدينة في ذلك الوقت، فقد كانت الانقسامات قد بدأت تعيد سيرتها الأولى في جزيرة العرب إذ قامت حركة الردة على الإسلام بين القبائل العربية كما ظهر عدد من المنتسبين الكاذبين الذين قالوا أنهم يعيدون سيرة الرسول، وعلى الرغم من كل ما قيل عن أن هذه الحركات كانت خروجاً على الإسلام إلا أنه يمكن أن يقال أن القبائل تلك لم تخرج عن تعاليم الإسلام أو أنها ارتدت إلى الوثنية، ولكنها كانت تريد أن تتحرر من دفع ضريبة الزكاة، وهي الرابطة

الوحـــيدة التـــي كانت تربط الأفراد والقبائل البعيدة بالدولة، وقد وقف أبو بكر في هـــذا الأمـــر موقفاً حازماً حتى أنه قال: "لو منعوني خطام بعير لقاتلتهم عليه" في الوقـــت الذي كان فيه بعض الصحابة وفي مقدمتهم عمر بن الخطاب ﷺ يميلون إلى شيء من التساهل معهم.

المبحث الثاني

حـــركات الـــــردة

مُنـــيَ الإسلام بعد وفاة الرسول ﷺ بفتنة عظمى، كادت تفتك بالمنجزات الكبـــيرة التـــي حققهـــا رسول الله للأمة، لولا دور أبي بكر الصديق في زعامة المسلمين وتمكنه من إخماد فتنة الردة ودحر المرتدين بكل حزم وصلابة، فلم يكد يفـــرغ المســـلمون فـــي المديـــنة من مبايعة أبي بكر بالخلافة حتى مُنيت الأمة الإسلامية باضطرابات جسيمة، وذلك أن بعض القبائل العربية بعد تولية أبي بكر كَبُرَ عليها أن تكون خاضعة لسيادة قريش لاعتقادهم أنها سلبتهم حريتهم وأدخلتهم تحت سلطانها بحكم الدين، وتطلعوا إلى استرداد ما كانوا يتمتعون به من استقلال ذاتـــي. مـــن جانـــب آخـــر فإن الإسلام كعقيدة لم يكن قد تعمق في قلوب جميع العـــرب، فمـــنهم من دخله مع الداخلين دون دراسة ودون إيمان، ومنهم من رأى الحـــروب ولـــم يـــدرك أنهـــا دفاعية، فدخل الإسلام تجنباً لخوض الحروب ضد المســـلمين، ومنهم من دخل الإسلام طمعاً في مغنم أو جاه، فارتد كثير من هؤلاء عـــن الإسلام، ولكن القبائل لم ترتد إلى ديانتها القديمة، كما أن العرب لم يفكروا فـــي العـــودة إلى الوثنية، وليس من شك في أن هذه القبائل لم تكن على بينة من أمـــر الديـــن الجديـــد، فلـــم تثبت في نفوسهم تعاليم الإسلام، كما ثبتت في نفوس المتصلين برسول الله وأصحابه من أهل المدينة ومكة والطائف، وضعاف الإيمان

هـؤلاء كـانوا يظهـرون عدم ولائهم للإسلام كلما سنحت لهم الفرصة كما فعل المنافقون في مواقف كثيرة سابقة، وكالأعراب الذين وصف القرآن الكريم إيمانهم في الآية: ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَٰكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾[١٠]، ولقد كانـت وفـاة الرسـول ﷺ الفرصـة المناسبة لهؤلاء ليظهروا ما أخفوا وليعلنوا ارتدادهم.

ربمـا كانـت كثير من القبائل تعتقد أن الإسلام لم يأت ليقيم دولة، وإنما جـاء كديـن، فلما قام أبو بكر بأعباء الخلافة بعد وفاة النبي أيقنوا أنهم أصبحوا خاضـعين لسـلطة مركزية يؤدون إليها الزكاة، وهذا النظام لم يألفه العرب قبل الإسـلام، لذلك انقسم المرتدون عن الإسلام إلى قسمين: قسم خرج عن الإسلام، وهـم بـنو طيء وغطفان وأسد [جماعة المتنبئ طلحة بن خويلد الأسدي] وحنيفة [جماعـة مسـيلمة الكذاب] وأهل اليمن الذين تزعمهم الأسود العنسي، أما القسم الثانـي من المرتدين فقد ظلوا على إسلامهم ولكنهم لم يدفعوا الزكاة، وقالوا: "نقيم الصلاة ولا نؤدي الزكاة"[١١].

وخلاصة القول أن المجال انفسح أمام المنافقين وأعداء قريش من العرب لإظهـار ما يخفون من نوايا ونزعات انفصالية، وظهرت – بعد وفاة الرسول ﷺ مباشـرة– مظاهـر الصدام العنيف بين النظامين القبلي والإسلامي[١٢] من خلال تلك الحركة الواسعة التي عرفت بـ "الردة" والتي كانت في واقع الأمر لا تعدو أن تكـون انتفاضاً على نظام الدولة الإسلامية الذي وضع الرسول الكريم أسسه في المديـنة، فـإن كثيراً من قبائل العرب لم تعترف بأبي بكر خليفة للنبي ﷺ اعتقاداً

منهم بأن الإسلام قضي عليه بوفاة الرسول، وأن نظام الخلافة يدعم نفوذ قريش، ويجعـــل سلطان المدينة وراثياً، وقد ظهرت بوادر حركات الارتداد –لاعتبارات قبلية– في أواخر أيام رسول الله ﷺ، ثم استعرت بعد وفاته.

من أشهر حركات الارتـداد بعد وفاة الرسول ﷺ:

ـ حركة الأسود العنسي:

هو عيهلة بن كعب بن عوف العنسي المذحجي، الملقب بذي الخمار، كان بطاشا جباراً عاتياً، أسلم لما قدمت وفود العرب إلى النبي ﷺ، ثم إنه ارتد في أيام النبـــي فكـــان أول مـــرتد فـــي الإسلام، بعد ذلك ادعى الأسود العنسي النبوة في اليمـــــن وتابعه قومه، فاشتد بهم ساعده وغزا بلاد نجران فدانت له كما دانت له مذحج، واستهوى بضلالته نفراً من عوام العرب فتملك أكثر جنوبي بلاد العرب، وبلغـــت أخـــباره إلى الرسول ﷺ فكتب إلى من بقي على الإسلام من أهل اليمن يأمرهم بمحاربته.

وكان رسول الله ﷺ بعد موت باذان الفارسي الذي كان حاكماً على اليمن قـــبل الإسلام واستعمله الرسول عليه بعد إسلامه قد قسم اليمن في سنة ١٥هـ إلى مقاطعـــات جعـــل علـــى كل مقاطعة أميراً، فاستعمل عمرو بن حزم على نجران وخـــالد بـــن سعيد بن العاص على ما بين نجران ورمع وزبيد، وعامر بن شهر علـــى همـــدان، وعلى صنعان ابن باذان، وعلى عك والأشعريين الطاهر بن أبي

هالـــة، وعلـــى مأرب أبا موسى الأشعري، وعلى الجند يعلي بن أبي أمية وكان معـــاذ معلمـــاً يتنقل في عمالة كل عامل باليمن وحضرموت، ولما أظهر الأسود دعوتـــه وأجابـــته بـــنو مذحـــج، وثب على نجران وأخرج عايلها خالد بن سعيد وعمـــرو بـــن حـــزم فلحقا بالمدينة ثم سار الأسود في سبعمائة من جماعته إلى صنعاء فقتل صاحبها شهر بن باذان وتزوج بامرأته وألقى الرعب في قلوب ولاة المسلمين على اليمن حتى كتبوا بذلك إلى الرسول فكتب إليهم يأمرهم بالقيام على ديـــنهم ومناهضة الأسود فأتمروا به حتى قتلوه غيلة في الليلة التي مات الرسول ﷺ فـــي صبيحتها، وبعد مقتل الأسود انقسم الناس في اليمن إلى قسمين قسم ظل علـــى ردتـــه وقسم رجع إلى الإسلام، وتقاتل الفريقان لكن الغلبة كانت للمسلمين فـــرجع عمّـــال رسول الله ﷺ إلى بلادهم، وأقام معاذ بن جبل في صنعاء يصلي بالـــناس، وبعـــثوا وفدا إلى رسول الله ينبئه بما جرى فلم يصل الوفد إلى المدينة حـــتى علـــم بوفاة الرسول ﷺ، ولما بلغت أهل اليمن وفاة الرسول قوي عزم من أبطن الكفر وأعلنوا خروجهم عن الإسلام بزعامة أحد قادة الأسود وهو (قيس بن عبد يغوث)(١٣).

ـ حركة طليحة الأسدي:

ممـــن ادعـــى النبوة أيضاً طليحة بن خويلد، وهو كاهن طموح ذكي، من بني أسد، تنبأ في حياة الرسول ﷺ وتبعه بعض العرب واليهود، وشايعه قومه من بنـــي أســـد بـــن خـــزيمة ودعـــوا إليه أحلافهم من طيء والغوث، واتخذ فلطقة

(سـميراء) من بلاد بني أسد مقراً لحركته، وبلغ أمره النبي ﷺ فبعث إليه ضرار بـن الأزور الأسـدي لمقاتلته والقضاء على فتنته، فسار إليه ولم يكد يصل إلى سـميراء حتى بلغه خبر وفاة النبي الكريم فرجع واستطار أمر طليحة وانضم إليه جمـوع مـن قبائل غطفان وهوازن وغيرهما، وعظم شأنه وقدمت إلى أبي بكر وفود بني أسد وغطفان وهوازن وطيءالعاشر من متوفى رسول الله ﷺ فعرضوا الصـلاة علـى أن يعفوا من الزكاة، وما كان من أبي بكر إلا أنه أبى إلا ما كان رسول الله يأخذ، وأبو افردهم وأجلهم يوماً وليلة فتطايروا إلى عشائرهم"(١٤).

ـ حركة مسيلمة الحنفي:

مـن أكـثر المتنبئيـن خطراً مسيلمة بن حبيب (الكذاب) من بني حنيفة بالـيمامة، وكان مسيلمة فيمن وفد من زعماء بني حنيفة على النبي ﷺ وأسلم في السـنة العاشـرة للهجرة، ولما عاد إلى اليمامة تنبأ وزعم أنه شريك للرسول في النـبوة، وكتـب إلى النبي كتاباً يقول له فيه بأنه قد أوحي إليه، وأن جبريل نزل علـيه يخـبره بـأن الله قـد قاسمه النبوة مع محمد وشاطره الملك والسيادة في جزيـرة العـرب، فكتب إليه الرسول ﷺ كتاباً نصه: "من محمد رسول الله إلى مسـيلمة الكـذاب، سلام على من اتبع الهدى، أما بعد فإن الأرض لله يورثها من يشـاء مـن عـباده والعاقبة للمتقين..". وقد استطاع مسيلمة أن يخدع الرجّال بن عُـنفوة وهـو أحـد وجوه بني حنيفة من المسلمين وكان ممن أسلم وتفقه وكان يقـرئهم القـرآن ويعلمهم أهداف الإسلام ويشد أمر المسلمين، ولكن ما كان من

الـــرجّال إلا أن أعلن أن محمداً أشرك في الرسالة مع مسيلمة، فكان بهذه الشهادة أعظـــم فتـــنة علـــى الإســـلام من مسيلمة، ولم يلبث الرسول أن توفي فعظم أمر مسيلمة وانضمت إليه جموع كثيرة من بني حنيفة والقبائل المجاورة لها[١٥].

وهـــناك، بطبيعة الحال، مرتدون آخرون اكتفوا بترك الإسلام ولم يتنبئوا، ومـــن هـــؤلاء بني ربيعة بالبحرين وكذلك من الذين ارتدوا عن الإسلام مالك بن نويـــرة التميمي ووكيع بن مالك اللذان منعا إرسال زكاة قومهما إلى أبي بكر، كما ارتد عن الإسلام أهل عمان وهوازن وسليم وعامر.

أسباب الردة ودوافعها:

تذكـــر المصـــادر أن العرب ارتدوا بعد وفاة الرسول، ويفهم عامة الناس مـــن ذلك أن العرب رجعوا عن الإسلام إلى الوثنية فإذا نحن تتبعنا تلك المصادر رأيـــنا أن تلك الردة كانت في الدرجة الأولى ثورة على مركزية السلطة ومركزية الـــنظام الاقتصـــادي الـــذي لـــم يـــألفوه سابقاً، وكانت هناك جملة من العوامل المباشـــرة وأخرى غير المباشرة وراء ذلك التمرد والخروج على سلطة الدولة.

مـــن الأســـباب المباشـــرة لحـــركة الارتداد، وفاة النبي ﷺ فقد كان من الطبيعـــي أن يـــربط المسلمون بين شخص النبي محمد ﷺ وبين ما حققه للعرب مـــــن مكاسب دينية وسياسية واجتماعية، يضاف إلى ذلك قوة شخصية الرسول ﷺ والتـــي قامـــت عليه أهم عوامل إعجاب المسلمين به، فلما توفي أحدثت وفاته

اضطرابا عنيفاً لا حدود له في نفوس المسلمين وأحسوا بفراغ هائل وشككوا بقدرة خليفته على ملء ذلك الفراغ.

من جانب آخر كان الجزء الأكبر من قبائل جزيرة العرب يخضع خضوعاً اسمياً فقط لسلطة المدينة، مظهره إرساله الوفود إلى المدينة، وإيتاء الزكاة التي كانت تؤخذ من غلاّت البلاد، لأن الجزيرة لم تكن تعرف العملة إلا في أيدي تجار قريش المتعاملين مع بيزنطة وفارس، وأيضاً إعطاء الخمس من المغانم التي يحصلون عليها في غاراتهم، ومعاداة المشركين، وقبولهم العمال أو القراء لجباية الصدقات وتعليم الدين، يضاف إلى ذلك أن الجزء الأكبر من العرب في الجزيرة فيما عدا عرب المدينة ومكة وبعض القبائل المجاورة لا يعرف من الإسلام غير اسم محمد والقرآن، ولم يكن في كل الحجاز من متحمس لدين الإسلام غير أهل المدينة من الأنصار، وأهل مكة من المهاجرين، ففي الواقع لم يحفل العرب بالإسلام كما لم يحفلوا من قبل بأي من الأديان السماوية الأخرى، ولم يحاولوا فهم قوانينه، أو القيام بمظاهره من صلاة وصيام ووضوء، حيث نعرف قسوة الحياة في البادية وقلة الماء، وإهمال العرب للإسلام ظهر في حياة النبي نفسه، فهم يطالبونه بإسقاط الصلاة أو الزكاة[١٦] و كلاهما من تعاليم الإسلام وأركانه، ولقد احتج المرتدون بأن خضوعهم الأول كان لرسول الله طوعاً أو كرهاً، أما وقد توفي رسول الله فليس لأحد غيره أن يقتضيهم تلك الطاعة وإن ما كان يربطهم بالدولة الإسلامية قد انتهى بوفاته، وقد لخص أحدهم هذا الموقف في بيتين من الشعر:

أطعنا رسول الله ما كان بيننا فيا لعباد الله ما لأبي بكر
أيورثنا بكراً إذا مات بعده وتلك لعمر الله قاصمة الظهر[١٧]

وكان للعصبيات القبلية دور كبير في ظهور حركات الردة، إذ لم يكن من السهل على قبائل العرب التي دخلت الإسلام وأعلنت خضوعها لدولة الرسول ﷺ في المدينة منذ العام التاسع للهجرة (عام الوفود) أن تنسى في أمد قصير لا يزيد على ثلاث سنوات عصبياتها القبيلة التي بذل الرسول الكريم جهوداً كبيرة على إذابتها أو تخفيف حدتها في إطار الجماعة الإسلامية ولم تكن هذه القبائل لترضى بتفوق قريش وزعامتها عليها، واستمرار هذه الرئاسة بعد وفاة الرسول كنوع من الوراثة التي لم يألفها العرب قط.

ومن الشواهد التي أوردتها المصادر وتؤكد بأن الردة كانت حركة سياسية تقوم على العصبيات القبلية ما رواه الطبري، إذا ذكر أن عيينة بن حصن قام في غطفان وتحالف مع بني أسد واتبع طليحة من ثبوت كذبه، مبرراً موقفه بقوله " والله لأن نتبع نبياً من الحليفين أحب إلينا من أن نتبع نبياً من قريش، وقد مات محمد وبقي طليحة"[١٨].

كما ذكر الطبري أيضاً بأن طلحة التمري جاء إلى اليمامة وأراد الاجتماع بمسيلمة واختبار نبوته، فلما جاءه قال له "أنت مسيلمة"؟ قال" نعم قال: من يأتيك؟ قال "رحمن" قال أفي نور أم في ظلمة؟ فقال: "في ظلمة" فقال" أشهد أنك كذاب. وان محمداً صادق، ولكن كذاب ربيعة أحب إلينا من صادق مضر"[١٩]

قمع حركة الردة:

أخذ أبو بكر على عاتقه أن يحارب أهل الردة، ولم يكن على الاستعداد للتساهل معهم في أي أمر من أمور الدين أو الدولة، فقد كان في رأيه أنه لا يجوز أن يهادنوا أو يصالحوا، وإلا أنقض بناء الإسلام ركناً ركنا. وقد بدأ جهاده معهم بالطريقة السلمية بأن أرسل رسله بكتب مفتوحة إلى المرتدين، يدعوهم فيها من جديد إلى الرجوع إلى الإسلام وقواعده والبيعة له، وإلا فالحرب ولكي يظهر أبو بكر ﷺ تصميمه على ذلك خرج إلى " ذي القصة" (موضع قرب المدينة) ليوجه منها الجيوش إلى أهل الردة وفي هذه الأثناء وصل أسامة بن زيد من حملته ظافراً فاستخلفه أبو بكر على المدينة حتى يستريح هو وجنده زحف أبو بكر بنفسه في جمع من المسلمين فنزل في "الابرق" [٢٠] فقاتل من به من المرتدين، وتغلب عليهم وعلى بلاد ذبيان وانسحبت ذبيان وبني عبس إلى طليحة الأسدي في "عين بزاخة" وهي عين ماء لبني أسد تقع بالقرب من مكة [٢١] أما أبو بكر فقد عاد إلى المدينة، وكان أسامة قد استراح هو وجنده وتأهب لخوض المعركة ضد المرتدين، فوزع أبو بكر البعوث وعقد الألوية لأحد عشر قائداً بعد أن منحهم عهود قتال المرتدين وهم.

١. خالد بن الوليد: وسيره لمحاربة طليحة الأسدي في عين بزاخة، ثم مالك بن نويره بالبطاح.

٢. عكـــرمة بن أبي جهل: أمره بالسير نحو مسيلمة في اليمامة ثم التوجه إلى "دبا" بعد الفراغ من اليمامة.

٣. المهاجـــر بـــن أبي أمية: أمره بمحاربة بقايا جنود الأسود العنسي في اليمـــن وإذا انتهى من مهمته يمضي إلى كنده بحضرموت ليجتمع مع زياد بن لبيد ليكونا يداً واحدة على المرتدين.

٤. خالد بن سعيد بن العاص: سيره إلى مشارف الشام.

٥. عمرو بن العاص: أرسله إلى قضاعة والحارث في شمال الحجاز.

٦. حذيفـــة بن محصن الغلفاني: وعهد إليه بمقاتلة أهل دبا، ثم الانضمام إلى عرفجة بن هرثمة.

٧. عرفجة بن هرثمه: وعهد إليه بمقاتله أهل مهرة.

٨. شـــرحبيل بن حسنة: أمره بالسير في أثر عكرمة بن أبي جهل لمقاتلة مســـيلمة، ثم أمره أن يمضي بعد اليمامة إلى قضاعة مدداً لعمرو بن العاص.

٩. طريفة بن حاجز: عهد إليه بمحاربة بني سليم ومن معهم من هوازن.

١٠.سويد بن مقرن: وقد وجهه إلى تهامة اليمن.

١١. العـــلاء بن الحضرمي: وكانت وجهته البحرين لمحاربة من ارتد بها من ربيعة [٢٢].

خـــرج خـــالد بـــن الوليد من ذي القصة نحو عين بزاخة، ليقضي على بقايا غطفـــان وعبس وذبيان ومن انضم إليهم من أسد وفزارة، ففرق جمعهم، وهرب طلـــيحة عند قبيلة كلب في الشام[٢٣] وعرف هذا اليوم بـــ" يوم بزاخة" وقد أسر طلـــيحة فـــيما بعـــد، وأرسل إلى المدينة وقبلت توبته، وعاد إلى إسلامه، وذكر البلاذري أن طليحة أبلى في فتوح العراق ونهاوند بلاء حسنا[٢٤].

بعـــد ذلـــك سار خالد إلى بني عامر المجاورة، وهي تشمل البلاد الممتدة من شـــرق المديـــنة حتى الخليج العربي، وكانت تسكنها قبائل بنو تميم وعشائرها من بني حنظلة، وكان معظم هؤلاء من البدو وكان النبي ﷺ - قد بعث إليهم يدعوهم إلـــى الإسلام، وجعل زعيمهم مالك بن نويرة على صدقات بني حنظلة ولكن بعد مـــوت النبـــي نجد أن مالك بن نويرة مع تمسكه بالإسلام، كان قد حجز الصدقة فقـــط، حـــتى يصح عنده لمن الأمر، ومن استخلفه النبي ومن ناحية أخرى كانت هـــناك امـــرأة ذات شخصـــية غير واضحة أسمها" سجاح" نشأت في قبيلة تغلب النصرانية الموجودة في شمال العراق في منطقة الجزيرة الفراتية، وقد أقبلت عند قومهـــا مـــن بني تميم، الذين التفوا حولها ومع أنها لم تدع النبوة إلا أنها تكهنت علـــى حسب ما كان معروفاً قبل الإسلام ولا يعرف قصد سجاح منذ مجيئها إلى بـــلاد بنـــي عامـــر وجمـــع القبائل حولها فلعلها كانت تريد أن تدافع عن قومها بالـــتعاون مع مالك بني نويرة ضد سلطان دولة المدينة وقد انقطعت أخبار سجاح فجـــأة، فلـــم يســـمع عنها شيئاً، فلعلها عادت إلى بني تغلب في الجزيرة أو إنها أســـلمت ثـــم انتقلت إلى البصرة وعاشت حتى زمن معاوية[٢٥] . ومهما يكن فإن

خـــالداً سار نحو بلاد بني عامر ليقاتل المرتدين فهزم العشائر التي قاومته وبعث الرعـــب فـــيهم، بعـــد أن طلب منهم أن يسلموا إليه المسؤولين عن قتل المسلمين منهم فأتوه بهم، فاستثنى منهم قرة بن هبيرة القشيري ونظراً معه أوثقهم وسيرهم إلـــى أبـــي بكـــر، ومـــثل بالذيـــن عدوا على المسلمين فاحرقهم بالنيران وأثقلهم بالحجـــارة ثـــم رمـــى بهم من الجبال ثم بلغ خالداً أن فلول غطفان وطيء وسليم وهوازن قد اجتمعوا فزحف إليهم واشتبك معهم وهزمهم[٢٦] .

ثم سار خالد نحو البطاح وبها مالك بن نويرة فلما قدم البطاح لم يجد بها أحـــداً، إذ كان مالك قد فرق بني يربوع اتباعه، فبث خالد السرايا، فجاءته الخيل بمالك بن نويره في نفر من بني ثعلبة بن يربوع، فأمر بحبسهم في ليلة باردة، ثم أمـــر رجاله أن يدفئوا الأسرى، والإدفاء في لغة كنانة القتل، فظن جنده، أنه أراد قـــتل الأســـرى فقتلوهم، فلما علم خالد بما حدث أسف لمقتل مالك وتزوج امرأته الجمـــيلة[٢٧] . وكان قتل مالك من العوامل التي أثارت عمر بن الخطاب ﷺ على خـــالد بـــن الوليد، فاتهمه أنه قتل رجلاً مسلماً وتزوج امرأته وعلى الرغم من أن أبـــا بكـــر صـــفح عـــن خـــالد فإن عمر بن الخطاب لم ينس له ما فعله في هذا الموقف.[٢٨].

ثـــم ســـار خـــالد إلى أرض اليمامة، وهي بلاد واسعة تمتد حتى الخليج العربي، سكنها قبائل عديدة من ربيعة، أقواها بنو حنيفة، المعروفة بكثرة عددها، وشـــدة بأســـها وكـــثرة وقائعها. وقد ظهر فيها – كما أشرنا سابقاً – رجل أدعى النـــبوة فـــي حياة النبي ﷺ يسميه المسلمون "مسيلمة" ربما تصغيراً أو استهزاء.

وكـــان مســـيلمة ذا شخصـــية قوية يسيطر على اتباعه، مع أنه كان قصيراً شديد الصـــفرة أفطـــس الأنـــف يلبس ملابس البدو المهلهلة وقد جمع جيشاً كبيراً عدده أربعـــون ألفـــاً وتمكـــن به، قبل وصول خالد بن الوليد من هزيمة جيش صغير للمسلمين مرسل من المدينة بقيادة "عكرمة بن أبي جهل" أحد قواد الردة البازرين وقد حفز هذا النصر مسيلمة إلى التقدم نحو الشمال ليقابل الجيش الذي يقوده خالد ابن الوليد فتقابل جيش مسيلمة مع جيش خالد بمكان من الصحراء في طريق من الـــيمامة يســـمى "عقـــرباء" واشتبكا في معركة فاصلة لم تشهد لها الجزيرة مثيلاً مـــــن قـــبل، واشـــتد القـــتال بين الفريقين، وتبادلا النصر والهزيمة، وتعرض المســـلمون للهـــزيمة اكـــثر من مرة، وكثر القتلى من الطرفين، وانتهت المعركة بهزيمة بني حنيفة، وطاردهم المسلمون حتى ألجأوهم إلى الحديقة، فسميت يومئذ حديقة الموت لكثرة من قتل بها، وفيها قتل مسيلمة، أما بقية أنصاره الذين هربوا والـــتجأوا إلـــى الحصـــون فإنهم أنقذوا حياتهم بالتسليم وبذلك كسرت شوكة بني حنـــيفة إلى الأبد بعد أن دفع المسلمون ثمناً غالياً وبلغ عدد القتلى من بني حنيفة بعقـــرباء ســـبعة آلاف وبحديقة الموت سبعة آلاف أخرى وفي طلب الفلول سبعة آلاف ثالثة تقريباً في حين لم يقتل من المهاجرين والأنصار من أهل المدينة ٦٠٠ أو اكثر وذكر بعضهم أن عدد من استشهد من المسلمين ١٧٠٠ وقيل ٧٠٠ وقيل ١٢٠٠ (٢٩).

بعـــد ذلـــك اتجـــه خالد إلى البحرين على الخليج العربي ليخلص عامل المديـــنة العـــلاء بـــن عماد الحضرمي، الذي حاصرته القبائل المرتدة في مدينة

"هجر" قصبة البحرين وإحدى أسواق العرب المشهورة وكان في البحرين عناصر من الفرس واليهود والنصارى يسكنون الأقسام الساحلية أما غالبية السكان فمعظمهم من بدو العرب من قبائل عبد القيس من ربيعة وبكر وتميم داخل البلاد وقد دعاهم النبي ﷺإلى الإسلام وأرسل إليهم عماله ومعهم العلاء لجمع الصدقات ولنشر الدين ويبدو من الكتب المتبادلة بين النبي وزعماء العرب من سكان البحرين انهم قبلوا الإسلام كما أخذ الصدقة من مجوس هجر، بل وأرسلوا وفداً منهم إلى المدينة (٣٠) ولكن ارتدت العرب بعد موت النبي ﷺ، وإن بقي بعضهم مسلماً وقد تزعم طائفة من المرتدين المنذربن النعمان (من سلالة ملوك الحيرة) أما غالبيتهم فإنهم ارتدوا برئاسة رجل رجل أسمه "الحطم" فسار المسلمون إليهم بقيادة العلاء عامل النبي فهزمه الحطم وألجأه إلى حصن مدينة هجر، إلى أن جاء خالد من اليمامة فقتل "الحطم" ودخل هجر وأنقذ العلاء ثم غادر هجر بعد ذلك إلى العراق بناء على أوامر الخليفة أبي بكر رضي الله عنه لتبدأ بخطوته تلك أولى مراحل حركة الفتح العربي الإسلامي.

ويعد خالد بن الوليد، أهم قواد المسلمين أبطال حروب الردة، وخالد شخصية معروفة ببطشها والتي ظهرت أول ما ظهرت في غزوة أحد التي انكسر فيها المسلمون ثم دخل الإسلام وعرف بشجاعته ومكيدته في فتح مكة، موقعة مؤته، التي انقطع فيها في يده تسعة أسياف، حتى لقبه النبي ﷺ "سيف الله" ويوصف خالد بأنه كان رجلاً مهيباً ضخماً، بعيد المناكب واسع الهيكل، يعد من القواد الذين لم يعرف لهم التاريخ مثيلاً من قبل وقد قال أبو بكر لخالد قبل أن

يغادر ذي القصة لمحاربة المرتدين "احرص على الموت توهب لك الحياة" فكان دوره فـي تلـك الحـرب أهم الأدوار جميعاً، إذ قضى على حركة مسيلمة أكثر المرتدين خطراً على دولة المدينة، وغرس الهلع والذعر في قلوب المرتدين في أكثر مناطق الجزيرة العربية إلى حد أن الكثيرين منهم استسلموا للمسلمين دون قتال، ومنهم بنو عامر بن صعصعة[٣١] .

بقـي العلاء بن الحضرمي في البحرين بعد مغادرة خالد وهاجم المنذر الـذي هرب بعد هزيمة الحطم إلى الحصن المسمى "جواثاء" فهزم العلاء المنذر وعرف ذلك اليوم بـ" يوم جواثاء".

أما عمان، وهي تقع شرقي البحرين، فإن أبا بكر وجه إليها عكرمة بـن أبـي جهـل بعـد هزيمته على يد مسيلمة وكانت عمان بلاد كثيرة تسكنها على الخصـوص قبيلة الأزد، والتي هاجرت إليها من اليمن وكان النبي قد بعث بكتبه إلـى شـيوخها من أسرة "الجلندي " ملوك عمان قبل الإسلام- كما أرسلوا وفدا مـنهم إلى المدينة، وأرسل إليهم أحد رجاله ليأخذ صدقة أعيانهم ولكن قبيلة الأزد ارتدت عن الإسلام بعد موت النبي والتفت حول زعيمها المسمى "ذي التاج" فقتل عكرمة هذا الزعيم، وعدد كبيرا من المرتدين ودخل "دبا" قصبة عمان.

انـتقل عكـرمة بعد ذلك إلى مناطق الشحر وحضرموت واليمن الواقعة على بحر العرب، ليقضي على من ارتدوا هناك حتى ظفر بهم في منطقة الشحر ثـم توجه بعد ذلك إلى حضرموت وكان على رأس المرتدين فيها من قبائل كنده شـخص اسمه الاشعث بن قيس، كان قد جاء مع وفد بلاده إلى النبي. وقد ساعد

عكــرمة أحــد عمال حضرموت من قبل النبي، وهو زياد بن لبيد البياضي، في القضاء على المرتدين الذين التجأوا إلى حصن لهم، فحاصرهم عكرمة وزياد بن لبـيد حــتى تمكــن المسلمون من اقتحام الحصن، وأسر الأشعث بن قيس، الذي أرسل إلى أبي بكر وقبلت توبته وتزوج فيما بعد بأخت الخليفة "أم فروة "(٣٢).

أمـــا اليمن التي كانت خاضعة أسميا فقط لنفوذ الفرس منذ أن طرد منها الأحـــباش قــبل الإســـلام، فقد تركها الفرس وشأنها بسبب انشغالهم بحروبهم مع بيزنطة وبمشاكلهم الداخلية، وكان يسكنها من القبائل العربية طيء وخولان وكنده ومـــراد وحمـــير ومذحج وهمدان، وهي القبائل التي حلت مكان الشعوب المعينية والســبئية والحمــيرية، كما كانت تسكنها طائفة من الأبناء، ومعظمهم من سلالة الجيش الفارسي الذي دخل اليمن بناء على طلب سيف بن ذي يزن لمساعدة أهل اليمن في طرد الأحباش.

وبظهــور الإســـلام أرســلت القبائل العربية وفودها العديدة إلى النبي، وقبلــت الإســـلام، ورضيت بدفع الزكاة، كمعظم قبائل شبه جزيرة العرب كذلك أســلمت فـــي ذلـــك الوقت طائفة من "الأبناء" وعلى رأسهم "باذان" الذي استعمله النبـــي علـــى صـــنعاء بعد إسلامه واستمر على ذلك إلى أن مات – كما سبقت الإشـــارة إلـــى ذلك – وخلفه أبنه "رشهر" في هذا المنصب. وعندما ظهر الأسود العنســي وادعى النبوة في حياة النبي استطاع أن يسيطر على أجزاء كثيرة من اليمـــن، ودخل صنعاء وقتل شهر بن باذان وأكره زوجته "أزاد" على الزواج منه وقد استطاع النبي ﷺ في حياته أن يقضي على ردة الأسود العنسي بتأليب القبائل

التـــي لم تكن ارتدت من حمير وهمدان أو باستمالة أهل بخران النصارى، الذين كـــانوا حلفاء النبي، وأيضاً طبقة الأبناء المسلمين وقد نجح هؤلاء في تدبير خطة لاغتـــيال الأسود العنسي في صنعاء ساعدتهم على تنفيذها امرأة شهر "أزاد" التي كانـــت تحقـــد على الأسود قاتل زوجها، ونجحت الخطة، وقتل العنسي قبل وفاة النبي بأيام، وبذلك عادت اليمن إلى طاعة الدولة الإسلامية كما ذكرنا، وبعد وفاة النبي ارتدت بعض القبائل من حمير والتفت حول أحد اتباع الأسود العنسي، وقد تمكن عكرمة من القضاء على هذا التمرد بعد مجيئه من حضرموت (٣٣).

وهكـــذا انتهـــت بنجاح منقطع النظير كل هذه الحملات التي وجهت ضد المرتدين في أنحاء الجزيرة، واستطاع أمراء وقادة الجيوش الذين سيرهم أبو بكر لقمـــع حـــركة الردة أن يقضوا على المرتدين في أمد قصير، ويسترجعوا للمدينة نفوذهـــا علـــى ســـائر قـــبائل العـــرب فـــي الجزيـــرة، وتحقـــق بذلـــك هدف أبي بكر، ودخل العرب في الإسلام طوعاً وكرهاً، واعترف الصحابة بفضل أبي بكـــر ودوره فـــي قـــتال أهـــل الردة. وقد كانت شجاعة أبي بكر ورباطه جأشه وحكمـــته العامل الرئيس لإنقاذ الموقف وحماية الدولة العربية الإسلامية الفتية من خطر التمزق والانهيار.

وعلـــى الـــرغم من أن حدث الردة كان حقيقة خطراً ماحقاً أحاط بالدولة الفتـــية، وكـــاد يعصـــف بوحـــدة العرب ومنجزاتهم، إلا أن عملية التصدي لها، والـــنجاح الـــباهر في القضاء عليها، أفرزت نتائج إيجابية جداً في صالح الدولة الإسلامية منها.

١. أصبحت شبه الجزيرة العربية، لأول مرة، موحدة سياسياً ضمن دولة مركزية، يرئسها الخليفة وهو أعلى سلطة فيها.

٢. تـــم تثبيـــت دعائم الخلافة كنظام انشقاق عليه، تمرد ضد هيبة الدولة، ويجب قمعه دون رحمة.

٣. كشـــفت حروب الردة عن كفاءات حربية، وقدرات قيادته مثالية فائقة ســـيكون لهـــا شـــأن كبـــير في مستقبل الدولة الإسلامية، وفي حركة الفتوح.

٤. ســـاهمت حروب الردة في مختلف أنحاء الجزيرة، في اختلاط العرب مـــن مختلف القبائل بعضهم ببعض وأدى إلى استقرار عدد كبير من المسلمين في المناطق التي قاتلوا فيها.

٥. كـــان القضاء على حركة الردة بتلك الطريقة الحاسمة، قضاء على أية فكرة للارتداد أو التنبؤ مستقبلاً، حيث اختفت الوثنية إلى الأبد واصبح الإسلام هو الدين الرسمي لعموم شبه جزيرة العرب.

المبحث الثالث

انطلاق حركة الفتوح الإسلامية

دوافعها وأسبابها:

أخـــتلف الباحـــثون في تعليل حركة الفتوحات الإسلامية التي انطلقت في أعقـــاب قمـــع حـــركة الردة– في خلافة أبي بكر الصديق ﷺ، وقد ذهب هؤلاء الباحـــثون مذاهب شتى في تفسير وتعليل دوافعها وأسبابها، فبعضهم يرجع حركة الفـــتوح إلى أسباب اقتصادية بحتة، بينما يرى جمهور آخر منهم أنها تمت بدافع الحمـــاس الدينـــي– أو الجهاد– وقال فريق ثالث أن دوافعها قومية عرقية هدفها إحـــلال الســـيطرة العربـــية على تلك المناطق محل السيطرة الفارسية والرومية وسوف نعرض لمبررات كل فريق من هؤلاء قبل أن نخرج برأي يمكن أن يتفق مع الظروف والشواهد التاريخية آنذاك.

أســـتند أصـــحاب نظـــرية العـــامل الاقتصادية [٣٤] إلى بعض الشواهد التاريخـــية القديمـــة وكذلـــك إلى بعض النصوص في المصادر العربية، فقد عد هـــؤلاء انسياح العرب "المسلح" بعد الإسلام امتداداً للهجرات العربية القديمة التي أدت إلـــى اســـتقرار الأكديين في العراق في الألف الثالث قبل الميلاد والأموبين، في بابل في القرن الثالث والعشرين قبل الميلاد والفينيقيين في سواحل بلاد الشام

بحـــدود ســـنة ١٦٠٠ قـــبل المـــيلاد، وغير ذلك من الموجات التي كانت بمثابة هجـــرات اقتصـــادية إلـــى المـــناطق الغنية الخصبة الواقعة إلى الشمال الشرقي والغربي من الحجاز، نتيجة لتدهور الأحوال الاقتصادية في الجزيرة العربية.

أمـــا الشق الثاني من الحجج التي ساقها أصحاب هذا الرأي فقد استند كما أشـــرنا إلـــى بعض النصوص التي وردت في مصادرنا العربية القديمة فيذكرون نـــص أورده البلاذري وذكر فيه بأن أبا بكر عندما بدأ بتعبئة الجيوش الإسلامية وتســـييرها إلـــى بلاد الشام. " كتب إلى أهل مكة والطائف واليمن وجميع العرب بـــنجد والحجـــاز، يستنفرهم للجهاد ويرغبهم فيه وفي غنائم الروم، فسارع الناس إليه بين محتسب وطامع وأتوا المدينة من كل أوب [٣٥] .

كمـــا اســـتندوا على نص آخر ورد عند البلاذري أيضاً، وهو عبارة عن جملـــة ضـــمن حوار بين القائد الفارسي رستم والمغيرة بن شعبة رسول سعد بن أبـــي وقاص إليه، قال رستم للمغيرة قد علمت انه لم يحملكم على ما انتم فيه إلا ضـــيق المعـــاش وشدة الجهد ونحن نعطيكم ما تتشبعون به ونصرفكم ببعض ما تحـــبون [٣٦] وكذلك على نص أورده الطبري، هو خطبة منسوبة لخاله أبن الوليد ألقاها في جنده يرغبهم في مهاجمة بلاد العجم، فقال خالد مخاطباً جنده "ألا ترون إلـــى الطعام كرفغ التراب؟ وبالله لو لم يلزمنا الجهاد في الله والدعاء إلى الله عز وجـــل، ولـــم يكـــن إلا المعاش لكان الرأي أن نقارع على هذا الريف حتى نكون أولى به، ونولي الجوع والإقلال من تولاه من اثاقل عما أنتم عليه[٣٧].

أمـــا أصحاب التفسير الديني لحركة الفتوحات فقد استندوا أيضاً إلى جملة من المعطيات والنصوص بعضها آيات من القرآن الكريم، وبعضها الآخر خطب القادة وتوجيهاتهم، وقالوا أن جيوش المسلمين خرجت من جزيرة العرب يحدوها تـــيار دينـــي إســـلامي عربـــي جارف فقد كانت أولى وصايا الخليفة الأولى إلى المســـلمين يـــوم بايعوه هي الجهاد في سبيل الله حيث قال لهم يومئذ " لا يدع أحد مـــنكم الجهـــاد فإنـــه لا يدعـــه قوم إلا ضربهم الله بالذل ، ويستند أصحاب هذا الـــــرأي أيضاً على آيات قرآنية [٣٨] كثيرة تؤكد أن الله بعث النبي ﷺ إلى كافة الناس بشيراً ونذيراً ومن تلك الآيات: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً ﴾ [٣٩] ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيراً وَنَذِيراً وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [٤٠] ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً ﴾[٤١].

وقـــد اخـــذ فـــريق ثالـــث بترجيح فكرة الدوافع القومية كمحرك أساسي للفـــتوحات الإســـلامية، مســـتندين بذلك إلى سياسة الرسول ﷺ الرامية إلى نشر الإســـلام فـــي مجالات بعيدة، ومساعيه لتوحيد شبه جزيرة العرب في ظل الدولة العربية الإسلامية، ثم رسائله إلى الملوك والأمراء من جيران العرب يدعوهم إلى الإســـلام والاعتراف به، فضلاً عن الخطوات العملية في هذا الاتجاه والتي تمثلت فـــي غزوات: مؤته وتبوك وحمله أسامة بن زيد بن حارثة، وعندما لم يتهيأ للنبي أن يشـــهد خروج هذه الحملة إلى غايتها، بسبب وفاته ﷺ قبل انطلاقتها، أبى أبو بكـــر الصديق إلا أن يحقق رغبة رسول الله في إنقاذ هذه الحملة إلى مقصدها ثم

جـــاءت محاولات أبي بكر المتلاحقة لانتهاج السياسية ذاتها سواء باتجاه الشام او العراق.

وبعد عرضنا لمجمل هذه الآراء والتصورات عن دوافع حركة الفتوحات يمكننا القول أن القوة العربية التي أوجدها ووجدها تصميم أبي بكر والتي سرعان مـــا انتشـــرت على الأرض، واستطاعت في سرعة البرق الخاطف الإطباق على البيزنطييـــن والفـــرس، وهمـــا أكبر دولتين في العالم آنذاك، وتحرير الأراضي العربـــية مـــن سيطرتهما في أول حركة مسلحة عرفت في التاريخ باسم " حركة الفـــتوح العربـــية الإسلامية" لم يكن دافعها الاستيلاء على الأراضي الخصبة في الشـــام والعـــراق ومصـــر كمـــا حاول البعض أن يفسدها وإن كان تحرير هذه الأراضـــي من الاستعمارين الفارسي والرومي هدفاً من أهدافها، ولم يكن دافعها الجوع، وإن كان تحرير الإنسان العربي من الحاجة المادية غرضاً من أغراضها ولـــم يكـــن دافعها التعصب العرقي الذي يريد أن يحل السيطرة العربية على تلك المـــناطق محـــل الســـيطرة الفارسية والرومية، وإن كان إبعاد النفوذين الفارسي والرومانـــي سبباً من أسبابها، لأن الفرس والروم كانا من التفسخ والاهتراء بحيث انهم باتوا يعيقون التقدم التاريخي في عصر الإسلام الأول ويقفون في وجه تلاقي الشـــعوب الآسيوية حضارياً وثقافياً واقتصادياً بما يفتعلون دوماً من حروب متلفة للاقتصاد العالمي، ومعيقة للتواصل الحضاري، ولأنهم كانوا قد وصلوا إلى حالة من الإساءة الدولية بحيث غدت نفقات جيوشهم عبئاً على اقتصاد العالم آنذاك.

وإذ بحثـنا في مضمون النصوص التي يعتمد عليها أصحاب الرأي القائل بـأن دوافـع حركة الفتح العربي كانت اقتصادية بالدرجة الأساس وجدنا أنها في اغلـب الأحـوال كانـت عـبارات حماسية وردت في سياق خطب القادة، وهذه الخطـب فـيها الكثير من المعاني والمضامين الاخرى، بهدف تهيئة الجند وحثهم علـى القـتال والصـمود وما ينتظرهم من ثواب في الدنيا والآخرة (ومن جانب آخـر ليس لدينا ما يدل على أن حركة الفتح العربي سببها الجفاف أو الجوع، أو ما يشير إلى قحط أو مجاعة ألمت بالعرب آنذاك، والمدقق في نص توجهات أبي بكـر لجيوشـه يدرك تلك الحقيقة "لا تخونوا، ولا تغدروا، ولا تمثلوا، ولا تقتلوا طفـلاً، ولا شيخاً كبيراً، ولا امرأة ولا تقطعوا شجرة مثمرة، ولا تذبحوا شاة ولا بقـرة، ولا بعـيراً ودعوا النساك في صوامعم يتعبدون[٤٢] وعلى هذا الأساس لا يمكنـنا أ نقبل التفسير الاقتصادي لظاهرة الفتح العربي الإسلامي كسبب وحيد أو حاسم.

وكذلـك لا نرى أي سبب يدفعنا إلى الاعتقاد بان العرب كانوا مدفوعين نحـو الفـتوح بالحماس الديني، وإن الحروب التي قاموا بها تعد حروبا دينية ولا نظن أن العرب المشاركين في تلك الفتوحات ومعظمهم من البدو- كانت تسودهم الروح الدينية، أو الرغبة في القتال من اجل نشر الإسلام، وقد رأينا كيف ارتدت العـرب، وإنهـا لـم ترجع إلى الإسلام إلا بحد السيف، إذا كانت هناك قناعات إيمانية قوية لدى الخلفاء وكبار الصحابة وأتقياء المسلمين في المدينة ومكة، فإنها من غير الممكن أن تكون موجودة لدى البدوي – وهو الذي لا يهتم بالدين- ومن

ثـم تدفعـه للقتال من اجل نشر الإسلام فضلاً عن وجود نص صريح في القرآن الكـريم يؤكـد حـرية العقيدة إذ "لا إكراه في الدين [٤٣]، والإسلام دفع بالحرية الإنسانية خطوات مهمة، لم تكن مألوفة آنذاك.

ولا شك أن المسلمين الذين تعرضوا لشتى صفوف الأذى من الكفار في عقـيدتهم، لا يمكـن أن يجبروا غيرهم على اعتناق دينهم، هذا بالإضافة إلى أن الكتـب التـي كتبها النبي، أو المعاهدات التي أبرمها قادة الفتح مع غير المسلمين فـيها تأميـن كـامل وواضح للحرية دينية [٤٤]. أما الجهاد الذي ورد في القران الكـريم أو على لسان أبي بكر، فهو لم يكن يعني في أي وقت من الأوقات غير الدفاع عن الإسلام ومحاربة المشركين أعداء الرسول الذين عارضوه واضطهدوا اتـباعه وأرغموهم على الهجرة إلى الحبشة مرتين، ودفعوا الرسولﷺ إلى البحث عـن دار هجرة، ويتمثل هذا المعنى في قوله تعالى ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ (الحج: ٣٩) ﴿الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ (الحج: ٤٠).[٤٥]

ولـم يكـن تشريع الجهاد يعني نشر الإسلام في جميع أنحاء العالم عن طـريق الحـرب، فقد ظهر الإسلام في زمن اشتدت فيه الاضطهادات الدينية في كـنف الدولتين الفارسية والبيزنطية وفي البلدان المحلية من قبلهما، فأتاح الإسلام بمـبادئه الكـريمة الحرية والتسامح في البلاد التي كانت خاضعة للدولتين ولذلك حـرص العرب الفاتحون على ترك أهل البلاد المفتوحة على دينهم، ولم يرغموا

أحـــدا على اعتناق الإسلام ما داموا يدفعون الجزية [٤٦] . ثم أن الإسلام دعا إلى حـــرية العقـــيدة فلـــم يكره أحداً من أهل الكتاب على اعتناقه وهي السياسية التي رســـمها الإســـلام، ونص عليها القرآن الكريم [٤٧]. لذلك كان المسلمون،إذا أقبلوا على أعدائهم من الروم أو الفرس يعرضون عليهم أحد خصال ثلاث: إما الإسلام أو الجـــزية أو الحرب. لذلك يمكن القول أن الجهاد والرغبة في نشر الإسلام عن طـــريق الحرب، لم يكن الدافع الرئيسي على الفتح – خاصة في المراحل الأولى مـــنه وإنما يمكن اعتباره من العوامل المساعدة والمهمة، إذ لا يخفي ما للدين من قوة دافعة ومحركة للشعوب في تحقيق المعجزات والإنجازات الكبيرة.

وأخـــيراً نعـــتقد أن الدافع إلى هذه الفتوح يرجع بشكل خاص إلى ارتفاع معـــنويات العرب بالدين الجديد، وإن ظهور الإسلام بين العرب كان من شأنه أن أوجـــد بينهم رابطة قوية هي رابطة الدين التي تسمو على الرابطة القبلية، وكان القـــرآن الكريم من جانبه يثير فيهم الإحساس بالكرامة والعزة، وبقوله تعالى"كنتم خـــير أمه أخرجت للناس[٤٨] وعلى الرغم من أن ملامح الثقة بالنفس لدى العرب بـــدأت تظهـــر حتى قبيل الإسلام من خلال حدثين مهمين على الأقل هما خروج جـــيش الحبشة بقيادة أبرهة مهزوماً من مكة، وتحدي عرب العراق مملكة فارس وانتصـــارهم المهـــم علـــيهم في معركة ذي قار إلا أن الأهم هو صاحب الفضل الأول فـــي بعـــث الـــروح القومية عند العرب، وهو الذي نبههم إلى وحدتهم في الجـــنس واللغـــة، ولكـــن العرب الذين قويت معنوياتهم بالإسلام وتوحدوا سياسياً ونفسياً بعد حروب الردة، مازال بعضهم تحت سيطرة ونفوذ الدولة البيزنطية في

بـــلاد الشـــام، والبعض الاخر تحت سيطرة الفرس في العراق، أو على سواحل الخلــيج العربــي، وكانت الفرصة سانحة أمام الخليفة أبي بكر الصديق ﷺ لكي يوحــد شــمل هؤلاء العرب ويدعو من لم يسلم منهم إلى الإسلام، ويضمهم إلى كيان الدولة، كما فعل بالنسبة لعرب الجزيرة العربية، فكانت حركة الفتوح، سيما وأن النبيﷺ قد وضع بذور هذه السياسية من خلال الحملات والغزوات التي أمر بها أو قادها بنفسه على التخوم بين الحجاز والشام.

لقــد كانــت حــركة الفتوح الإسلامية في انطلاقتها الأول مغامرة حربية خرجــت إلــى حيز الوجود دون تخطيط مسبق أو تصور متكامل لمشروع فتح، وإنمــا جــاءت نتيجة لظروف وتطورت خاصة تحكمت في الأحداث، ثم ساعدت عليها عوامل اخرى تأتي في مقدمتها الظروف الدولية آنذاك.

فالظاهــر أن جيران العرب الأقوياء من بيزنطيين في الشمال من جزيرة العــرب، والفــرس في الشرق كانا قادرين في أيام قوتهما على أن يحجزا العرب في بلادهم ويحجم دورهم ولكن الدولتين الكبيرتين اخذ يعتريهما الضعف والوهن ابــتداء مــن القرن السادس الميلادي بسبب الحروب الطاحنة والخصومة الشديدة بيــنهما والتــي أدت إلــى استنزاف طاقاتهما وإشاعة الفوضى والاضطراب في مؤسساتهما الإدارية والعسكرية والمالية، فضلاً عن الحروب الأهلية والانقسامات المذهبــية، والركود الاقتصادي بسبب كساد التجارة، وخاصة تجارة الشرق التي كانت العمود الفقري لاقتصاد العصور الوسطى والتي كان الخليج العربي منفذها الرئيســي إلــى أوروبا وعالم البحر المتوسط وقد تزامنت هذه الظروف العصبية

بالنسـبة للدولتين المذكورتين مع حالة النهوض العربي التي أشرنا إليها ثم كشفت الغـارات العربـية الأولـى على مواضع هاتين الدولتين عن ضعف كبير فيهما، فتتابعـت انتصـارات العـرب وتمكـنوا فـي أقل من عشر سنوات من إنشاء إمبراطورية عربية إسلامية، نجحت بكل اقتدار في القضاء وإلى الأبد على إحدى الدولتيـن الكبيرتين، وتحجيم الثانية بعد طردها من جميع الأراضي العربية التي كانت تحت سيادتها.

تحرير العراق:

أوضاع العراق قبل التحرير:

كـان العـراق قطـراً معـروفاً بغنى أرضه ووفرة مائه، وكان موطناً لحضـارات راقية تعاقبت على ربوعه منذ فجر التاريخ حتى زوال آخر حضارة عراقـية ناضـجة سـنة ٥٣٩ق.م على أيدي الأخمينين الفرس، فقد تعاقبت على احتلال العراق ثلاث دول فارسية، لما زاد على ألف سنة الدولة الأخمينية ٥٣٩ – ٣٣٢ ق.م، والبرثـية ١٤٧ ق.م ٢٢٧م، والساساسنية ٢٢٧ – ٦٣٧م ولقد أقام حكـام هـذه الـدول عاصـمة ملكهم على أرض العراق في المدائن (طيفسون)، والعـراق بفضل ثرائه وموقعه الجغرافي ومورارده البشرية وتاريخه الحضاري، صـار مركزاً للإمبراطورية الفارسية خاصة خلال الحكم الساساني وعلى الرغم من محاولات الفرس أن يطبعوا البلاد بطابعهم من خلال التقسيمات الإدارية التي وضـعوها، وتقسـيم الأراضـي وتسميتها بأسماء ملوكهم، إلا أن القطر المحتل،

(العـــراق) ظـــل متمـــيزاً عن الوطن الأصلي للمحتلين (بلاد فراس) وظل شعبه متمـــيزاً بفضـــل جـــذوره الحضـــارية العميقة كما أن الفرس لم يقدموا إضافات حضـــارية مهمة على ارض العراق على الرغم من طول مدة احتلالهم لهذه البلاد فقد ذكر الخطيب البغدادي[٥٠] في تاريخه، أن الفرس ورثوا نسق بابل للري، كما هـــو ولم يقوموا سوى بتحسينه، فحفروا قنوات ثانوية، لان نظام الري والقنوات الرئيسة كانت سابقة لهم.

وعلى الرغم من أن العراق كان طيلة تلك القرون، قطراً محتلاً خاضعاً، مســتغلاً ولــم يكــن قطــراً قومــياً بالنسبة للحكام الفرس، إلا أنه كان مرتبطاً بالإمـــبراطورية الفارسية إلى درجة يمكن القول معها انه لو ضاع العراق لضاع كـــل شـــيء بالنسبة لهم وقد دلت الأحداث فيما بعد على ذلك فعلاً، خلافاً لما وقع في الشام وفي الإمبراطورية البيزنطية [٥١].

أمـــا بالنسبة لسكان العراق قبيل انطلاق حركة الفتوح العربية الإسلامية، فقـــد ذكـــرت أن اغلـــبهم كـــانوا من العرب القدامى، الذين يطلق عليهم الكتاب العـــــرب أســـم (النبط) أو (النبطيين) وعادة ما يستعمل لفظ النبط في المصادر للإشـــارة إلى الفلاحين الذين يتكلمون الآرامية في العراق، وهم سكان البطائح أو ســـكان القـــرى بشكل عام في الأقسام الوسطى والجنوبية من العراق [٥٢] ويرى الكثـــير مـــن الكـــتاب العرب أن هؤلاء كانوا من العرب القدامى، ولعلنا نجد في العـــبارة التـــي قالها (عبد المسيح بن عمرو) من أهل الحيرة – لخالد بن الوليد، حين سأله: أعرب انتم أم نبط؟

قـال "نحـن عـرب استنبطنا، ونبط استعربنا" إشارة واضحة إلى التفاعل والاخـتلاط بيـن العرب القدامى والمهاجرين الجدد من جزيرة العرب وهو خير جـواب لمـن يـريد معرفة أصل هؤلاء القوم الذي يشكلون جزءاً من المجتمع العراقي، رئيساً ومهما، قبل الإسلام.

أمـا عـرب شـبه الجزيرة فقد كان لهم وجود قديم في المنطقة، وكانت محـاولاتهم للتسـلل من موطنهم الأصلي إلى المناطق الخصبة المجاورة مستمرة فـي كـل العصـور خاصة إلى بلاد وادي الرافدين وربما أشارت المصادر إلى وجـود عربـي قديم جداً في العراق يمتد إلى نحو ثمانية قرون قبل ميلاد السيد المسـيح فقـد روى الطـبري [٥٤]: أن ثمة قبائل من أولاد (معد بن عدنان) حين ضـاق بهم العيش في تهامة والحجاز، نزحوا إلى بابل، فابتنى لهم (نبوخذ نصر) حـيراً (معسـكراً) وحبسهم فيه، ثم تخلى عن هذه الفكرة، فابتنوا الأنبار، شمالي الحـيرة، واستقروا ثم انتشروا في السواد حتى بلغوا الأبلة وفيهم (لحيان وجعفي وكلب وتميم).

ونجـح بعـض القـبائل العربية القوية في إقامة كيانات سياسية مهمة في العـراق، أهمها (إمارة الحيرة) المسماة أيضاً (إمارة اللخميين) نسبة إلى مؤسسها عمـرو بن عدي بن مضر بن ربيعة بن لخم" وقد اتخذت قبائل هذه الإمارة مقراً لهـا فـي معسكر دائم غربي الفرات عرف باسم (الحيرة)، وهي كلمة مشتقة من اللفـظ الآرامي (حرتا) ومعناه العسكر [٥٥] وكانت الحيرة موجودة قبل الساسانين، وأصبحت مملكة ذات شأن في القرن الرابع الميلادي واستمرت كذلك في القرنين

الخـــامس والســـادس، وتمكنت من عقد تحالفات وصلات مع القبائل العربية في العـــراق وشرق شبه الجزيرة العربية، وسرعان ما علا نجمها وازدهرت في قلب الهلال الخصيب بسبب امتداد سلطانها إلى منطقة الخليج العربي، فكانت أراضيها أيـــام ازدهارهـــا تمتد من غرب الفرات، ابتداء من مجراه الأوسط، إلى منتصف الخلـــيج العربي، وكان حاكم البحرين يعين من قبل أمرائها، وكذلك شيوخ القبائل الضاربة على طريق الخليج العربي [٥٦].

وكانـــت قـــبائل إياد وتغلب والنمر تقيم على أرض الجزيرة الفراتية (في الأقســـام الشمالية في العراق) بصورة رئيسة، وهي ترتبط ارتباطاً وثيقاً بمصير الحيرة، كما وجدت أقسام من هذه القبائل في قلب السواد أيضاً [٥٧].

وابتداء من القرن الثالث للميلاد، بدأنا نسمع عن وجود قبائل عربية عديدة فـــي ســـواد العـــراق، وفي إقليم الجزيرة الفراتيه، كان فيهم من تميم وبكر وعبد القـــيس وغـــيرها، قبائل قوية، وقد سكن بعضها إقليم البصرة ومنطقة الآيلة [٥٨] ويـــبدو أن هـــذا الوجـــود العربـــي القوي لم يكن موضع ارتياح من قبل الدولة الفارســـية، لذلك لم تكن علاقات هذه القبائل جيدة بالدولة الساسانية، وكانت تقوم بيـــن فـــترة وأخـــرى بشن الغارات على الحاميات الفارسية في المنطقة وقد لجأ الفـــرس إلى المصانعة والمهادنة مع هذه القبائل لتفادي الهجمات المتتالية عليهم، وتعـــاملوا مـــع كبرى القبائل إلى جوارهم، وهي قبيلة بكر وعينوا رئيسها حاكما علـــى منطقة الأبلة [٥٩] كما لجأوا في مناسبات كثيرة إلى سياسة القسوة والبطش في ضرب هذه القبائل العربية، وأشهر ما تذكره الأخبار عن هذه السياسة ما فعله

سابور ذي الأكتاف مع العرب، فيقال أنه نكل ببعض القبائل العربية وخلع أكتافهم انــتقاماً لوالده، الذي يبدو أن العرب قتلوه، ولذلك سمته العرب بذي الأكتاف [٦٠]، كما أن خسرو الثاني قتل ملك الحيرة النعمان، وذلك الحدث الذي أدى إلى موقعة ذي قــار التي انتصر فيها العرب على العجم. كما مارس الفرس أسلوبا آخر مع تلــك القــبائل بهدف إضعافها وتفتيت قوتها وهو أسلوب التهجير لهذه القبائل أو لأجــزاء مــنها، مناطق سكناها الأصلية إلى مناطق وبيئات واسعة لتهجير القبائل من منازلها إلى منازل اخرى عقابا لها وضمانا لعدم قيامها بغارات على الحدود، ومــع كــل ذلــك ظل وجود هذه القبائل كبيراً وقويا ومؤثراً حتى ظهور الإسلام وتحرير العراق.

مقدمات تحرير العراق:

يــرجع فضــل المــبادرة في تحرير العراق، بدون شك إلى قبيلة "بكر بن وائــل" التــي ســبق الإشــارة إلى وجودها المميز في الساحة العراقية- فقد كان افــرادها أول مــن بدأوا الإغارة على المواقع الساسانية في السواد، وكانت هذه القبــيلة تــترحل في البوادي الغربية من العراق، وامتدت فروع منها من أقاصي طريق الخليج العربي حتى أرض الجزيرة الفراتية، وسكنت حوض دجلة الأعلى فنســبت إلــيها تلــك الجهات، وعرفت بــ(ديار بكر)، وهذه الجهات هي مركز الهــلال الخصــيب الــذي يصل بين الخليج العربي والبحر المتوسط، وهذا يعني

حسن اختيار هذه القبيلة وفروعها لاماكن استقرارها على امتداد طرق التجارة وأسواقها [٦١].

ظهرت داخل هذه القبيلة استعدادات رفض وتحد تجاه الدولة الساسانية ثم سرعان ما مثلت رأس الرمح للعروبة تجاه العجم، كما اتضح ذلك خلال معركة" ذي قار" ثم أثناء مقدمات تحرير العراق، التي انطلقت فعلاً مع قبيلة بكر بقيادة شيخهم "المثنى بن حارثة الشيباني".

لقد مثلت معركة ذي قار منعرجاً خطيراً في تاريخ العلاقات العربية – الساسانية، فقد كانت أول مواجهة بين الفرس والعرب على أرض مكشوفة، وتستند أسباب نشوبها إلى تاريخ العلاقات بين الإمبراطورية ومملكة الحيرة، التي بلغت مرحلتها الأخيرة من التدهور في زمن آخر المناذرة "النعمان بن المنذر" [٥٨٥- ٦١١م] الذي تحدى ملك الفرس، في وقت بدأت القبائل العربية في العراق تلتف حول زعامته [٦٢] .

بعد معركة ذي قار أخذت القبائل العربية "بكر" و"شيبان" و"عجل" وغيرها من القبائل الضاربة في بادية العراق تغير على الدولة الساسانية ، بشكل منتظم، على الحاميات الفارسية بشكل خاص.

وبينما كانت رحى حروب الردة تدور في شبه جزيرة العرب، بلغ إلى علم قبائل (بكر) أن مملكة فارس كانت في أزمة خلافة، فخططت للقيام بغارات كبيرة على السواد، لذلك خرج رجلان من (بكر بن وائل) هما (المثنى بن حارثة الشيباني) و (سويد بن قطبة العجلي)، فنزلا في حشودهما تخوم الدولة الساسانية،

وراحـــا يغــيران علـــى مســـالح الفرس فيغنمان ما استطاعا الوصول إليه وكان (المثـــنى) يغــير مـــن ناحــية الحيرة، بينما كان (سويد) يشن غاراته من ناحية (الأبلـــه)، وأراد (المثـــنى) سيد بني شيبان، ربط هذه العملية بالإسلام فكتب إلى الخلــيفة أبـــي بكر ﷺ (يعلمه ضراوته بفارس، ويعرفه وهنهم، ويسأله أن يمده بجــيش) فلمـــا انتهى هذا الكتاب إلى الخليفة، كتب إلى (خالد بن الوليد) الذي قد فــرغ مـــن أهل الردة، يأمره بالسير إلى الحيرة ومحاربة الفرس، على أن يضم معـــه المثنى ورفاقه، ويذكر البلاذري [٦٣] أن المثنى بن حارثة الشيباني كان يغير علـــى السواد في رجال من قومه وكانت أخبار غاراته على هذا الإقليم ومناهضته للاحـــتلال الفارسي، وانتصاراته عليهم تصل إلى المدينة، وكان أبو بكر ﷺ يتتبع بانـــتظام أخـــبار هـــذا القائد العربي، الذي دفعه شعوره القومي بعروبته إلى هذه المواقف فسأل أصحابه عنه فقال له (عاصم بن سنان المنقري): [هذا رجل غير خامل الذكر، ولا مجهول النسب، ولا ذليل العماد، هذا المثنى بن حارثة الشيباني] ولا نستبعد أن يكون الخليفة قد اتصل به و أيده في مواقفه القومية، وعرض عليه الإســـلام، بدلـــيل قدومـــه إلى المدينة، ومقابلته للخليفة، الذي بادر بعد ذلك إلى إرســـال أول بعـــث حربـــي إسلامي إلى خارج جزيرة العرب، نصرة (المثنى) ومتمتماً ما بدأ به.

الاشتباكات الأولى قبل الحيرة:

سار خالد بن الوليد والمخزومي من اليمامة باتجاه العراق، بناء على أوامر الخليفة أبي بكر ﷺ، وذلك في المحرم من سنة ١٢ للهجرة في ألفين من المسلمين وضم إليه ثمانية آلاف من ربيعة ومضر، فأصبح معه عشرة آلاف، وكان أبو بكر قد كتب إلى المثنى يأمره ببذل الطاعة لخالد والانضمام إليه، كما كتب إلى قائد آخر على الفرس يدعى مذعور بن عدي العجلي يأمره بأن ينضم إلى خالد ويكون تحت أمرته أثناء عمليات التحرير للمدن العراقية.

يبدو أن وصول خالد إلى العراق رفع من الروح المعنوية عند القبائل العربية الثائرة على الفرس، كما أذكى روح النضال عند عرب العراق ضد الفرس فقد طلب زعيم ثالث من بكر بن وائل وجماعة من قومه كانوا ينزلون في الموضع الذي قامت عليه البصرة فيما بعد، اسمه سويد بن قطبة، الانضمام إلى قوات خالد ومساعدته في التغلب على القوات الفارسية في منطقة الأبلة، وذكروا انه قال لخالد :" إن أهل الأبله قد جمعوا لي، ولا أحسبهم امتنعوا مني إلا لمكانك" فأجابه خالد بقوله: "فالرأي أن أخرج من البصرة نهاراً ثم أعود ليلاً، فأدخل عسكرك بأصحابي، فإن صبحوك حاربناهم" ففعل خالد ذلك، وتوجه نحو الحيرة فلما أقبل عليه الليل قفل عائداً إلى البصرة وانضمت قواته إلى قوات سويد، وظن الفرس في الأبله أن خالد قد انصرف عن البصرة، ووجدوا في ذلك فرصة مواتيه ليهاجموا سويد ويقضوا عليه، ثم إنهم هاجموا معسكر سويد فحمل عليهم

خالد وسويد بقواتهما المشتركة، فانهزم الفرس، وقتل المسلمون عدداً كبيراً منهم، كمـا لقـي العـدد الأعظـم منهم حتفه غرقاً في مياه دجلة البصرة [شط العرب] واسـتغل خـالد هذا النصر وهزيمة الفرس فاستولى على الخريبة، وهي مسلحة للفـرس، واستخلف عليها شريح بن عامر (٦٤) ويقال أيضاً أتى النهر الذي يعرف بـنهر المـرأة فصـالح أهله، وإنه قاتل جمعاً بالمزار (٦٥)، ثم سار يريد الحيرة وخلـف سـويد بن قطبة على ناصيته وقال: له "قد عركنا هذه الأعاجم بناصيتك عركة أذلتهم لك"(٦٦).

تحرير الحيرة:

مضـى خالد نحو الحيرة فافتتح كسكر ودرني وهرمز جرد بالامان، وسار إلـى ألـيس فتصدى له جابان صاحب أليس، فبعث إليه خالد المثنى بن حارثة، فقاتلـه وهزمه وقتل جل عسكره إلى جانب نهر عرف بنهر الدم، ثم صالح خالد أهل أليس على أن يكونوا عيوناً للمسلمين على الفرس وأدلاء وأعواناً (٦٧).

واصـل خـالد زحفه نحو الحيرة حتى خرجت إليه فرسان أرذابة صاحب صـاحب خـيل كسرى التي كانت مرابطة في المسالح الواقعة على الحدود بين الفـرس والعـرب، فقاتلـه المسـلمون في موضع يعرف بـ " مجتمع الأنهار" وهـزموه، ونـزل المسـلمون علـى الحيرة فتحصن أهلها في القصر الأبيض وقصـر ابن بقيلة وقصر العدسيين، فخرج إليهم عبد المسيح بن عمرو بن قيس بـن بقـيلة مـن الأزد، وهاني بن قبيصة بن مسعود الشيباني وإياس بن قبيصة

الطائي، وإياس هذا كان عاملاً لكسرى أبرويز على الحيرة بعد النعمان بن المنذر فصالحوا خالداً على مائة ألف درهم، وقيل على ثمانين ألفاً في كل عام، على أن يكونوا عيوناً للمسلمين على الفرس ونزل خالد بقصر الخورنق [٦٨].

وتذكر المصادر أن حواراً طريفاً جرى بين خالد بن الوليد وعبد المسيح ابن عمرو، عندما استقبل عبد المسيح خالداً وكان كبير السن " فقال له خالد: من أين أقصي أثرك يا شيخ؟

فقال : من ظهر أبي.

قال (خالد) فمن أين خرجت؟

قال: من بطن أمي.

قال (خالد): ويحك في أي شيء أنت؟

قال: في ثيابي.

قال(خالد) على أي شيء أنت؟

قال: على الأرض.

قال (خالد): أتعقل؟

قال: نعم وافيد.

قال(خالد): ويحك إنما أكلمك بكلام الناس.

قال: وأنا إنما أجيبك جواب الناس.

قال (خالد): أسلم أنت أم حرب؟

قال: بل سلم.

قال (خالد) فما هذه الحصون؟

قال: بنيناها لسفية حتى يجيء الحليم.

ثم تذاكر الصلح فاصطلحا على مائة ألف يؤدونها في كل سنة فكان الذي أخـــذ مـــنهم أول مـــال حمل إلى المدينة من العراق (٦٩) وكان ذلك في سنة ١٢ للهجرة.

أمـــر خـــالد ببشير بن سعد الأنصاري بالمسير إلى بانقياء، فاشتبك معه فرســـان الفـــرس بقـــيادة (فـــر خبـــنداد) ورشقوا من معه بالسهام، فحمل عليهم وهـــزمهم، وقتل (فرخبنداد) في المعركة، وأصيب بشير بن سعد إصابة بالغة، لم يلبـــث أن توفـــي بســـببها وهو بعين التمر فبعث خالد جرير بن عبد الله البجلي لـــيحارب أهـــل بانقـــياء، وعندئذ خرج إليه (بصبهري بن صلوبيا) فاعتذر إليه عـــن القتال، وعرض عليه الصلح، فصالح جرير على ألف درهم وطيسان (٧٠)، فوجـــه خـــالد بالطيســـان إلى أبي بكر مع مال الحيرة والألف درهم التي صالحه عليها ابن صلوبا، فوهب أبو بكر الطيسان للحسين بن علي ﷺ (٧١).

تحرير الأنبار:

توجـــه خالد بعد الحيرة لفتح الانبار، وعندما وصلها تحصن أهلها، وقدم إليه بها المثنى بن حارثة، فحاصرا أهلها، واحرقا نواصيها، واضطر أهل الأنبار وقـــائد حاميـــتها الفارسية (شيرزاد) إلى مصالحة خالد على ما احب كذلك وجه

خالد بن الوليد المثنى للإغارة على سوق يقال لها سوف بغداد الواقعة عن قــرن نصر الصراة، وكان يجتمع بها طوائف من كليب وبكر بن وائل وقضاعة، فأغار عليها وأصاب ما فيها.

فــي هــذه الأثناء كتب أبو بكر إلى خالد يأمره بالمسير إلى الشام ليمد أبا عبيدة بن الجراح بمن معه المسلمين، فلم يتردد خالد في تلبية أمر الخليفة، وخلف في الحيرة عمرو بن حزم الأنصاري مع المثنى، فسار إلى الانبار، ثم رحل عنها إلــى عيــن التمر، وهي بلدة في طرف البادية غربي الفرات كانت مسلحة لأهل فــارس وكــان يتولى الدفاع عنها مهران بن بهرام بن جوبين في جمع عظيم من العجم وعقه بن أبي عقة في حشد كبير من العرب من التمر وتغلب وإياد، فخرج أهــل الحصــن لمقاتلة المسلمين، ونشب قتال عنيف انتهى بهزيمة أهل الحصن، فانســحبوا إلــى حصــنهم ولزموه، فحاصرهم خالد حتى طلبوا الأمان، فأبى أن يؤمــنهم واستنزل الحصن عنوة، فقتل المدافعين عنه وسبى ذراريهم، من بين من ســباهم " يســار جــد محمد بن إسحاق" صاحب السيرة، ونصير والد موسى بن نصــير" فــاتح المغرب والأندلس وسيرين أبو محمد بن سيرين واخوته" ثم وجه خــالد وهــو بعين التمر (النسير بن ديسم بن ثور) إلى ماء النبي تغلب، ففاجأهم بالغــارة فقــتل منهم جماعة كبيرة وأمر طائفة، ومن هناك أغار النسير على حي مــن ربيعة، ثم تكريت وعكبرا وغنم غنائم كثيرة، وسار خالد من عين التمر إلى الشــام بعــد أمر المثنى بن حارثة بان يعود إلى مقر قيادة الحيرة. وكان مسيره إلــى الشام في شهر ربيع الآخر سنة ١٣ هجرية وظــل المثنى يواصل هجماته

على القوات الفارسية في سواد العراق حتى توفي أبو بكر في ٢٢ جمادى الآخرة سنة ١٣ هجرية [٧٣].

تحرير بلاد الشام:

بعـــد العـــراق جـــاء دور بـــلاد الشام، أو ما يسميه اليونان بـــ "سورية" SYRIA، وهـــي بلاد واسعة تمتد من شمال الحجاز إلى البحر الأبيض المتوسط، ومـــن الفرات إلى الديار المصرية، فيشمل الأراضي الخصبة قرب الساحل التي تغذيهـــا عـــدة انهار أهمها: اليرموك، والأردن، وبردى، والأرنْد وقويق، وايضاً بادية واسعة تمتد حتى قرب الحجاز ومصر تعرف بـــ "البلقاء".

أمـــا ســـكان الـــبلاد فكان أغلبهم عرب توافدوا عليه من داخل الجزيرة العربـــية فـــي شـــكل موجـــات ضخمة منتظمة مثل: العاموريين والكنعانيين أو "الفينيقييـــن" والآراميـــن والأنـــباط، وأخيراً العرب اليمنيين من قبائل الضجاعم وغسان وكلب وعذرة وجذام وجهام، حيث كانت هذه الأقوام والقبائل تكون معظم سكان بلاد الشام.

وقـــد نشـــأت في بلاد الشام دول عديدة نتيجة لهذه الهجرات، وأقامت لها حضـــارات متمـــيزة مـــنذ قديم الزمان، ولكون بلاد الشام منطقة اتصال وجسر أرضي يربط بين عالم البحر المتوسط وعالم الخليج العربي والمحيط الهندي عبر العـــراق، وطمعت فيه الدول القوية في حوض البحر المتوسط، مثل: المصريين

القدمـــاء والبطالمة والرومان، وأخيراً البيزنطيين، الذين يسميهم العرب "الروم" [٧٤] كما طمعت فيها الدولة الشرقية الكبرى – الفارسية – وقامت بغزوها عدة مرات.

إن قيام الدويلات العربية المستقلة في بلاد الشام، كانت دائماً محط اهتمام الدولة الرومية ورعايتها وتشجيعها، وكانت حريصة على الاحتفاظ بعلاقات طيبة معهـا، وذلـك مـن اجل أن تقف حارسة لحدود أملاكها في الشرق ضد غارات عرب الحجاز أو الفرس، **ومن تلك الدويلات:**

الأنـباط والـتدمريون وأخيراً الغساسنة، والذين كانت تطلق عليهم بعض المصـادر العربـية اسـم "روم العرب" [٧٥] لتحالفهم مع البيزنطيين إلى التمسك بـبلاد الشام الأشراف المباشر عليه، وقيامهم بتقسيمه إلى أقسام عسكرية عرفت بالأجـناد ونشروا فيه الحاميات العسكرية، وهذا النظام هو الذي طبقه العرب بعد تحرير بلاد الشام.

ولابـد مـن الإشـارة إلى أن ظهور السيد المسيح "عليه السلام" في بلاد الشـام "فلسـطين " كـان سببا في تحول أهله منذ وقت مبكر إلى اعتناق الديانة المسـيحية. وسـاعد علـى ذلك أن الدولة البيزنطية – التي ورثت الرومان في الشرق – جعلت المسيحية ديانتها الرسمية منذ زمن الإمبراطور قسطنطين الأول (–   م) ومـع ذلك كان سكان بلاد الشام، الذين كان أغلبهم من النصارى العـرب، يعتـنقون المسيحية على مذهب مخالف للمذهب البيزنطي، كما تميزت المسـيحية الشامية أيضاً بالرهبنة التي ربما، انتقلت إليها من مصر، بحيث كثرت في الشام الصوامع والديارات [٧٦].

وفـــي الواقع يمكننا أن نقول أن نوايا توسيع دولة الإسلام كانت قد بدأت فـــي حـــياة الرسول ﷺ الذي اتجه بنظرة شمالاً، أي إلى بلاد الشام فكانت سراياه وغـــزواته بهذا الاتجاه، وأهمها كانت غزوة "مؤته" التي جسدت بدايات المشروع السياســـي للدولة العربية الإسلامية في بلاد الشام فضلاً عن أهدافها الاقتصادية، في تأمين الطريق التجاري للشام الذي كان يشكل عصب الحياة الحجازية.

وقبـــيل أن يـــتوفاه الله أعد الرسول الكريم ﷺ في المحرم عام ١١هـــ/ ٦٣٢م جيشـــاً للمســـير إلـــى بلاد الشام، يقوده (أسامة بن زيد) وأمره "أن يوطئ بالخيل تخوم البلقاء والداروم من أرض فلسطين" كما يروي الطبري (٧٧).

وبعـــد وفـــاة الرسول ﷺ أصر الصديق ﷺ على إنفاذ جيش (أسامة) إلى مقاصـــده التـــي حددهـــا رسول الله، ولم يتراجع عن موقفه هذا، على الرغم من تدخـــلات الصـــحابة وطلـــبهم تأجـــيل ذلك بسبب الخطر المحدق بدولة المدينة وبالإســـلام نتـــيجة لحـــركة الارتداد الواسعة التي عمت أنحاء مهمة من جزيرة العـــرب. فمضـــى (أسامة) إلى الشمال وأوقع بقبائل من قضاعة كانت قد ارتدت عـــن الإســـلام ثم أغار على (أيل) وهي قرية من قرى (مؤته) وقتل من تعرض لجيشه من أهلها وغنم غنائم كثيرة (٧٨).

ولـــم يكـــتف أبـــو بكر بما حققه أسامة في حملته، فعندما اشتدت حركة الـــــردة عقد لخالد بن سعيد بن العاص وسيره إلى مشارف الشام، في حين عقد لعمـــرو بن العاص وأرسله إلى قضاعة، ويعد لواء خالد بن سعيد أول لواء عقده إلـــى الشام، ولكنه أيا بكر لم يلبث أن عزله عن الإمارة وأمر مكانه يزيد بن أبي

سـفيان، بعـد هزيمته على أيدي الروم ومنتصره عرب الشام من بهراء وسليح وغسان وكلب ولخم وجذام بقيادة القائد البيزنطي باهان.

كتـب خالد إلى أبي بكر يعلمه بالهزيمة ويستمده فسير إليه أبو بكر بعثاً مـن المسـلمين بقيادة ذي الكلاع الحميري وعكرمة بن أبي جهل، ثم لحق بهما الولـيد بن عقبة في جيش لمساندته وبينما كان أبو بكر يستنفر أهل مكة والطائف واليمـن كان المدد الذي أرسله إلى خالد بن سعيد ويتجه إلى تيماء ثم زحف خالد ابـن سـعيد إلى جنوبي البحر الميت لمقاتله الروم، فاستدرجه باهان، فتبعه خالد ومعـه ذو الكـلاع وعكـرمة والوليد، إلى أن وصلت قوات المسلمين إلى مرج الصـفر الواقع إلى الشرق من بحرية طبرية وعندئذ طوقتها قوات باهان وقطعت على المسلمين خط الرجعة، واضطر خالد بن سعيد إلى أن يشتبك مع البيزنطيين فـي إحـدى المواقع فانهزم وقتل ابن له، وفر بنفسه إلى ذي المروة قرب المدينة تاركـاً جيشـه تحـت رحمة الروم، ولكن عكرمة بن أبي جهل نجح في تغطية انسحاب قوات المسلمين إلى حدود الحجاز، وظل مقيما هناك رداء للمسلمين [٧٩]، أمـا خالد بن سعيد فقد عد متخاذلاً وجباناً في الحرب. وأمره أبو بكر بالبقاء في المدينة وعدم مغادرتها.

اسـتجاب عـدد كبير من المتطوعين لنداء أبي بكر ﷺ وأخذت الحشود تـتوافد مـن سائر أنحاء الجزيرة وتتجمع في المدينة في معسكرين، وبعد اكتمال تنظيمها في شهر المحرم سنة ١٣هـ / ٦٣٤، عقد أبو بكر ثلاثة ألوية.

الأول: لشرحبيل بن حسنة، "وهو شرحبيل بن عبد الله الكندي وحسنة أمه [٨٠].

الثاني: لعمرو بن العاص بن وائل السهمي.

الثالث : ليزيد بن أبي سفيان وقد عد ذلك التاريخ بداية الانطلاق الرسمي المنظم لحركة الفتوح الإسلامية التي غيرت مسار التاريخ الإنساني في العصر الوسيط أراد الخليفة أن يكون زحف القواد الثلاثة من جهات متعددة: فسار عمرو بن العاص عن طريق آيلة أو ساحل البحر الأحمر (القلزم)، باتجاه أرض فلسطين، وسلك يزيد وشرحبيل طريق "تبوك" أو البلقاء نحو شرق الأردن، وقد واجه القادة الثلاثة مقاومة من سكان المناطق التي مروا بها وخاصة من بعض العرب المتنصرة مما جعلهم يطلبون المدد من المدينة، على الرغم من أنهم تمكنوا من تثبيت أقدامهم بنجاح في جنوب الشام، لذلك أرسل إليهم الخليفة المدد الذي توافد على المدينة بقيادة أبو عبيده بن الجراح من جانب آخر ألحق أبو بكر الوليد بن عقبة بشرحبيل، وألحق علقمة بن محزر يبعث عمرو بن العاص، والحق معاوية بن أبي سفيان ببعث يزيد بن أبي سفيان وسير معه جماعة من المجاهدين.

وقعت اشتباكات متفرقة مع البيزنطيين أولها وقعة كانت بين المسلمين بقيادة يزيد والبيزنطيين بقيادة بطريق فلسطين بقرية من قرى غزة يقال لها داثن وانتهت بهزيمة البيزنطيين وانسحابهم إلى غزة، بينما سار يزيد مطارداً القوات البيزنطية المنسحبة، بلغه أن بوادي عربة من أرض فلسطين حشوداً بيزنطية،

فسير إليها يزيد قائداً من قواده يعرف بأبي أمامه بن عجلان الباهلي، الذي تمكن من الإيقاع بهم وقتل أحد قوادهم(٨١).

بلغت أخبار توافد قوات المسلمين على جنوب الشام إلى الإمبراطور فاستعد للمواجهة، وعمد إلى مقاتلة جيوش المسلمين كل على حده" وأراد اشغال بعضهم عن بعض لكثرة جنده وفضول رجاله، وأرسل إلى عمرو أخاه تذارق لأبيه وأمه، فخرج نحوهم في تسعين ألفاً، وبعث من يسوقهم حتى نزل صاحب الساقة ثنية جلق بأعلى فلسطين، وبعث جرجة بن توذرا نحو يزيد بن أبي سفيان فعسكر بازائه، وبعث الدارقص، فاستقبل شرحبيل بن حسنة وبعث الفيغار بن نسطوس في ستين ألفاً نحو أبي عبيدة، فهابهم المسلمون وجميع فرق المسلمين واحد وعشرون ألفاً سوى عكرمة في ستة آلاف" (٨٢) . وتدارس قادة جيوش المسلمين الموقف الجديد والتفوق العددي الكبير لجيوش العدو، فقال عمرو بن العاص" إن الرأي الاجتماع وذلك أن مثلنا إذا اجتمع لم يغلب من قلة، وإذا نحن تفرقنا لم يبق الرجل منا في عدد يقرن فيه لأحد ممن استقبلنا وأعد لنا لكل طائفة منا" (٨٣). وكان الخليفة أبو بكر قد رد عليهم بمثل هذا الرأي عندما نقلوا إليه صورة الموقف الجديد إذ قال لهم "اجتمعوا فتكونوا عسكرا واحداً، وألقوا زحوف المشركين بزحف المسلمين، فإنكم أعوان الله، والله ناصر من نصره وخاذل من كفره، ولن يؤتى مثلكم من قلة وإنما يؤتي العشرة آلاف إذا أتوا من تلقاء الذنوب، فاحترسوا من الذنوب، واجثموا باليرموك متساندين، ليصل كل رجل منكم بأصحابه" وفي الوقت ذاته كتب أبو بكر إلى خالد بن الوليد وهو في العراق

يستحثه على المسير والالتحاق بجيوش المسلمين في الشام على أن يصحب معه نصف عدد المسلمين ويترك النصف الآخر مع المثنى بن حارثه. فسار خالد بن الوليد في شهر ربيع الأول سنة ١٣هـ، بمن معه من المقاتلين واخترق الصحراء الفاصلة ما بين العراق والشام في ثمانية أيام، ماراً بقراقر، وسوى وقرقيساء ودومة الجندل، وقصم وتدمر وحوارين ومرج راهط وثنية دمشق إلى أن وصل إلى بصرى وعليها شرحبيل بن حسنة ويزيد بن أبي سفينان وأبو عبيده بن الجراح فاشترك خالد في محاصرتها، فصالحه أهلها. تم افتتح المسلمون جميع المناطق التابعة لكورة حوران " وتوجه أبو عبيدة بن الجراح في جماعة من المسلمين كثيفة من أصحاب الأمراء ضموا إليه فأتى مآب من أرض البلقاء وبها جمع العدو فافتتحها صلحاً على مثل صلح بصرى وقال بعضهم أن فتح مآب قبل فتح بصرى" (٨٤).

معركة أجنادين:

ما أن وصل خالد بن الوليد قرب دمشق حتى علم بتحرك جيش كبير للروم ضد المسلمين فأمر جميع جنوده بالتجمع في اجنادين، وهي بلدة قرب الرملة من أرض فلسطين، حتى لا ينفرد عدوهم بهم وهو متفرقون فقد أرسل هرقل من حمص شمال بلاد الشام أخاه تيودوروس (ويسميه العرب وردان) على رأس جيش كبير، يزيد عدد على مائة ألف من الروم وبعض العرب المتنصرة (الأنباط) ومعه البطاركة والقسس والرهبان بالصلبان، وقد سلحوا

بالأسلحة المعروفة في ذلك الوقت: فكان المقاتلة منهم يلبون خفاف الحديد في أرجلهم، وهب مكفونة في الدروع لا يرى منهم إلا الحدق وحينما وصل تيودورس إلى اجنادين نظم جيشه أمام العرب، على أحدث ما هو معروف عند الروم من فن الحرب، فوضع فارساً بين كل اثنين من المشاة أحدهما ناشب والاخر رامح.

أما المسلمون الذين تجمعوا في اجنادين فقد كان عددهم لا يزيد على ثلاثين ألفاً من قبائل متعددة اتخذت لها رايات وألوية، وشعارها عقيدة الإسلام، وكان لخالد ابن الوليد راية خاصة به أسمها "العقاب" (٨٥) وكانت أسلحة المسلمين بسيطة بدائية لا تصل إلى قوة أسلحة الروم وإن كان بعضهم من أهل اليمن يلبس الدروع والبيض (أي الخوذ) وقد نظمهم خالد إلى فرق للرجالة: ميمنة وميسرة وجعل الفرسان وحدهم ليحاربوا على حدة، فكان منهم من يمتطي الخيل أو الأبل. أما خالد نفسه فقد تعمم بعمامة صفراء، واشتهر بحريرة حمراء، حتى يراه الجميع.

زحف المسلمون وتم اللقاء بين البيزنطيين وبين المسلمين، واشتد القتال بين الفريقين، وأبلى خالد بن الوليد، يؤمئذ، بلاء حسناً، وعلى الرغم من عدم تكافؤ العدد والسلاح بين الجانبين فقد استطاع المسلمون أن يتغلبوا على الروم بشجاعتهم وارتفاع روحهم المعنوية بالدين الجديد فتمكن المسلمون من قتل عدد كبير من الروم في هذه المعركة التي دارت رحاها في جمادي الأول من سنة ١٣

هـــ/ يوليو ٦٣٤ م، كانت هذه أول وقعة عظيمة بين عرب الحجاز والبيزنطيين منذ أن ظهر الإسلام.

لقـد انتهــت المعــركة بهزيمة نكراء مني بها البيزنطيون وقتل الفيقار وتـذارق واعــداد هائلة منهم واستشهد من الجانب الإسلامي بعض الشخصيات الإســلامية البارزة منها: عبد الله بن الزبير بن عبد المطلب وعمرو بن سعيد بن العــاص بــن أمية وأخوه أبان بن سعيد، ولما انتهى خبر هذه الواقعة إلى هرقل سقط في يده، وامتلأت نفسه رعبا، فنقل مقر قيادته من حمص إلى إنطاكية [٨٦].

لقد كان للانتصار في "أجنادين" وقع عظيم بحيث اعتقد المسلمون أن هذا النصــر مــن الله بحيــث اعــتقد المسلمون أن هذا النصر من الله، وقد استغلت "المديــنة" هــذا النصــر استغلالاً كبير في حث المسلمين على الجهاد بحيث أنه اســتغل الحمــاس فــي عــرب الجزيرة مما جعلهم يتقاطرون على بلاد الشام، ويشــجعهم علــى السير بدون تردد للانخراط في مشروع الفتح بل ظهرت نوايا الكثــير مــنهم فــي سكنى بلاد الشام نهائياً وعلى العكس كانت الهزيمة لأعدائهم الــروم فــي "أجناديــن" طعــنة غــير منتظرة بحيث لم يصدق هرقل ذلك، ولم يتصــورا إطلاقاً بأن هزيمتهم في "أجنادين " ستؤدي إلى القضاء على وجودهم نهائــياً فــي بلاد الشام وشمال إفريقيا، وإنما اعتقدوا أنها محنة طارئة أو غضب إلهي بسبب ما ارتكبوه من الخطايا والذنوب.

توفــي أبــو بكــر فــي ٢٢ ﷺ من جمادي الآخرة سنة ١٣هـ/ ٢٣ اغســطس ٦٣٤م، بعــد هــذا الانتصار الكبير، وذلك بعد أن قضى في الخلافة

حوالي سنتين وثلاثة أشهر [١١-١٣هـ/ ٦٣٢- ٦٣٤م] وقد حافظ على الإسلام مـن ردة العرب، ووجه الجيوش نحو الفتوح، مما يجعلنا نعده من أعظم مؤسسي الدولة الإسلامية بعد النبي.

هوامش الفصل الأول

١- حول موضوع الخلافة ونظام الحكم في الإسلام أنظر:

- الماوردي، الأحكام السلطانية.
- ابن طباطبا، الفخري في الآداب السلطانية.
- القلقشندي، مآثر الإناقة في معالم الخلافة.
- ابن حزم الأندلسي، الفصل في الملل والأهواء والنحل.
- المقريزي، السلوك في دول الملوك.
- حسن إبراهيم حسن وآخر، النظم الإسلامية.
- صبحي الصالح، النظم الإسلامية.
- محمد الخضري، تاريخ التشريع الإسلامي.

٢- الأعراف: ١٤٢.

٣- البقرة: ٣٠.

٤- الماوردي، أبو الحسن علي بن محمد البصري، الأحكام السلطانية والولايات الدينية، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٩٩٠، ص٢٩.

٥- ابن خلدون، المقدمة، ص٣٣٨.

٦- الإسراء: ٧١.

٧- خليل عبد الكريم، الجذور التاريخية للشريعة الإسلامية، دار سيناء القاهرة، ١٩٩٠، ص١٠.

٨- عــبد العزيــز الدوري، مقدمة في تاريخ صدر الإسلام، بيروت، ١٩٦٠م، ص٤٨.

٩- ابــن هشــام، ج٤، ص٣١١، الطــبري، ج٣، ص٢٠٣، السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص٦٤.

١٠- الحجرات: ١٤,

١١- انظر: ابن هشام، ج٤، ص٣١٦ وما بعدها، البلاذري، فتوح البلدان، ج١، ص١١٤ وما بعدها.

١٢- عبد العزيز الدوري، مرجع سابق، ص٤٢.

١٣- انظر: الطبري، ج٣، ص٢٣٠ وما بعدها، البلاذري، ج١، ص١١٩.

١٤- الطبري، ج٣، ص٢٣٣.

١٥- البلاذري، ج١، ص١٠٧ وما بعدها.

١٦- المصدر نفسه، ج٣، ص٢٣٠.

١٧- الطبري، ج٣، ص٢٣٣.

١٨- المصدر نفسه، ج٣، ص٢٣٠.

١٩- نفسه، ج٣، ص٢٤٦.

٢٠- ياقوت الحموي، ج١، ص٦٨.

٢١- المصدر نفسه، ج١، ص٤٠٨.

٢٢- الطبري، ج٣، ص٢٢٥ .

٢٣- الطبري، ج٣، ص٢٣٢، ابن الأثير، ج٢، ص٣٤٨.

٢٤- البلاذري، ج١، ص١١٥.

٢٥- عبد المنعم ماجد، التاريخ السياسي للدولة العربية، المكتبة الإنجلو مصرية، القاهرة،.

٢٦- الطبري، ج٣، ص٢٣٣ - ٢٣٥.

٢٧- ورد فـــي بعض الروايات أن مالكاً لم يرتد وأن بني حنظلة وضعوا السلاح وأعلنوا استسلامهم لجيوش خالد، البلاذري، ج١، ص١١٧.

٢٨- الطبري، ج٣، ص٢٤٣.

٢٩- البلاذري، ج١، ص١١١.

٣٠- ابن سعد، ج١، ص٥٤.

٣١- البلاذري، ج١، ص١١٦، ابن الأثير، ج٢، ص١٦٠.

٣٢- ابن هشام، ج٢، ص٩٥٣، البلاذري، فتوح البلدان، ص١٠١- ١٠٤.

٣٣- ابن الأثير، ج٢، ص٢٦٠.

٣٤- ومـــنهم المستشرق الإيطالي "كايتاني" وغيره من المستشرقين أمثال برنارد لويس، ولامانس، وبيكر.

٣٥- فتوح البلدان، ج١، ص١٢٨.

٣٦- المصدر نفسه، ج٢، ص٣١٥.

٣٧- الطبري، ج٤، ص٩.

٣٨- ابن الأثير، ج٢، ص٣٣٢.

٣٩- الفتح: ٨- ٩.

٤٠- سبأ: ٢٨.

٤١- الأحزاب: ٤٥- ٤٦.

٤٢- ابن الأثير، ج٢، ص٢٢٧.

٤٣- البقرة: ٢٥٦.

٤٤- انظـــر: عــبد الحكــيم الكعبـــي، معاهدات الصلح بين المسلمين ونصارى الجزيـــرة الفراتـــية خلال حركة الفتح الإسلامي، مجلة البلقاء، جامعة عمان الأهلية/ الأردن، المجلد ٩، العدد ١، نيسان ٢٠٠٢ ص١٣٧ - ١٥٥.

٤٥- الحج: ٣٩.

٤٦- انظر: سورة التوبة: ٢٩.

٤٧- انظر: سورة البقرة: ٢٥٦.

٤٨- آل عمران: ١١٠.

٤٩- تقع آثار هذه المدينة حالياً جنوب بغداد، وتسمى أيضاً "سلمان باك".

٥٠- تاريخ بغداد، القاهرة، ١٩٣١، ج١، ص٥٧.

٥١- هشام جعيط، الكوفة، ط٢، دار الطليعة، بيروت، ١٩٩٣، ص٩.

٥٢- عــبد العزيز الدوري، تاريخ العراق الاقتصادي في القرن الرابع الهجري، بيروت، ١٩٧٤، ص٣١.

٥٣- الطبري ج٣، ص٣٤٤.

٥٤- المصدر نفسه، ج١، ص٥٥٨.

٥٥- دائـرة المعـارف الإسـلامية، مادة "الحيرة" مجلد ٨، ص١٦١، مقال F. BUHL.

٥٦- جرجي زيدان، العرب قبل الإسلام، بيروت، ١٩٦٦، ص٨٣.

٥٧- الطبري، ج٣، ص٤٧٤.

٥٨- الطبري: ج٢، ص٢٠٦.

٥٩- المصدر نفسه والجزء والصفحة.

٦٠- المصدر نفسه، ج٢، ص٦٧، المسعودي، مروج الذهب، ج١، ص٢٧.

٦١- ابن حوقل، صورة الأرض، ص١٨٩.

٦٢- الطبري، ج٢، ص٢٠٦.

٦٣- فتوح البلدان، ص٢٩٥.

٦٤- المصدر نفسه، ص٢٩٦.

٦٥- منطقة بين واسط والبصرة، وهي قصبة ميسان، شمال البصرة بأربعة أيام، معجم البلدان، ج٥، ص٨٨.

٦٦- البلاذري، ص٣٤٤.

٦٧- المصدر نفسه، ص٣٤٥.

٦٨- تاريخ اليعقوبي، ج٢، ص١٣١.

٦٩- البلاذري، ص٣٤٥.

٧٠- الطيلسـان: ضرب من الأوشحة يلبس على الكتف أو يحيط بالبدن ليس به تفصيل أو خياطة (فارسي معرب).

٧١- البلاذري، ص٢٤٧.

٧٢- المسلحة: موضع السلاح؛ المرقب والجمع مسالح.

٧٣- الطبري: ج٣، ص٢٢ وما بعدها، الدنيوري، الأخبار الطوال، ص١١٢.

٧٤- سورة الروم: ٢.

٧٥- الطبري، ج٣، ص٨٠.

٧٦- ابن الأثير، ج٢، ص٢٧٧.

٧٧- الطبري، ج٣، ص١٨٤.

٧٨- المصدر نفسه، ج٣، ص٢١٣.

٧٩- المصدر نفسه، ج٤، ص٣٠.

٨٠- ابن الأثير، ج٢، ص٤٠٦.

٨١- البلاذري، ص١٨٨.

٨٢- الطبري، ج٢، ص٣١.

٨٣- المصدر نفسه والجزء والصفحة.

٨٤- البلاذري، ص١٨٩ وما بعدها.

٨٥- انظر: ابن الأثير، الكامل، ج٢، ص٢٨١.

٨٦- البلاذري، ص١٩٤.

الفصل الثاني

خلافة عمر بن الخطاب

المبحث الأول: فتوح العراق وفارس والجزيرة الفراتية

المبحث الثاني: فتوح الشام ومصر وبرقة

المبحث الثالث: التنظيمات الإدارية في البلاد المفتوحة



المبحث الأول

فتوح العراق وفارس والجزيرة الفراتية

مقدمة:

كان على المسلمين أن يبحثوا لهم عن خليفة جيد، ولكن أبا بكر أخذ على عاتقه قبل موته، اختيار خليفة لهم، حتى يجنبهم الفرقة في هذه الظروف العصيبة، فكتب لعمر بن الخطاب عهداً بالخلافة لقي قبولاً من جميع المسلمين.

مارس عمر بن الخطاب ﷺ حقه في الخلافة بناء على اختيار أبي بكر ﷺ لذلك تسمى في أول الأمر: "خليفة رسول الله – كما أشرنا سابقاً أو حتى خليفة أبي بكر. ولكن ثبت بالتجربة تعقيد المخاطبة بهذا اللقب، فتسمى عمر بالخليفة فقط كما انه أضاف إلى هذا اللقب لقبا جديداً متمشياً ومناسباً لمرحلة الفتوح، وهو لقب "أمير المؤمنين" سرية أو جيشاً، والمؤمن هو المسلم الذي دخل الإسلام بعد ارتدادها وخرجت للجهاد، فكان عمر أول من تسمى به، وتوارثه الخلفاء من بعده، لا يشاركهم فيه أحد.

وفي الواقع إن مؤرخي العرب يبرزون شخصية عمر بن الخطاب كأعظم ما تكون في جزيرة العرب وقتئذ لحماية الشديد للإسلام، ولموقفه الحاسم

يـــوم الســـقيفة، ولأنـــه أيضاً أبو حفصة زوج النبي، قطعاً لا ريب فيه أنه اشهر خلفــاء المســلمين، فعصر عمر يعد العصر الذهبي للإسلام، ولم يحدث أبداً في تــاريخ الإســلام أن عصرين كمل ثانيهما أولها، كما حدث في عصري أبي بكر وعمر ويتجلى ذلك من خلال سير الأحداث وتواصلها بين الخلافتين.

معارك جبهة العراق:

الموقف الحربي في العراق بعد رحيل خالد:

انــتهى دور خالد بن الوليد في العراق عندما جاء كتاب أبي بكر الصديق ﷺ يأمــره فــيه أن يســتخلف غــيره على العراق، وأن يمضي إلى الشام لينجد المسلمين بعد الذي تجمع لهم من الروم فمضى خالد من العراق الى الشام – كما ذكــرنا – واستخلف على العراق المثنى بن حارثة الشيباني الجندي المغامر الذي يدين له تحرير العراق بالكثير من الجرأة والقوة والاندفاع.

بقــي من جيش تحرير العراق حوالي " تسعة آلاف " وقيل" ثمانية آلاف مقــاتل بقيادة المثنى بن حارثة الشيباني وكان معظمه معسكراً في الحيرة ما عدا بعــض المفــارز المثبــتة على طول شواطئ الفرات من جهة الشمال والجنوب وبالقــرب من المناطق التي تمر تحريرها من قبل الجيش العربي كالأبله والولجة وعين التمر والانبار.

لــم يكــن موقف الجيش العربي حسناً فما عدا قلة عدده الذي لا يتناسب وخطــورة الواجب الملقى على عاتقه نجد أن الفرس، وقد استقر على ملكهم أحد أحفــاد الأســرة الساسانية يدعى (شهر يار) تمكنوا من إعداد جيش يضم عشرة آلاف مقــاتل بقــيادة "هرمــز جاذويه" ولما علموا بسفر خالد بن الوليد إلى الشام أرســلوه نحو الحيرة على أمل استرجاعها من العرب فكان على المثنى أن يقاتل هذا الجيش فجمع المفارز المثبتة على الفرات وتقدم بقواته إلى بابل التي اختارها ميدانا للمعركة المنتظرة وحسناً فعل المثنى بانتخابه هذا الموضع لقتال الفرس.

الــتقى الجيشان ببابل في أوائل شهر ربيع الثاني ١٣هـــ ودارت المعركة بيــن الفريقيــن مــدة من الزمن انتهت بانكسار الجيش الفارسي وتراجعت فلوله المنهزمة إلى المدائن والجيش العربي يتعقبها وينكل بها[١].

لقــد بدأت المرحلة الثانية من تحرير العراق مع خلافة عمر بن الخطاب، ولــن يعود خالد إلى العراق مرة ثانية، فقد آثر الخليفة الثاني أن يعفيه من القيادة ولن يقصر الخليفة الجديد جهداً على الشام فقد حققت الجيوش الإسلامية في الشام ظفــراً طيــباً مكــن لها منها وكان لابد لهذه الفتوحات التي بدأت في العراق أن تســتكمل غاياتهــا وتتابع طريقها ولذلك وجد عمر انه مدفوع إلى العراق ملفوت إلــيه، على مثل ما وجد أبو بكر من قبل أنه مدفوع إلى الشام ملفوت نحوه، فبدأ عمر يندب الناس بالتوجه إلى العراق.

لقد بدأت المرحلة الثانية إذن، بخليفة جديد هو عم، وبإمداد جديد، هو إمداد أبي عبيد الثقفي، الذي كان أول من لبى نداء عمر، وذكر البلاذري: " لما استخلف عمر بن الخطاب ﷺ وجه أبا عبيد بن مسعود بن عمرو بن عمير بن عوف عقدة بن غيرة بن عوف بن ثقيف، وهو أبو المختار بن أبي عبيد، إلى العراق في ألف، وكتب إلى المثنى بن حارثة يأمره بتلقيه، والسمع والطاعة له، وبعث مع أبي عبيد، سليط بن قيس بن عمرو الأنصاري، وقال له: لولا عجلة فيك لوليتك، ولكن الحرب زبون (أي شديدة تدفع بعضها بعضاً) لا يصلح لها إلا الرجل المكيث (المتأني)، فأقبل أبو عبيد لا يمر بقوم من العرب إلا رغبهم في الجهاد والغنيمة، فصحبه خلق، فلما صار بالعذيب، بلغه أن جابان الأعجمي بتستر في جمع كثير، فلقيه فهزم جمعه وأسر منهم، ثم أتى درني وبها جمع للعجم، فهزمهم إلى كسكر، وسار إلى الجالينوس، وهو بباروسما، فصالحه أبن الاندرزعز عن كل رأس على أربعة دراهم، على أن ينصرف ووجه أبو عبيد المثنى إلى زندورد، فوجدهم قد نقضوا فحاربهم فظفر وسبى ووجه عروة بن زيد الخيل الطائي إلى الزوابي فصالح دهقانها على مثل صلح (باروسما)"[٢].

أهم المعارك قبل القادسية:

معركة النمارق:

سار أبو عبيد الثقفي وسعد بن عبيدة وسليط بن قيس الأنصاريان ومن معهم والمثنى بن حارثة وأمره عمر بالتقدم إلى أن يقوم عليه أصحابه وأمرهم

باستنفار من حسن إسلامه من أهل الردة ففعلوا ذلك وسار المثنى فقدم الحيرة وكان الفرس قد انشغلوا عن المسلمين بما وقع بينهم، ثم ملكوا عليهم بوران بنت كسرى بشرط أن تملك رستم بن الفرخزاء عشر سنين ثم يكون الملك في أول كسرى إن وجدوا ممن غلمانهم وإلا ففي نسائهم فدعت بوران مرازبه فارس وأمرتهم أن يسمعوا لرستم ويطيعوا توجته فدانت له فارس قبل قدوم أبي عبيد ثم قدم المثنى إلى الحيرة وقدم بعده أبو عبيدة بشهر فكتب رستم إلى الدهاقين أن يؤثروا بالمسلمين وبعث في كل رستاف رجلاً يؤثر بأهله وبعث جنداً لمصادمة المثنى وبلغ المثنى الخبر فعجل وخرج من الحيرة ونزل خفان، ونزل جيش الفرس النمارق فسار إليه أبو عبيدة واقتتلوا بالنمارق قتالاً شديداً فهزم الله أهل فارس وأسر رئيس جيشهم واسمه جابان. ولحق المهزومون كسكسر وبها نرسي ابن خالة الملك فسار إليهم أبو عبيد واقتتلوا قتالاً شديداً ثم أنهزم الفرس وهرب نرسي وغلب السلمون على عسكره وأرضه وجمعوا الغنائم، ولما بلغ بوران ورستم هزيمة جابان بعث الجالينوس بجيش فنزل بياقيشاتا فسار إليه أبو عبيد فهزمه وهرب الجالينوس وغلب أبو عبيد على تلك البلاد، ثم ارتحل حتى قدم الحيرة وكان عمر بن الخطاب ﷺ قال لأبي عبيد إنك تقدم على أرض المكر والخديعة والخيانة والجريمة تقدم على قوم تجرؤوا على الشر فعلموا وتناسوا الخير فجهلوه، فانظر كيف تكون وأحذر لسانك ولا تفشين سرك فإن صاحب السر ما يضبطه متحصن لا يؤتى من وجه يكرره وإذا ضيعه كان بمضيعة

فكـــان أبو عبيد شديد الحذر والتحفظ حسن التدبير محافظ على ما أوصاه به عمر ﷺ [٣].

معركة الجسر الخاسرة (شعبان سنة ١٣هـ):

ويقـــال لهـــا وقعـــة القرقس أو "قس الناطق " أو "المروحة" حيث عسكر الفـــرس علـــى الضفة الشرقية لنهر الفرات تجاه الحيرة بقيادة يهمن جاذوية، فلما قدم أبو عبيد اتخذت قوات المسلمين أماكنها على الضفة الغربية المقابلة، وعرض بهمن على أبي عبيد أن يختار بين أن يعبر الفرس إليه أو يعبر هو إليهم. فاختار أبـــو عبـــيد العـــبور إلى الضفة الشرقية ورد على من حذره مغبة ذلك بقوله (لا يكونـــوا أجرأ على الموت منا) وقد وضع أبو عبيد للعبور جسراً من الزوارق مر عليه جند المسلمين [٤].

كـــان جـــيش الفرس يضم عدداً من الفيلة، ولذلك كانوا كلما حملوا على المسلمين فرت خيولهم ذعراً من الفيلة، فاضطرب نظام المسلمين وقتل عدد كبير مـــنهم وعلى رأسهم أبو عبيد، فحاولوا التقهقر إلى الضفة الغربية للفرات، لكنهم فوجـــئوا بانقطاع الجسر على يد أحد أقرباء أبي عبيد، اعتقاداً منه أن ذلك أدعى للاستبســـال لكـــن قطع الجسر أدى إلى زيادة الاضطراب بين المسلمين،لأنهم لم يكونـــوا علـــى بيـــنة مـــن أمـــره بل فوجئوا به. وكان من الممكن أن يباد جيش المســـلمين بأكمله في ذلك اليوم، لولا ما أبداه بعض أبطالهم من ضروب البسالة، حيـــث تمكنوا من إعادة الجسر في ظروف بالغة الصعوبة، ووقف المثنى يحرس

الانسحاب ويحميه حتى ينقذ ما يمكن إنقاذه وقد استشهد قائد جيش المسلمين أبو عبيد بعد أن اثبت شجاعة شخصية وقلة خبره في شؤون الحرب. كما جرح المثنى جروحاً بليغة [٥]. وقدرت خسائر العرب بستة آلاف منهم أربعة آلاف قتلوا في ميدان المعركة مع نخبة ممتازة من القادة بينما غرق الألفان في النهر في أثناء الانسحاب. أما خسائر العجم فقد قدرت أيضاً بستة آلاف قتيل وجريح[٦] ونعتقد أن في هذا التخمين بعض المبالغة.

وقد لجأ إلى الصحراء اكثر من ألفين من المسلمين الفارين من المعركة، وكاد يقتلهم الجوع والعطش لا يريدون العودة إلى المدينة حياء وخجلاً من عار الهزيمة، وقد بذل الخليفة عمر جهوداً كبيرة لاستعادتهم.

موقعة البويب (رمضان سنة ١٣هـ):

لما بلغ عمر بن الخطاب ﷺ استشهاد أبي عبيد في معركة بالجسر، ندب الناس إلى المثنى وكان ممن ندب قبيلة بجيلة ورئيسها جرير بن عبد الله البجلي فاجتمع كثير منهم فأمرهم عمر بالتوجة إلى العراق فأبوا إلا الشام، فعزم عليهم عمر التوجه إلى العراق وينقلهم ربع الخمس فأجابوا وسيرهم إلى المثنى، وكتب إلى أهل الردة، وكل ما جاء أحد بعث به إلى المثنى، وبعث المثنى الرسل فيمن يليه من العرب فتوافد عليه في جمع عظيم وجاءه أنس بن هلال النمري في جمع عظيم من النمر النصارى، وقالوا نقاتل مع قومنا وبلغ الخبر قادة الفرس فاجتمعوا من وراء الفرات واجتمع المسلمون بالبويب، وكان على جيش الفرس

مهــران مهــروية فأرسل إلى المثنى يقول: إما أن تعبر إلينا وإما أن يعبر إليك، فقال المثنى: اعبروا فعبر مهران فنزل على شاطئ الفرات، وهيأ المثنى أصحابه وكـــان في رمضان فأمرهم بالإفطار ليقوموا على عدوهم فأفطروا: وأقبل الفرس فـــي ثلاث صفوف مع كل صف فيل ولهم زجل فقال المثنى لأصحابه أمن الذي تســمعون فشـــل فألزموا الصمت ودنوا من المسلمين فطاف المثنى في صفوفهم يحرضـــهم، وقـــال إنـــي مكبراً ثلاثاً فتهيؤا ثم احملوا في الرابعة فلما كبروا أول تكبـــيرة اعجلـــتهم فارس وخالطوهم فلما طال القتال واشتد قال المثنى لأنس بن هـــلال الـــنمري إنك أمرؤ عربي وإن لم تكن على ديننا فإذا حملت على مهران فـــاحمل معـــي فأجابه، فحمل المثنى على مهران فأزاله حتى دخل في ميمنته ثم خـــالطوهم واجـــتمع القلـــبان وارتفع الغبار والمجنبتان تقتتل ولا يستطيعون أن يفرغوا لنصر أميرهم، لا المسلمون ولا المشركون، وأفنى المثنى قلب المشركين فلمـــا رأوه قد أزال القلب وثبت مجنبتا المسلمين على مجنبتي المشركين وجعلوا يـــردون الأعـــاجم على أدبارهم حتى هزموا الفرس، وسبقهم المثنى إلى الجسر وأخـــذ طـــريق الأعـــاجم فاقترفوا مصعدين ومنحدرين، وأخذتهم خيول المسلمين حـــتى قـــتلوهم وجعلوهـــم جثثاً وبقيت عظام القتلى دهراً طويلاً وكانوا يحزرون القـــتل مائـــة ألف وسمي ذلك اليوم يوم الأعشار أحصى إلى الليل ومن الغد إلى اللـــيل وغنم المسلمون غنائم كثيرة وأعطى بجيلة ربع الخمس كما شرط لهم عمر رضي الله عنه (٧).

موقعة الخنافس وسوق بغداد:

لقـــد استقام الأمر للمسلمين بعد البويب، واستقاد لهم السواد وأخذ المثنى يمخـــره هنا وهناك، وفرق القواد واذكى المسالح وأغار على تجمعات الفرس في مكان فيه.

وكـــان من هذه الغارات غارته على الخنافس وهو سوق يجتمع بها تجار مدائـــن كســـرى والســـواد قضاعة وربيعة يخفرونهم، فركب المثنى وغار على الخـــنافس يوم سوقها فانتهب السوق وما فيها وسلب الخفراء ثم رجع إلى الانبار فتحصـــن أهلهـــا مـــنه فلما عرفوه نزلوا إليه وأتوه بالأعلاف والزاد وأخذ منهم الأدلاء علـــى ســـوق بغـــداد وهو موضع المدينة التي اختطها المنصور فيما بعد وصبحهم في أسواقهم فوضع السيف فيهم وأخذ ما شاء، ثم رجع إلى الانبار وشن الغـــارات بخـــيول أصحابه على الأطراف وبعث خيلاً على أحياء تغلب بصفين، فاغـــاروا عليهم من تغلب والنمر بشاطئ دجلة ففروا وأدركوهم بتكريت فأصابوا ما شاءوا من النعم.

وقـــد كـــان المثـــنى هو سيد هذه الغارات كلها بعد البويب، وكان على مقدمـــته حذيفـــة بـــن محض وعلى مجنبتيه النعمان بن عوف بن النعمان ومطر الشـــيبانيان ولا يطـــول أمـــر هذه الغارات فقد أدرك الفرس أي نذر مبينة تهدد دولـــتهم الواسعة فبدأوا يعدون للمعركة الجديدة: معركة القادسية، إحدى المعارك الفاصلة في التاريخ [٨].

القادسية : المعركة المصيرية:

بــلاد فارس هي تلك الهضبة، أو منطقة الأستبس من الأراضي الصلبة والصـــحاري والجــبال، التي تمتد في الجنوب إلى ساحل بحر الهند، وفي الغرب إلـــى الخليج العربي وسلسلة جبال زاجروس، وفي الشرق إلى السند، وفي الشمال إلى بحر قزوين ونهر جيحون.

ومـــنذ قديـــم الزمان كانت هذه المنطقة مقاماً لهجرات متعددة من أجناس الـــبحر الأبيض، إلا أنها ما لبثت أن أصبحت مستودعاً للجنس الآري، الذي ظهر علـــى الخصـــوص فـــي المنطقة الشمالية الغربية من الهضبة أو ما يعرف بميديا mydia ، وهـــي التـــي ســـماها العرب :إقليم الجبال" [٩] لكثرة جبالها. ويبدو أن الآرييـــن – وبهم سميت إيران – كانوا يسكنون أول الأمر هذه البلاد مع الهندوس الذيـــن غادروهـــا إلـــى الهند، بدليل تقارب اللغتين (الزند الإيرانية والسنسكريتيه الهندية).

ومـــن الهجـــرات التي وفدت على هذه الهضبة، هجرة الفرس، وهم من الآريين أيضاً والتي امتدت إلى جبال زاجروس إلى الشرق من نهر دجلة فعرفت بهـــم المـــنطقة التـــي سميت "فارس" وإن اندمجوا مع العناصر السابقة في أنحاء إيـــران، وكونـــوا الشـــعب الذي سماه العرب: "العجم" كما ظهرت لهم اللغة التي عرفت بـــ " الفهلوية" [١٠].

ونتــيجة لتعدد الهجرات وتنوع السكان فيها، حدثت اضطرابات في بلاد فــارس، الأمــر الــذي دفع ملوك العراق القدامى من البابليين والآشوريين، إلى التوسع في تلك البلاد وإخضاعها وإعادة النظام إليها، إلا أن الفرس استطاعوا أن يوحــدوا بلادهــم بقــيادة كورش الأكبر (٥٥٨-٥٢٩ق.م) الذي أسس في فارس الدولــة الأخمينــية، وتمكن كورش الأخميني هذا من القضاء على اخر حضارة عراقــية ناضــجة فــي بابل سنة ٥٣٩ ق.م وكان جده المسمى أيضاً كورش قد استولى على نينوى عاصمة آشور سنة ٦١٤ق.م.

تمكــن الإســكندر المقدوني من القضاء على الدولة الاخمينية سنة ٣٣١ ق.م، فتفرقت بلاد فارس إلى دويلات صغيرة يحكم كل منها ملك واستمرت على هــذه الحال إلى أن ظهر الاشكانيون في منطقة "بارث" (١١) وهي خراسان الحالية فأقــاموا لهــم دولة خضعت لها هذه الممالك سنة ٢٤٧ ق.م، فتلقب ملوكهم بلقب "شاهنشــاه" [أي ملك الملوك] وهم الذين يسميهم العرب "ملوك الطوائف"، إلا أن هــذه الدولــة الممــزقة توحدت من جديد على يد أسرة حاكمة جديدة هي الأسرة الساســانية ســنة ٢٢٦م، بقــيادة أردشير، وهذه الدولة هي التي حاربها العرب وأســقطوها مطلــع القــرن السابع الميلادي، بعد أن حكمت ما يقرب من أربعة قــرون، وخضــعت لهــا شعوب كثيرة في الشرق، وجعلت عاصمة ملكها على أرض العراق، في المدائن (طيسفون) كما أشرنا سابقاً.

أولاً: تحشيد الجيش العربي في القادسية

كانـــت بدايـــة تحشيد الجيش العربي بإعلان النفير في الجزيرة العربية بقـول الخلـيفة عمر بن الخطاب ﷺ كلمته الماثورة "والله لأضربن ملوك العجم بملـوك العـرب" وهـو يتلو رسالة المثنى على رجاله ومستشاريه وقد أخذ منه الغضب مأخذه وعزم على أمر لم تسمع به العرب قبل الآن.

لقـد أعلـن النفير العام في الجزيرة ولم يدع ذا رأي وشرف وبسطة، لا خطيـباً ولا شـاعرا إلا وجـنده وعمم عند ذهابه إلى الحج الرسالة التالية: "على العـرب أن لا يدعـوا من له نجدة أو فرس أو سلاح أو رأي إلا وجهوه إليه إذا كـان أقـرب إلى المدينة منه إلى العراق، أما من كان أقرب إلى العراق فليرسل إلى المثنى".

وكتـب إلى المثنى يأمره بأن لا يدع في ربيعة ومضر وحلفائهم أحداً من أهل النجدات ولا فارساً إلا اجتلبتموه وإلا حشدتموه، أحملوا العرب على الجد إذا جد العجم، فتلقوا جدهم بجدكم.

فكـان لإعلان النفير في الجزيرة العربية صداه وتأثيره في أبنائها فجاءت إمدادات العرب إلى عمر من كل وجه فعزم على قيادة نخبة الجزيرة بنفسه تنفيذاً لقولـه المـأثوره: "والله لأضـربن ملـوك العظم بملوك العرب" واستخلف على العاصـمة العربـية علي بن أبي طالب، وفي أول يوم من محرم سنة ١٤هـ خرج مـن المديـنة العاصمة إلى مكان يدعى (صرار) على بعد خمسة كيلومترات من

المديـــنة في طريق العراق إلا أن رجالات العرب وقد عقدوا مؤتمرا خطير الشأن فـــي "صـــرار" لـــم يوافقوه على قيادة الجيش بنفسه وطلبوا أن ينتخب غيره لهذا العمل، بينما كانوا يتذكرون فيمن يتولى قيادة حرب العراق أتاه كتاب من سعد بن أبـــي وقاص وكان حينئذ في هوازن يقول فيه: "وقد انتخبت لك ألف فارس كلهم ذو نجـــدة ورأي وصـــاحب حيطة يحوط حريم قومه ويمنع ذمارهم، إليهم انتهت أحسابهم رأيهم فشأنك بهم"[١٢].

فلمـــا قـــرأ لهم الكتاب قالوا له: "وجدته يا أمير المؤمنين" قال: "من هو؟" قالوا: "الأسد في براثنه – سعد بن أبي وقاص".

فوافقهـــم على ما أرادوا وكتب له يستعجله بالقدوم ليوكل إليه أمر حرب العـــراق، وأوصاه وصية كريمة جاء فيها: "يا سعد إني قد وليتك حرب العراق، فـــاحفظ وصيتي، فإنك تقدم على أمر شديد كريه، لا يخلص منه إلا الحق، فعوّد نفســـك ومن معك الخير واستفتح به، ولا يغرنك من الله إن قيل: خال رسول الله ﷺ وصـــاحبه، فـــإن الله لـــيس بيـــنه وبين أحد نسب إلا طاعته، فالناس شريفهم ووضـــيعهم في ذات الله سواء، الله ربهم وهم عباده يتفاضلون بالعافية، ويدركون مـــا عنده بالطاعة، فانظر الأمر الذي رأيت النبي ﷺ عليه منذ بعث إلى أن فارقنا فألـــزمه هـــذه عظتـــي إيـــاك، إن تركـــتها ورغبت عنها حبط عملك وكنت من الخاسرين"[١٣].

وفي هذه المرحلة تسلم الصحابي سعد بن أبي وقاص قيادة حرب العراق ووضع عمر تحت تصرفه أربعة آلاف مقاتل في صرار "إحدى ضواحي المدينة" وأصدر الخليفة عمر إليه الأوامر التالية: أن يسلك في تقدمه الطريق الذي يوصل المديــنة بزرود وشراف والقادسية (طريق زبيدة المشهور) وأن يكون هدفه الأول الوصول إلى (زرود) حيث يطلب من القبائل العربية من بني تميم وأسد والرباب التطوع في جيشه وبعد أن يلبوا نداءه يستمر على تقده إلى "شراف" حيث يستطيع أن يكمل تحشده فيها ويخبره عندئذ بموقفه ليرسل إليه وصايا جديدة(١٤).

بعــد ذلك وقف الخليفة عمر يودع فرسان الجزيرة قائلاً لهم: إن الشرف فــيكم يا معشر النخع المتربع، سيروا مع سعد، فسار القوم إلى العراق متوجهين نحــو (زرود) وكــان الموســم موسم شتاء، فوصلوا إليها وتفرقوا في مياهها قام قــائدهم سعد بدعوة القبائل العربية من بني أسد وتميم والرباب للقطوع في جيش الفــتح فلبى طلبه سبعة آلاف مقاتل منهم ثلاثة آلاف من بني أسد ومثلهم من بني تميم والألف الآخر من بني رباب(١٥).

وقــبل أن يــترك ســعد (زرود) أرسل كتيبة من الخيالة مؤلفة من ٥٠٠ فــارس بقــيادة المغــيرة بن شعبة إلى الأبلة (البصرة) ليستمر تحشده في شراف والقادسية ويأمن الخطر من جناحه الأيمن ثم تقدم بجيشه الذي بلغ ١٢٠٠٠ مقاتل إلــى شــراف، وفور وصوله إليها قام بدعوة القبائل العراقية العربية للتطوع في جــيش الفــتح كما قام بتنظيم جيشه وفقاً للأوامر الصادرة إليه في هذا الشأن من الخلــيفة، فــألف مــن كــل عشرة جنود حظيرة وعين عليها عريفاً ثم ألف من

الحظائــر ســرايا، ومن السرايا كتائب وعين لكل وحدة قائداً كما عيّن على القادة أمراء من الذين اشتهروا بأصالة الرأي في الحروب(١٦).

وبعد أن أتم استعداده للتقدم كتب إلى عمر في موقفه وموقف جيشه ذاكراً تفاصــيل خطوطه الدفاعية الأمامية، تلك المراكز العسكرية التي أسسها المثنى ما بين غضى القادسية وطالباً الخليفة أن يصدر إليه الأوامر بالتقدم، وفي خلال هذه الفــترة قــدم إلى شراف المعني بن حارثة والزعماء العراقيين الآخرون من قادة جــيش الفتح الأول ناعين إلى سعد بن أبي وقاص وفاة المثنى بن حارثة ومبلغيه وصــيته له واستعدادهم للخدمة بزعامته(١٧)، وأن آخر ما قام به هذا القائد العربي وصــيته لســعد بــن أبــي وقاص التي أودع فيها رأيه في خطة المعارك والتي تتضمن ما يلي: "إذا قدم سعد فيلقاتل على حدود أرض العجم على أدنى حجر من أرض العــرب ولا يقاتلهم في عقر دارهم، فإن ظهر الله المسلمين ونصرهم فلهم مــا ورائهــم وإن كانــت الأخرى رجعوا إلى فئة، ثم يكون أعلم بسبيلهم وإجراء على أرضهم إلى أن يرد الله الكرة عليهم".

بعــد تجمعهــم فــي "شراف" واستعدادهم إلى التوجه إلى القادسية جاءت أوامــر الخلــيفة إلــى قائد جيش العراق بالرسائل التالية(١٨): "أما بعد، فسر من شراف نحو فارس بمن معك من المسلمين وتوكل على الله واستعن به على أمرك كله، وأعلم فيما لديك أنك تقدم على أمة عددهم كثير وعدتهم فاضلة وبأسهم شديد وعلــى بلــد منــيع، وإذا لقيتم القوم أو أحدا منهم فأبدوهم الشد والضرب وإياكم

والمـــناظرة بجموعهـــم ولا يخدعنكم فإنهم خدعة مكرة أمرهم غير أمركم إلا أن تجـــادوهم، وإذا انتهـــت إلـــى القادسية، والقادسية باب فارس في الجاهلية، وهي أجمـــع تلـــك الأبـــواب لمادتهم ولما يردونه من تلك الأصول، وهو منزل رغيب خصـــيب حصين، دونه قناصر وأنهار مقنعة فتكون مسالحك على أنقابها ويكون الـــناس بين الحجر والمدر على حافات المدر والجراع بينهما، ثم إلزم مكانك فلا تـــبرحه فإنهم إذا أحسوك أنفضهم ورموك بجمعهم الذي يأتي على خيلهم ورجلهم وحدهم وجدهم، فإن أنتم صبرتم لعدوكم واحتسبتم لقتاله ونويتم الأمانة رجوت أن تنصـــروا علـــيهم ثـــم لا يجتمع لكم مثلهم أبداً إلا من أدنى مدرة من أرضهم إلى أدنـــى حجـــر مـــن أرضكم ثم كنتم عليها أجراً وبها أعلم وكانوا عنها أجبن وبها أجهـــل حـــتى يأتي الله بالفتح عليهم ويردكم الكرة"، ثم طلب منه مع كاتب ثالث: "... فـــي يوم ... ترحل فيه شراف إلى القادسية فيما بين عذيب الهجانات وعذيب القـــوادس... والحذر الحذر على ما أنت عليه" وبعد أن قام سعد بتقسيم جيشه إلى وحـــدات معيـــنة بالنســـبة إلى الصنوف التي يتألف منها اصدر أمر المسير على الوجه التالي:

المقدمة بقيادة : زهير بن عبد الله.

الميمنة بقيادة: عبد الله بن المعتم.

الميسرة بقيادة: الشاب شرحبيل بن الصمت.

المجردة بقيادة: سلمان الباهلي.

الركاب (الرتل الراكب) بقيادة: عبد الله بن ذي السهمين.

وطلب من آمر المقدمة أن يكون هدفه الأول احتلال العذيب أو (عذيب الهجانات) وينتظر فيها إلى حين وصول الكوكب (القسم الأكبر) إليها، أما هدفه الثاني فيكون سهل القادسية وقد تم احتلال الهدف الأول الذي لم يلقوا فيه مقاومة سوى بعض المترصدين من جواسيس الأعداء الذين طاردتهم خيالة المقدمة واستطاعت اللحاق بهم قرب القادسية.

وفي المسير إلى الهدف الثاني أرسل آمر المقدمة مفرزات استطلاع في نواحي شتى منها رعيل مؤلف من ثلاثين فارساً بقيادة (بكير بن عبد الله) ليستطلع له أخبار العدو بأطراف الحيرة.

ولما وصل جيش سعد بن أبي وقاص إلى "العذيب" ترك الخط الثاني المؤلف من النساء وعيال الجنود فيها وأفرز حامية كبيرة لحمايتهم واستمر على تقدمه إلى أن وصل إلى سهل القادسية فعسكر في "قديس" بينما طلب من مقدمته احتلال قنطرة نهر العتيق والتعسكر حيالها، وقد شنت مفرزات كثيرة غارات (ما عدا الحصول على المعلومات واختبار الأرض والتوغل فيها) غنموا أموالاً طائلة جعلتهم في بحبوحة من العيش[١٩].

ثانياً: تحشد الجيش الفارسي ومسيره إلى القادسية

لقد بذل رستم الجهد لجمع أعظم جيش تستطيع فارس جمعه لقتال العرب، وذلك ليس على حدود العراق فحسب بل في الجزيرة ذاتها وقد اتخذت

القيادة الفارسية العامة مدينة ساباط "الصويرة" مركزاً لها ولجيوشها وقد تم في خلال الأشهر الثلاثة الأولى لعام ٦٣٥م أوائل ١٤هـ "تحشيد جيش يتراوح عدده بين ١٠٠ و ١٢٠ ألف جند من صنف المشاة والخيالة والفيلة.

وفي أثناء هذا التجمع وردت الأخبار من حدود الفرات الغربية تنبئ بازدياد نشاط العرب في غاراتهم، وقد جاء في إحدى رسائل حكام المقاطعات الفارسية إلى الملك ما يلي في هذا الصدد: "إن العرب قد نزلوا القادسية بأمر ليس يشبه الحرب، وإن فعل العرب منذ نزلوها لا يبقي على شيء، وقد أخربوا ما بينهم وبين الفرات وليس فيما هنالك إلا الحصون، وقد ذهبت الدواب وكل شيء لم تحتمله الحصون من الأطعمة ولم يبق إلا أن يستنزلونا وإن أبطؤوا عن الغياب أعطيناهم بأيدينا".

فطلب الملك من رستم أن يتولى قيادة الجيش بنفسه ليضرب العدو ضربة قاضية في القادسية ويسير بعد ذلك لاحتلال الجزيرة العربية ليشغل أهلها بالدفاع عنها.

إلا أن لرستم رأياً غير رأي الملك، إذ لا يريد أن يشتبك الفرس بالعرب بمعركة فاصلة إلا بعد إنهاك قواهم بحركات الإزعاج واستدراجهم لقتال رجعي إلى داخل البلاد وأن يرسل غيره من القادة في هذه المهمة حتى إذا آن الأوان ضربهم رجل فارس بقوته الاحتياطية المدخرة لهذه الغاية ضربته الكبرى.

وفي هذه الأثناء طلب الخليفة عمر من قائده في العراق سعد بن أبي وقاص -بعد أن علم منه خبر استعداد الفرس وتأليف جيش كبير لقتال العرب-

أن يرسل وفداً إلى عاصمتهم، وقد جاء في كتاب الخليفة إلى سعد يوضح فيه الغرض من إرسال هذا الوفد إذ يقول: "لا يكربنك ما يأتيك عنهم ولا ما يأتونك به، واستعن بالله واتكل عليه، وابعث إليه رجالاً من أهل النظرة والرأي يدعونه، فإن الله جاعل دعاءهم توهيناً لهم وفلجا عليهم، واكتب إليّ في كل يوم".

فتألف الوفد من عدد كبير من رجالات الجيش البارزين كالنعمان بن مقرن وحنظلة بن الربيع وعمرو بن معدي كرب والمغيرة بن شعبة والمغيرة الأسدي وعاصم بن عمرو.

سار الوفد إلى المدائن توا على الخيول كلها صهال وعليهم المقطعات والبرد وفي أيديهم سياط دقاق، ولما علم الملك بقدومهم جمع رجالاته في البلاط وطلب حضور الوفد وقد افتتح الملك الحديث كما يلي: ما جاء بكم وما دعاكم إلى غزونا والولوج ببلادنا؟ أمن أجل أنا جمعناكم وتشاغلنا عنكم اجترأتم علينا؟

فأجابه رئيس الوفد النعمان بن مقرن يشرح له رسالة محمد وما جاء به لخير الناس إلى أن قال: "... ثم أمرنا أن نبدأ بمن يلينا من الأمم فندعوهم إلى الإنصاف، فنحن ندعوكم إلى ديننا وهو دين حسّن الحسن وقبّح القبيح كله، فإن أبيتم فأمر من الشر هو أهون من آخر شر منه، الجزاء فإن أبيتم فالمناجزة، فإن أجبتم إلى ديننا خلفّنا فيكم كتاب الله وأقمناكم عليه أن تحكموا بأحكامه ونرجع عنكم وشأنكم وبلادكم! وإن تقيتمونا بالجزاء قبلنا ومنعناكم وإلا قاتلناكم. فأجابه الملك: إن لا علم في الأرض أمة كانت أشقى ولا أقل عدداً ولا أسوأ ذات بين

منكم، قد كنا نوكل بكم قرى الضواحي فيكفوننا كم، لا تغزون فارس ولا تطمعون أن تقوموا لهم، فإن كان عدد لحق فلا يغرنكم منا، وإن كان الجهد دعاكم فرضنا لكم قوتاً إلى خصبكم وأكرمنا وجودكم وكسوناكم وملكنا عليكم ملكاً يرفق بكم(٢٠).

فأجابه المغيرة الأسدي:

أيها الملك إن هؤلاء رؤوس العرب ووجوههم وهم أشراف يستحيون من الأشراف وأن يكرم الأشراف الأشراف ... وليس كل ما أرسلوه جمعوه لك ولا كل ما تكلمت به أجابوك عليه ... فأما ما ذكرت من سوء الحال فما هي ظهر الأرض ولا نلبس إلا ما غزلنا من أوبار الإبل وشعار الغنم، ديننا يقتل بعضنا بعضاً ويغير بعضنا على بعض، فكانت حالنا قبل اليوم على ما ذكرت لك فبعث الله إلينا رجلاً معروفاً ... وقال لنا من تابعكم على هذا (يشير إلى القرآن) فله ما لكم وعليه ما عليكم، ومن أبى فأعرضوا عليه الجزية ثم امنعوه مما تمنعون منه أنفسكم ومن أبى فقاتلوه فأنا الحكم بينكم ... فاختر إن شئت الجزية عن يد وأنت صاغر وإن شئت فالسيف، أو تسلم فتنجي نفسك.

فرد عليك الملك:

لولا أن الرسل لا تقتل لقتلتكم، لا شيء لكم عندي! ثم التفت إلى حاشيته قائلاً أتوني بوقر من تراب واحملوه على أشرف هؤلاء: ثم سرقوه حتى يخرج من باب المدائن، ثم وجه كلامه إلى الوفد العربي: "ارجعوا إلى صاحبكم فاعلموه

أنـــي مرسل إليكم رستم حتى يدفنكم ويدفنه في خندق القادسية وينكل به وبكم من بعد، ثم أورده حتى أشغلكم في أنفسكم بأشد مما نالكم من سابور".

وبعــد أن حمــل الــتراب عاصم بن عمرو خرجوا إلى خيلهم فركبوها والتراب معهم إلى أن وصلوا إلى مقر جيشهم يبشرون إخوانهم بالفأل الحسن من أرض العراق ستكون لهم إن شاء الله!.

لــم يكــتم الملــك يزدجــرد إعجابه بالوفد العربي فقال لرستم الذي أتاه يستفســر منه عما جرى في المفاوضات (ما كنت أرى أن في العرب مثل رجال رأيتهم دخلوا عليّ، وما أنتم بأعقل منهم ولا أحسن جواباً منهم، لقد حدقني القوم، لقد وعد القوم أمراً ليدركنه أو ليموتن عليه"[٢١].

ولمــا علــم رســتم بما فعله الملك تشاءم وأرسل في طلب الوفد العربي لــيأخذوا مــنهم التراب قبل أن يخرجوا من أرض العراق، فلم يستطيعوا اللحاق بهم.

وبعــد مرور شهرين من تجمع رستم في ساباط قرر بتأثير ضغط الملك وإلحاحــه أن يــتقدم لقتال العرب وهو مكره، وكانت خطته تقضي بإرسال مقدمة ســوقية كبرى تتألف من ٤٠٠٠٠ مقاتل بقيادة الجالينوس وطلب من هذا القائد أن يتقدم عن طريق ساباط – كوثي – النجف القادسية وحذره من الدخول في معركة حاســمة مع العرب، بل عليه كما قال رستم "أن يزحف زحفاً وأن لا ينجذب إلى المعركة إلا بأمر منه".

وحـــاول رســـتم أن يقـــنع الملـــك لآخر مرة ببقائه مع جيشه في المدائن وينـــتظر مـــا يقوم به الجالينوس الذي له شهرة وساعة لا تقل عن شهرته، فأبى الملك عليه ذلك وطلب الدخول بمعركة حاسمة سريعة لتقرير المصير، فلم ير بداً مـــن أن يتقدم ببقية جيشه البالغ عدده ٦٠٠٠٠ مقاتل و٣٥ فيلا ووجهته كوثي – بابل – بويبا (إبراهيم الخليل) – الحيرة، وقد ترك مؤخرة لجيشه تقدر بـ ٢٠٠٠٠ مقاتل بقيادة الفيرزان.

كـــان تقدم جيش رستم بطيئاً جداً فقد بقي في طريقه الذي لم يكن يتجاوز مائـــة وســـبعين كيلومترا نحو من شهرين قبل وصوله لساحة المعركة ونراه في خـــلال هـــذه المدة تنتابه الهواجس من كل جانب، فقد كتب إلى أخيه في مارس يطلـــب إلـــيه أن يستعد مع الزعماء الآخرين للدفاع عن بلادهم إذ أنه يرى: "أن هـــؤلاء القـــوم سيظهرون علينا وسيتولون ما يلينا" ثم يشكو له إجراء الملك على توليته القيادة العامة وهو مكره[٢٢].

بعدهـــا تقـــدم جـــيش رستم حيال العرب وعبأ جيشه البالغ ١٢٠ ألفاً إلى شرقي نهر العتيق واضعاً قسماً منه في جناحه الأيمن ومعه ثمانية فيلة وقسماً منه فـــي الجـــناح الأيسر ومعه سبعة فيلة أما كوكب قوته (قسمها الأكبر) فوضعه في القلب ومع ثمانية عشر فيلاً ونصب رستم مقره الفخم خلف القلب.

بيـــنما اتخذ العرب مراكزهم إلى غربي نهر العتيق ومن خلفهم (الخندق) -خـــندق ســـابور- وكانـــت المقدمة تحتل القنطرة وهي الجسر المشيد على نهر العتـــيق وعـــن يســـارها ويمينها قوات الخيالة تحمي أجنحة الجيش العربي الذي

يستند إلى اليمين إلى مياه الفيضان من الجنوب وإلى الصحراء القاحلة من الشمال وفـــي مركـــز الجيش إلى الوراء، القصر أو قلعة قديس القديمة (في السهل الذي يســـمى الآن الرحـــبة) وقد اتخذه سعد بن أبي وقاص مقراً لقيادة الجيش وقبل أن نتـــناول تفاصيل المعركة باختصار المفاوضات التي جرت بين رستم قائد الجيش الفارســـي مـــن جهة، والوفود العربية المختلفة من جهة أخرى، تلك المفاوضات التي تبين لنا بوضوح أهداف الأمتين والحالة النفسية لكلا الفريقين وما كاد رستم ينتهـــي مـــن حشد جيشه في القادسية حتى أرسل إلى قائد مقدمة المسلمين يطلب إليه مفاوضته فلبى هذا طلبه ففاوضه رستم على شروط الصلح مقنعاً إياه بتحسين شـــؤون العرب المادية وترفيه حالهم وتسهيل تجارتهم فرد عليه القائد العربي بأن مـــا تقنعنا به قد فات أوانه، وأن حال العرب قبل الإسلام هو على طرفي نقيض مـــن حـــالهم الآن، إنهم ما خرجوا من جزيرتهم إلا لتحرير الأمم من العبودية أو على حد تعبيره: "إخراج العباد من عبادة العباد إلى عبادة الله ولما سأله رستم هل إذا دان الفـــرس بدين العرب ترجعون؟ فأجابه: "أي والله ثم لا نقرب بلادكم أبداً إلا فـــي تجـــارة فـــي أو حاجة فصدّقه رستم على قوله! وقد تركت المفاوضات الأولـــى في نفس رستم أثراً بالغاً يدلنا على ذلك المؤتمر الذي عقده بعد مفاوضة رجال جيشه وقد تحداهم إلى وجوب وضع حد لهذه الحرب الشعواء التي لا يعلم أحد نتائجها الخطيرة[٢٣].

ولقــد طلب رستم إجراء مفاوضات أخرى مع العرب وقد لبوا طلبه لأن كــلا الفريقيــن كان يرمي في مفاوضاته إلى ما فيه مصلحته فرستم يتوخى منها تأجــيل المعركة الفاصلة لإطالة الوقت على العرب أملاً منه بضجرهم من طول الانــتظار وأمــل رحيلهم من حيث أتوا بينما كان العرب يتوخون من مفاوضاتهم هــذه كسب الوقت بضعة أيام إلى أن تصل إليهم النجدات التي أرسلها أبو عبيدة ابن الجرّاح من دار الحركات السورية بعد انتصار العرب على الروم في معركة الــيرموك من جهة ولإضعاف الروح المعنوية في رجال الفرس من جهة أخرى ففــي المفاوضات الثانية وكان يمثل العرب فيها ربعي بن عامر نرى رستم سأله: هــل لكــم أن تؤخــروا هذا الأمر (ويقصد به شروط المسلمين) حتى ننظر فيه وتــنظروا؟ فأجابــه ربعي: نعم كم أحب إليك؟ أيوماً أم يومين؟ لا بل حتى نكاتب أهل رأينا ورؤساء قومنا فأجابه ربعي: إن مما سن لنا رسول الله ﷺ وما عمل به ائمتــنا أن لا نمكن الأعداء من أذانا ولا نؤجلهم عند اللقاء أكثر من ثلاث (ثلاثة أيــام) فنحن مرتدون عنكم ثلاث فانظر في أمرك وأمرهم وأختر واحداً من ثلاث بعد الأجل (يقصد إما الدخول في الإسلام وإما الجزية وإما القتال)، فأجابه رستم: أسـيد أنــت: لا ولكــن المســلمين كالجسد بعضهم من بعض يجير أدناهم على أعلاهــم! وعلــى هذه الصورة انتهت المفاوضات الثانية، وقد أرسل رستم على إثــرها يطلب إلى سعد أن يرسل إليه رجلاً له عقل ورأي ليفاوضهم، فأرسل إليه المغــيرة بــن شعبة وقد انتهت المفاوضات في هذه المرة بغضب رستم الذي قال للمغيرة: "وحق الشمس، لا يرتفع لكم الصبح غدا حتى أقتلكم أجمعين"(٢٤).

ثالثاً: المعركة(*)

بـدأت معـركة القادسية في منتصف يوم (الاثنين) الأول من شهر محرم سـنة ١٥هـ - ٦٣٦م، حيـث تـم عبور جيش رستم نهر العتيق واتخذ الجيشان موقعهما بين الخندق والعتيق، وقد استعد العرب للقتال منذ الصباح فجمع سعد بن أبي وقاص رؤساء الكتائب وأمراء القبائل في مقره (وكان لا يستطيع الجلوس أو الـركوب لظهـور الدمامل فيه) فأوضح إليهم خطورة الموقف الذي هم فيه وأنهم اليوم أمام معركة فاصلة في تاريخ العرب والإسلام، وعليها يتوقف مصيرهم فإما أن يقـبعوا فـي جزيـرتهم القاحلة وإما أن ينسابوا في الأرض التي وعد الله بها عباده الصالحين، وطلب إليهم أن يشجعوا جنودهم ويحثوهم على القتال حثاً يغلي بـه دم القلوب وتتوتر له الأعصاب ويوغر الصدور ويهوّن الموت وطلب إليهم أن يـبدؤوا بالـزحف الهام بعد صلاة الظهر تواً عندما يسمعون صوت التكبيرة الثالثة.

تقدمـت صـفوف العرب المتقدمة جميعاً للهجوم وكان الفرس في تعبئة القتال ينتظرون أعداءهم فتلاقت الصفوف واشتبك الفريقان بقتال شديد، وقد مثلت فِـيَلَة الفـرس فـي هذا اليوم دوراً خطيراً إذا استطاع أصحابها من توجيهها إلى الخطـوط الأمامـية فأفزعت خيول العرب التي لم تتعود رؤيتها ونكصت راجعة وكـان بـنو أسـد (أهل الردة السابقون) يقومون بنصيب وافر من تحمل عبء المعـركة وقـد تلافـى سعد بن أبي وقاص الموقف بأن طلب من كتيبة بن تميم

هجوم الفيلة برميها بالنبال وقطع وضنها وقد فعلوا ذلك وردوها على أعقابها عن بني أسد الذين حافظوا على مراكزهم إلى الليل برغم الخسائر التي منيوا بها وكانت ٥٠٠ قتيل[٢٥].

سمي اليوم الأول يوم أرماث وانتهى في الشطر الأول من الليل وكانت كفة الفرس راجحة كما كانت خسائرهم أقل من خسائر العرب.

وفي اليوم الثاني من المعركة (يوم أغواث) قامت جماعات نقل القتلى العرب في صباح اليوم التالي باكراً بإخلاء القتلى من الميدان ودفنهم بين وادي العذيب وعين شمس، بينما قام حاملو النقالات بنقل الجرحى إلى العذيب لتقوم النساء بتمريضهم ومداوتهم، وفي الوقت الذي استعد الجيش ليقوم بالقتال طلعت نواصي خيل الإسلام قادمة من الشام وكانت مقدمة جيش النجدة الذي أرسله أبو عبيدة بن الجرّاح من سوريا وعدده ستة آلاف مقاتل.

وكان على المقدمة البطل المقدام القعقاع بن عمرو الذي مثّل في قتال هذا اليوم الدور الأول فيما عدا مناورته التي قام بها ليخدع أعداءه بأنه أتى بجيش عظيم وذلك بأن قسم مقدمته التي كانت ألف فارس إلى أرتال صغيرة بفرجات كبيرة وفي الوقت عينه قوى معنويات جيش العراق التي تأثرت بنتيجة معركة الأمس باشتراكه في القتال فور وصوله إذ قام بجولات موفقة قتل فيها (بهمن – جازوية) القائد الفارسي الذي انتصر في معركة الجسر، وكان قتال اليوم على العموم بجانب العرب، ولا سيما فيما يتعلق بالفيلة التي تكسرت صناديقها في معركة اليوم السابق ولم تشترك في القتال.

ومما يجدر ذكره هو أن العرب حملوا عشرة من الرجال على إبل ألبسوها الجلال والبراقع وطافت بهم الخيل تحميها في حملتها على خيول الفرس متشبهين بالفيلة وقد نجحت عمليتهم إذ انهزمت خيول الفرس في القلب فطاردها الفرسان العرب وهم يفتكون بالمنهزمين إلى أن صدهم المشاة، هذا وقد استمر قتال ذلك اليوم حتى منتصف الليل وتوقف القتال وكفة العرب هي الراجحة وبلغت خسائرهم في هذا اليوم بين قتيل وجريح ٢٠٠٠ بينما خسائر الفرس ١٠٠٠٠ بين قتيل وجريح.

وفي اليوم الثالث من المعركة (يوم غماس) استبشر العرب عندما طلع عليهم صباح هذا اليوم الكوكب (القسم الأكبر) من قوة النجدة المرسلة إليهم من الشام واستمروا على القتال الذي توقف عند منتصف الليلة السابقة بنشاط عظيم حيث دخل المعركة خمسة آلاف جندي جديد إلا أن فعل الفيلة كان شديداً على العرب كما كان في اليوم الأول من المعركة، وعلى هذا فقد طلب قائد العرب سعد بن أبي وقاص من الفرسان الذين يعتمد عليهم كالقعقاع وعاصم بن عمر أن يخلصوا المسلمين من شدة وطأتها بأن يحاولوا فقأ عيونهم وقص مشافرها بالسيوف فقاموا بواجبهم خير قيام إذ اختاروا منها الفيلة المتقدمة التي كانت في القلب فحملوا على مشافرها بالسيوف فولت هاربة عبر العتيق واتبعتها الفيلة الأخرى وانفسح المجال للمشارة العرب على التقدم في القلب بينما كانت الخيالة تحمي أجنحتها، وكان الموقت على هذه الحالة إلى الليل عندما قام القعقاع بكتيبته

بهجـــوم ليلـــي شـــديد على مراكز الفُرس المتضعضعة وعقبته الكتائب الأخرى فاخـــتلط الجيشـــان واختل توازن المعركة إلى درجة أن الجيشين لم يريا مثل هذا القـــتال قـــط، وانقطعت أخبار القتال عن رستم وسعد والكل ينظر الصبح بفارغ الصبر ليعرفوا نتيجة هذه المعركة الفاصلة في تاريخ الأمتين[٢٦].

وفي اليوم الرابع للمعركة (يوم القادسية) ومن حسن حظ العرب أن تكون نـــتائج قتال الليلة الثالثة أو ليلة الهرير بجانبهم كما كان من حسن حظهم أن يكون معهـــم القعقـــاع بن عمر الذي قال فيه أبو بكر: "لا يُهزم جيش فيهم مثل هذا" فقد ســـيطر القعقـــاع على الموقف وطلب في صباح اليوم الرابع للمعركة الاستمرار على الهجوم ساعة أخرى فإنها ساعة النصر النهائي.

واســـتمر زحـــم الهجوم حتى الظهر إذ بدأت تظهر دلائل خور العزيمة مـــــن نفـــوس الأعداء، وفي تلك اللحظات العصيبة تهب ريح غريبة تقتلع مقر قـــيادة الفرس وتضعف من مقاومتها في الوقت الذي استطاعت فيه كتائب العرب المركـــزية مـــن التوغل في قلب العدو المتراجع، وقد أسرع القعقاع ومعه فصيلة مـــن جنوده الشجعان إلى مقر قيادتهم يفتشون عن رستم الذي اختبأ بين حيوانات المقـــر فســـارع (هلال علفة) بضربه بسيفه فأخطأه وألقى رستم نفسه في العتيق ولحـــق به هلال الذي أخذ برجله وأخرجه من النهر وقتله ثم نادى: "قتلتُ رستم وربُ الكعبة".

ولم يكد ينتشر هذا الخبر ويعلم الفُرس بموت قائدهم وأن المسلمين غنموا رايـــتهم التاريخـــية "درفش كافيان" حتى تراجعوا والعرب من ورائهم تطاردهم،

وممـــا يجدر ذكره هو أن الجالينوس أحد قادة الفُرس المشهورين قام ومعه بضع كتائــب تحمي الانسحاب عبر العتيق إلا أن معظم جنود هذه الكتائب لقوا حتفهم، وقــتل مــن الفــرس فــي الليلة الرابعة وفي نهارها ٣٠٠٠٠ مقاتل بينما خسر العــرب ٨٥٠٠ بين قتيل وجريح.

ولمـــا تم انسحاب الفرس إلى شرقي العتيق أمر سعد آمر المقدمات زهرة بـــأن يطـــاردهم مـــن الخلف في الوقت الذي أمر القعقاع بأن يطاردهم من جهة اليمين وشرحبيل من جهة اليسار.

ومـــع أن مؤخرات الفرس كانت تقاوم المطاردة بشدة بتقت مياه الفرات لغمـــر الأراضي التي اجتازوها فقد استمر العرب على تعقبهم عصر اليوم الرابع مســـافة كبـــيرة أوصـــلوهم فيها إلى مكان قريب من النجف، وعندها عادوا إلى القادســـية ظهر اليوم الخامس، وقد قُتل في أثناء المطاردة (الجالينوس) الذي كان يحمي الانسحاب.

ولـــم تكـــن مطـــاردة العرب في الحقيقة مطاردة جدّية لأن المعركة التي دامـــت أربعة أيام بلياليها أنهكت قواهم إنهاكاً لم يعانوا مثله في ماضي حروبهم، ولـــم تكـــن لهـــم الطاقة ليتحملوا أعباء معارك جديدة وتوغل في بلاد يلقون فيها مقاومـــة مســـتمرة، إنهـــم ضحوا بثلث قوتهم بينما كان الثلثان الآخران في أشد الحاجة إلى الراحة.

ولقد كان مجموع خسائر الفُرس بمعركة القادسية بلغت حوالي ٥٠٠٠٠ مقاتل بينما بلغت خسائر العرب بين قتيل وجريح حوالي ١١٥٠٠ مقاتل وقد خسر الفرس ذخائر وأموال لا تحصى فأغنت كل فرد من أفراد الجيش الذي اشترك في المعركة[٢٧].

أحداث ما بعد القادسية:

لم يستطع الجيش العربي المنتصر الذي حطم القوة الضاربة لجيش الإمبراطورية الساسانية مطاردة فلول ذلك الجيش مطاردة حقيقية بعد كسبه المعركة.

لقد فقد الجيش العربي ثلث قواته، بينما كان الثلثان الآخران في أمس الحاجة إلى الراحة والاستجمام وإعادة التنظيم بعد معركة دامت أربعة أيام، جرى القتال الأخير فيها أكثر من ثلاثين ساعة متواصلة، فضلاً عن ضرورة إخلاء الجرحى من الميدان، وجمع أسلاب الحرب وتوزيعها على الجنود المنتصرين.

مع كل ذلك فسعد بن أبي وقاص قائد معركة القادسية أمر بعد راحة قصيرة أن تقوم عدة مفارز بتطهير المنطقة الواقعة إلى غربي الفرات من فلول الجيش الفارسي المغلوب وقد نفذت خطته بدقة، وكانت أمام سعد بن أبي وقاص مشكلة هجرة السكان وتركهم أرضهم بسبب الحركات الحربية وخوفهم من تنكيل الجيش الفاتح بهم لانضمامهم إلى جانب الفرس كرهاً عنهم، ولأن الإسلام يأمر بقتل المشركين إن لم يسلموا ولم يدفعوا الجزية، ويأمر بقتل من نقضوا عهودهم

مــع العــرب فــي حين أنهم يدّعون أن الفُرس أكرهوهم عليه، وهذه كلها أمور تــتجاوز صلاحيات قائد الفتح، ولابد من استشارة الخليفة في الأمر وتلقي أوامر صريحة لحل هذه المشاكل الأساسية وحتى الخليفة عمر لم يتخذ قراراً حاسماً في الموقــف قــبل أن يستشير قادة الإسلام في المدينة، فكتب إلى سعد كتابين نورد نصــهما لما احتوياه من آراء جريئة وبعيدة المرمى في إدارة الشعوب وسياستها، تلــك الآراء التــي قــال فيها الكاتب الاجتماعي الفرنسي غوستاف لوبون كلمته المشهورة: "ما عرف التاريخ فاتحاً أرحم من العرب".

الكتاب الأول:

"أما بعد، فإن الله جل وعلا أنزل في كل شيء رخصة في بعض الحالات إلا فــي أمرين: العدل في السيرة والذكر، فأما الذكر فلا رخصة فيه في حالة ولم يرضــى مــنه إلا بالكثير، وأما الثاني العدل فلا رخصة فيه لقريب ولا لبعيد ولا فــي شدة ولا في رخاء، وإن رؤي إلينا فهو أقوى وأطفأ للجور وأقمع للباطل من الجــور وأن رؤى شــديداً فهــو أنكش للكفر، فمن تم على عهده من أهل السواد (العــراق) ولــم يعــن عليكم بشيء فله الذمة وعليهم الجزية، وأما من ادعى أنه اســتكره ممن لم يخالفهم إليكم أو يذهب في الأرض فلا تصدقوهم بما ادعوا من ذلك إلا أن تشاؤوا فانبذ إليهم وأبلغهم مأمنهم".

الكتاب الثاني:

"أمــا عن من أقام ولم يجل وليس لهم عهداً فلهم ما لا لأهل العهد بمقامهم لكــم وكفهــم عنكم إجابة عدوكم، وكذلك الفلاحون إذا ذلك، وكل من ادعى ذلك وصـــدق فلهم الذمة، وإن كذبوا نبذ إليهم. وأما من أعان وجلا فذلك أمرٌ جعله الله لكم فإن شئتم فادعوهم أن يقيموا لكم من أرضهم ولهم الذمة وعليهم الجزية، وإن كرهوا ذلك فاقسموا ما أفاء الله عليكم منهم(٢٨).

التقدم نحو شاطئ دجلة الغربي:

وبصـــدد العملـــيات الحربية أمر الخليفة سعداً بأن يتقدم لاحتلال المدائن عاصمة الدولة الساسانية على أن يترك النساء والعيال بالعتيق على جانب الفرات الغربـــي بعـــد أن يضمن حمايتهم بمفرزة قوية، وكانت فلول الجيش الفارسي قد اجتمعت في بابل وأصر قادة الجيش الباقون على قيد الحياة كالنخيرجان ومهران الـــرازي والهرمزان وعلى رأسهم الفيرزان أن يقاتلوا العرب فيها بمعركة نهائية يتفرقون بعدها إذا كتب لهم الفشل، كل إلى جهة معينة، وقد وضعوا حامياتهم في كل من اللسان –مدينة الكوفة حالياً– وبرسيبا.

ســـار الجيش العربي وكل أفراده فرسان مسلحون مرفهون، مقدمة سوقية بقـــيادة زهرة بن الحويّة إلى اللسان فلم تلق فيها مقاومة من حاميتها التي انسحبت إلى برسيبا دون قتال.

ولما وصل القسم الأكبر إلى اللسان تقدمت المقدمة إلى برسيبا، وبعد قتال طفيف مع حاميتها تلتها وانسحبت الحامية الفارسية إلى بابل، وبقى حاكم المقاطعة الفارسي في برسيبا بعد أن قبل تأدية الجزية، وقدّم هذا الحاكم الفارسي مساعدة قيمة للعرب فنصب الجسور لعبور جيشهم صوب بابل، وأعطاهم معلومات ثمينة عن الجيش الفارسي المحتشد في بابل.

أخبر آمر المقدمة سعداً بتفاصيل الأمر وانتظر أوامر قائده، فقرر سعد الاستمرار على التقدم إلى برس ومقاتلة الفرس حتى بابل.

وفي بابل معركة سريعة خاطفة انتهت بنصر مبين للعرب فلا عجب فروح النصر التي كان يقابل بها الجندي العربي لم تتوفر في الجندي الفارسي الذي كان قادته يفكرون في طرق الهزيمة إلى داخلية البلاد، لا بل وفرّ الهرمزان من ميدان المعركة إلى الأهواز كما فر النخيرجان إلى بهرسير ومنها عبر إلى المدائن.

أما كبير القادة (الفيرزان) فقد فر إلى نهاوند حيث فيها كنوز الملك فاستولى عليها.

تحرير كوثي وساباط:

وتقدم الجيش العربي بعد تحريره مدينة بابل إلى كوثي، فاحتلها بعد قتال طفيف، زار سعد بيت إبراهيم الخليل في المدينة ثم تقدم الجيش إلى ساباط فاحتلها وعقد الصلح مع أهلها توجه بعدها إلى بهر سير (المدينة الدنيا) واسمها

القديم سلوقية، وفي مقوع يسمى (المظلم) الواقع على الطريق بهرسير التقت مقدمة الجيش العربي بكتيبة الحرس الملكي الفارسية وتسمى (كتيبة بوران) وكانت قد اتخذت موضعاً دفاعياً أمامياً لحماية بهرسير فهزمتها بعد قتال عنيف.

حصار بهرسير (المدائن الدنيا) وسقوطها:

لم يكن أمام الجيش العربي غير المدائن فتقدم إليها مسرعاً، وكان الفُرس قد أقاموا في المدينة الشرقية المقابلة للمدائن خط دفاع قوي فحصنت على شكل نصف دائرة تستند فيها التحصينات من الشمال والجنوب على نهر دجلة، ويرابط فيها جيش فارسي قوي.

ولم يكن الجيش العربي مستعداً لاختراق هذا النوع من الدفاعات الحصينة فاضطر إلى محاصرة المدينة شهرين كاملين وفرض عليها حصاراً اقتصادياً اضطر فيها المحاصرون على أكل الكلاب والسنانير، واستعان الجيش العربي بأهل البلاد فصنعوا لهم عشرين منجنيقاً وعدداً من العربات والدبابات أخذوا يرمون بها الحصون.

وعرض الملك يزدجرد خلال الحصار الصلح على العرب فاقترح أن يجلو جيشه عن بهرسير (المدائن العليا) وأن تكون البلاد الواقعة غربي دجلة إلى العرب، ويحتفظ الفرس بالبلاد الواقعة شرقي نهر دجلة، وأن يكون النهر حداً فاصلاً بين الدولتين، ورفض سعد بن أبي وقاص هذا العرض فوراً مؤكداً أن ليس هناك من حل سوى الخيار بين ثلاثة: الإسلام أو الجزية أو الحرب. وكان

واضـــحاً؟ أن قـــبول واحد من هذه الشروط لا يحول دون دخول الجيش العربي البلاد.

وكـــان العـــرب فـــي خلال الحصار يخضعون القرى والدساكر الواقعة غربـــي نهـــر دجلـــة ويوطدون حكمهم فيها، وقام سلمان الفارسي الذي كان رائد الجيش الإسلامي بدور خطير في تثبيط همم المحاصرين التي كان يبثها من وراء الحصون.

وفـــي أواخر شهري الحصار قام الجيش الفارسي بمحاولة يائسة للخروج مـــن الحصـــار فشن هجوماً مقابلاً عنيفاً على العرب المرابطين حول المدينة، إلا أن هجومهم أحبط فعادوا أدراجهم بعد أن تكبدوا خسائر فادحة.

تحرير المدائن:

(صفر سنة ١٦هـ/ نيسان "إبريل" سنة ٦٣٨م) وقف آخر ملوك الإمبراطورية الساسانية – الملك الشاب يزدجرد منذ توليه العرش سنة ٦٣٢م موقف المدافع المستميت بوجه الفتح العربي للإبقاء على ملكه في العراق، ويحدثنا التاريخ بأنه كان رجلاً شجاعاً ذا عزيمة قوية، وحاول عبثاً الوقف بمفرده بوجه التحول الجديد، فلقد خانه قادة جيشه المتخاذلون فارين إلى داخل البلاد الفارسية، ولم يجد في شعبه أي حافز للقتال، ولم يقف إلى جانبه حلفاء الأمس من سكان البلاد الأصليين الذين سخروا لمنفعة حكامهم القساة المستبدين،

ولم يبق لديه غير جيش محترف كثير في عدده وقوي في عدته تنقصه روح القتال.

وإزاء هـذه الحقـائق قـرر إخلاء العاصمة والانسحاب إلى داخل البلاد ليـتخذ مـن المناطق الجبلية الوعرة على حدود العرب وحدود فارس خط الدفاع لـيحول دون زحف موجة الفتح العربي، وأرسل فعلاً خزائنه وأسرته إلى حلوان قريباً من قصر شيرين الحالية.

ولمـا سقطت المدائن الغربية (بهرسير) ترك الملك عاصمته وذهب إلى حلـوان بعـد أن ترك حامية عسكرية لتعويض العرب ولصدهم إذا حاولوا عبور دجلة.

عبور دجلة:

علم قائد الجيش العربي أن الملك يزدجرد بدأ يخلي العاصمة، وذلك يعني تهريـب كـل نفائس الإمبراطورية التي حكمت الشرق الأوسط عدة قرون، وكان فيضـان دجلـة في بدايته، وعلى استمرار في الصعود طيلة شهرين قادمين، ولا سـبيل للمدائن وهي هدفه الأخير الذي عينه له الخليفة، سوى عبور النهر سباحة، وكـان قـراره خطيراً يتطلب موافقة قادة جيشه وجنده عليه، فجمعهم وألقى بهم الخطـاب التالي: "إن عدوكم قد اعتصم منكم بهذا البحر فلا تخلصون إليهم معه، وهم يخلصون إليكم إذا شاؤوا فينا وشونكم في سفنهم وليس وراءكم شيء تخافون أن تـأتوا منه فقد كفاكموهم أهل الأيام وعطلوا ثغورهم وأمنوا ذواتهم، وقد رأيت

مـــن الرأي أن تبادروا جهاد العدو بنياتكم قبل أن تحركم الدينا إلا أني قد عزمت على قطع هذا البحر إليهم".

وافقــه القــادة على رأيه وأقروا خطته القاضية بتأسيس رأس جسر على الضــفة الشــرقية يقــوم بعملياتها عاصم بن عمرو وبكتيبته الأهوال المؤلفة من ســتمائة فــارس، على أن تسبقها سرية من الفدائيين عبرت النهر، وتغلبت على فصــيلة من الجيش الفارسي حاولت إحباط العبور وتم تأسيس رأس الجسر بجهد ضئيل، وعندها عبرت كتيبة الأهوال النهر بقيادة عاصم بن عمرو وأعقبتها كتيبة الفرســان بقيادة البطل القعقاع بن عمرو، فالقسم الأكبر بقيادة سعد بن أبي وقاص الذي اقترن بسلمان الفارسي يسايره في السباحة!.

وهكــذا بوغتــت المدائن –بعد ثلاثة أيام فقط من سقوط المدائن الغربية– مباغــتة لــم تكن تنتظرها أن تتم بهذا الشكل وبهذه السرعة، وباتت فكرة مقاومة الفاتحيــن مســتحيلة، فسلمّت العاصمة دون قتال ووقف السكان يتطلعون إلى تلك المسرحية العجيبة في التاريخ يتصايحون: جاء الشياطين!.

وســمي ذلك اليوم يوم الماء، وسماه آخرون: يوم الجرثيم!. لا يعيا جندي إلا أنشزت له جرثومة يريح عليها(*).

دخول العاصمة:

تــم عــبور الــنهر من ضاحية العاصمة الجنوبية العربية، ودخل الجيش الظافــر المدائــن تــتقدمه كتيبة الأهوال وعلى رأسها قائدها الشجاع عاصم بن

عمرو، وأعقبتها كتيبة الفرسان وعلى رأسها القعقاع بن عمرو فالقسم الأكبر وعلى رأسه سعد بن أبي وقاص، وسار الجيش بمظاهرة من شوارع العاصمة إلى أن وصل الكوكب (القسم الأكبر) القصر الأبيض – دار الملك(٢٩).

وعلى باب القصر الأبيض وقف سعد بن أبي وقاص قائد الجيش المنتصر خال رسول الله يقرأ الآية الكريمة: ﴿كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ۝ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ۝ وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ ۝ كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ﴾(٣٠). ثم دخل القصر وصلى بجيشه صلاة الفتح وسط التماثيل المتناثرة في باحثه، وكانت أول جمعة جمعت بالعراق، وذلك في صفر سنة ست عشر(٣١).

ولم يتمالك سلمان الفارسي نفسه فقال في حشد من الناس: "ذللت لهم والله البحور كما ذلل لهم البر ليخرجن منه أفواجاً كما دخلوه أفواجاً، فطبقوا الماء حتى ما يرى الماء من الشاطئ، ولهم فيه أكثر حديثاً منهم في البر، ولو كانوا فيه فخرجوا ولم يفقده شيئاً ولم يغرق منهم أحد" وبدأ سعد بتثبيت مركز جيشه في العاصمة فأرسل زهرة وهو قائد المقدمات باتجاه النهروان يؤلف خط ستار لحماية العاصمة، وطلب منه في نفس الوقت أن يرسل مفرزات المطاردة والاستطلاع في النواحي الشمالية والشرقية المحيطة بالعاصمة على أن تكون على اتصال بالقوات الفارسية المرابطة في أطراف النهروان بقيادة مهران.

الغنائم:

لقد كان عدد الجيش العربي الفاتح ستين ألف مقاتل، بما فيهم أولئك الذين بقوا لحماية القاعدة في الفرات، وقد أصاب كل فرد من هذا الجيش اثنا عشر ألف درهم ما عدا الخمس الذي أرسل إلى بيت المال، فيكون مجموع النقود التي وجدت في الخزائن تسعمائة مليون درهم على أقل تقدير.

ولم يكن لهذا المال شأن يذكر إزاء ما غنمه العرب من التحف الفنية والمجوهرات والأواني الذهبية والفضية ومن أسلحة وملابس وديباج مما لا يحصى ولا يقدر بثمن على الإطلاق ولم تشهد مثله العرب في تاريخهم.

وأرسل سعد إلى الخليفة عمر ما عدا الخمس المخصص لبيت المال بعض التحف الفنية العجيبة كبساط الملك الذي أبدع المؤرخون في وصفه، وعجزوا عن تقدير ثمنه، وكذلك أرسل تاج الملك وحليه وسيفه وثيابه وتحفا أخرى عجيبة، ولما رآها الخليفة عمر ﷺ قال: "إن قوماً أدوا هذا لذووا أمانة" فرد عليه علي بن أبي طالب قائلاً: "عفت فعفت الرعية!"[٣٢].

القتال في ثلاث جبهات لتحرير الأراضي العراقية:

موقف الفرس بعد تحرير المدائن:

لم يبق الملك الذي فقد عاصمة ملكه، ولا لقادة الإمبراطورية الذين تشتتوا في داخل بلادهم من أمل بعد هزيمة القادسية سوى سلاح اليأس يقاتلون

بـــه الفاتحيـــن القادمين على غزو بلادهم في عقر دارهم، وكان يعز على الملك يزدجـــرد الثالث أن يتم انهيار الإمبراطور على يديه فعمل المستحيل لإعادة تنظيم مـــا تـــبقى من جيشه، وأخذ يبث في نفوس أبناء قومه روح المقاومة في المناطق الجبلية القريبة من سهل العراق حيث اتخذ من حاضرتها حلوان مقراً له.

وقـــام قادة الفرس في كل مكان من بلادهم بتجنيد مواطنيهم وإعادة تنظيم جيوشهم للدفاع عن وطنهم بعد أن سروا معركة العراق أو كادوا يخسرونها.

واســـتطاع الفرس بفترة وجيزة أن يحشّدوا ثلاثة جيوش في وسط الجبهة قريباً من العاصمة، وفي أقصى الجنوب إزاء البصرة وفي أقصى شمالي العراق حيث كانوا لا يزالون يسيطرون على منطقة الموصل.

ففـــي الجـــبهة الوسطى حيث تدور معركة تقدير المصير استطاع مهران الـــرازي جمـــع جيش يربو على مائة ألف جندي حشده في جلولاء على مشارف المنطقة الجبلية لحمرين وقره غان ودراويشكة.

وفـــي الجبهة الجنوبية ألف الهرمزان جيشاً قوياً حشده على مشارف شط العـــرب مقابل البصرة، والهرمزان هو أحد قادة الجيش الذي فرّ من معركة بابل وعاد إلى بلاده الأهواز بوصفه أميراً من أمرائها.

وقام حاكم الموصل الفارسي بتأليف جيش مختلف من الحاميات الفارسية والرومانـــية ومـــن القبائل العربية من إياد وتغلب والنمر، وزحف به إلى تكريت لمقاتلـــة العرب فيها، ليخفف الضغط عن الجبهة الشرقية الوسطى التي تدور فيها

المعـــارك الحاسمة في الوقت الذي تحصنت فيه الحاميات الفارسية المرابطة على ضفاف القسم الشمالي الغربي لنهر الفرات لصد أي هجوم عربي عليها.

موقف الجيش العربي:

لم يقم الجيش العربي بعد احتلال المدائن بحركات عسكرية جديدة إذ كان لابد من إعادة تنظيم الجيش وإعطائه فرصة الراحة ولابد من تنظيم إدارة العراق الغنـــي، وتشـــغيل جهـــازه الزراعي الذي تأثر بالحرب التي دامت أربع سنوات متواصلة.

وكانـــت القـــيادة العربـــية العامة بنفس الوقت مدركة للموقف العسكري وملمـــة بخطـــط أعدائهـــا، وقدّرت كذلك أن المعركة الفاصلة بينها وبين الفُرس ســـتكون فـــي الجبهة الوسطى حيث بدرت بوادر الفعاليات التي كان يبذلها الملك الطريد على الحدود فقررت على ضوء هذا الموقف تصفية الجيوب الضعيفة قبل أن تدخل معركة مصيرية أخرى مع الجيوش الرئيسية للأعداء.

الجبهة الشمالية:

أ. معركة تكريت:

تنفـــيذاً لأوامـــر الخليفة عمر ﷺ إلى سعد بن أبي وقاص في المدائن تم تألـــيف قوة ضاربة من خمسة آلاف مقاتل بقيادة عبد الله بن المعتّم وتضم خمسة

آخرين من القادة وهم: ربعي العنزي ويقود المقدمة، والمحارب بن حسان الذهلي للميمـــنة، وفـــرات بـــن لحيان للمسيرة، وهانئ بن قيس على الساقة (المؤخرة)، وعرفجة ابن هرثمة لقيادة الفرسان.

أُمـــرت القوة أن تسير إلى تكريت بمحاذاة نهر دجلة فقطعت المسافة بين المدائن وتكريت بأربعة أيام، وفي تكريت شوهد جيش العدو المختلط المؤلف من الفرس والعرب وبعض الجنود الرومان قد تحصن في المدينة، متخذاً خطة الدفاع المُسْـــتكين ومتخفياً وراء الحصون، راضياً بالحصار الذي فرضه عليه قادته في حين أن الغرض منه هو مبادأة العرب بالهجوم ليحققوا الهدف المنشود الذي كان يتوخاه الملك يزدجرد.

حاصـــر الجيش العربي حاكم الموصل البيزنطي في تكريت أربعين يوماً جـــرت خلالهـــا مناوشـــات بســـيطة، وعندما اشتدت وطأة الحصار قرر الجنود البيزنطـــيون الانسحاب من المدينة فتأثر بذلك الجنود العرب من قبائل إياد وتغلب والـــنمر الذيـــن كانوا في صفوف الأعداء، فاتفق زعماؤهم على مفاوضة العرب بـــالدخول فـــي الإســـلام، واتفـــق معهم في الوقت ذاته على الاشتراك مع جيشه للقضـــاء علـــى الجـــيش الفارسي – البيزنطي المختلط فرسموا لذلك خطة سرية كـــان نصيبهم منها أن يسدوا بوجه الأعداء طريق الانسحاب من ناحية النهر في الوقت الذي يهاجم فيه جيش عبد الله بن المعتم من ناحية البر، واتفقوا على وقت وإشـــارة الهجوم، وقد نفذت الخطة بدقة وبنجاح كبيرين فاستطاع الجيش العربي

الإســـلامي اقتحام خطوط الدفاع الجنوبية الغربية ليلاً في الوقت الذي بوغت فيه العدو وبجنود العرب من الخلف فارتبك أيما ارتباك وقضي عليه القضاء المبرم.

وبعد هذا النصر أرسل عبد الله بن المعتم مفرزة من جيشه معززة بأفراد القـــبائل العربية التي أسلمت وانضمت إليه في مكان يدعى الحصنين وبه حاميات فارسية فاستطاعت تلك المفرزة إخضاعها[٣٣].

ب. تطهير غربي الفرات:

كان خط الحدود بين الإمبراطوريتين الفارسية والرومانية يمر من شمالي غربـــي الفرات ما بين القائم والبوكمال، فتقطع الفرات وتقع الجزيرة ضمن حدود الدولـــة البيزنطـــية، وكان بلدة قرقيسيا والفراض هيت مراكز عسكرية لقطاعات الحدود البيزنطية والفارسية.

ولمـــا رأى العرب المسلمون أن جموع أهل الجزيرة قد أمدوا هرقل بجند يساعدونه على أهل حمص وبعثوا جنداً لتعزيز حامية هيت قرّ رأي الخليفة عمر على تطهير غربي الفرات من تلك الحاميات، فأمر سعد بن أبي وقاص أن يرسل رتـــلاً بقـــيادة عمر بن مالك لإنجاز هذه المهمة، فسار الرتل بمحاذاة نهر الفرات وحاصـــر بلـــدة هيت، ولما كان أهلها قد تحصّنوا فيها قرر إفراز قسم من قواته لـــتطويق البلدة وحصارها وسار بباقي قوته فباغت قرقيسيا واحتلها، فلما سمعت حامية هيت بمصير قرقيسا اضطرت هي أيضاً على التسليم[٣٤].

الجبهة الجنوبية:

معارك البصرة والأهواز:

لـبى سـعد بن أبي وقاص نداء قائده عتبة في البصرة فأرسل بأمر من الخليفة رتلين أحدهما بقيادة نعيم بن مقرن والثاني بقيادة نعيم بن مسعود، أمرهما أن يتجها نحو ميسان ودست ميسان حتى يكونا بينهم وبين نهر تيري.

أما عتبة فقد أرسل رتلاً آخر بقيادة "سلمى بن القَيْن" و"حرملة بن مريطة" وأمـرهما أن يـنزلا بقواتهما على حدود أرض ميسان ودست ميسان بينهم وبين مـناذر، ومـع أننا نجهل تفاصيل الأوامر التي زود بها قائدة هذه الأرتال ومدى تعاونهـا مع بعضها في إنجاز مجرى الأحداث ومن موقف قوات العدو المرابطة بيـن نهر تيري وبين الدلتا حينذاك، وكذلك من المفاوضات التي قام بها قائد رتل البصـرة ونعني به سلمى بن القين مع رؤساء قبيلة "بني العم" العربية التي كانت تقطـن في تلك الجهات والتي انتهت باتفاق رؤسائها على الاشتراك في القتال إلى جانـب إخوانهم العرب المسلمين، فيثور أحد الرؤساء وهو غالب الوائلي بمناذر ويـثور الآخـر وهـو كليـب بن وائل الكلبي بنهر تيري فيقتلا المقاتلة ثم يكون وجههما رتل البصرة فيتعاونا معه في القتال.

وفـي ليلة الهجوم المقررة خرج رتل البصرة بقيادة سلمى بن القين على تعبية واتصل برتل الكوفة، وهاجم الرتلان جيش الهرمزان بين دلتا ونهر تيري، وفـي أثـناء الاشتباك أتى المدد من قبائل بني العم في الوقت الذي تواردت فيه

الأخــبار إلـــى الهرمزان بأن مناذر نهر تيري قد أخذنا فزعزع ذلك موقفه وقرر الانســحاب مـــن المعــركة إلى ما دون شاطئ دجيل، وقد استطاعت فلول قواته عبور جسر سوق الأهواز واتخذها معسكرا بحيال تلك المدينة، وأقام على الجسر قـــوة تحميه وتحول دون عبور الجيش العربي، إلا أن هرمزان كان يقدر خطورة موقفـــه فطلب الصلح، وقد أجاب عتبة عليه مشترطا أن يقصر ذلك على الأهواز فقـــط، أمـــا نهر تيري ومناذر وسوق الأهواز فتضم إلى البصرة لأنها جزء منها ولا شـــأن للهرمزان بها فوافق الهرمزان على شروط الصلح هذه، وعلى أثر عقد الصـــلح عيّن سلمى بن القين حاكماً عسكرياً على المناذر، أما الحاكم المدني فهو غالـــب الوائلـــي، وعيّـــن حرملة بن مريطة حاكماً عسكرياً على نهر يتري، أما الحاكم المدني فهو كليب بن وائل.

وقد أوعز لطوائف قبيلة بني العم على النزوح إلى منازلهم وأن تقطع لهم الأراضـــي ويـــرفه عـــن حالهم لاستيطان تلك المنطقة تحقيقاً لرغبة الخليفة عمر بـــن الخطاب ونزولاً عند إرادته(٣٥).

الجبهة الوسطى:

معركة جلولاء:

أمـــر الخلـــيفة عمر ﷺ بأن يتقدم جيش مؤلف من اثني عشر ألف مقاتل بقـــيادة هشام بن عتبة أبي الوقاص نحو جلولاء لمنازلة الجيش الفارسي الرئيسي

المحتشـــد فــيها، وأمر أن يقود مقدمة الجيش القعقاع بن عمرو وأن يتولى قيادة الميســـرة عمر بن مالك، وقيادة الميمنة سعد بن مالك، وأن يكون قائد الساقة سعد الجهين.

وكانـــت الأوامـــر تقضـــي بطرد العدو من جلولاء، وبعد أن يتم النصر للعـــرب يـــتقدم القعقاع بمقدمة إلى سلسلة الجبال الأولى التي تفصل العراق عن إيـــران أو على حد تعبير الخليفة عمر ﷺ "يكون بين السواء، العراق" وبين الجبل على حد سواءكم: فيرابط فيها ويحول دون تسرب الفرس إلى العراق(٣٦).

تقدم جيش هشام بن عتبة من المدائن إلى جلولاء فقطع المسافة بينهما في أربعـــة أيـــام، وفي جلولاء شاهد العدو وقد اتخذ موضعاً دفاعياً حول هذا الموقع مســـنداً ظهـــرها إلى نهر ديالي، وقد أحاط دفاعاته بسياج من الخشب ثم استبدل بسياج من الحديد فيه فتحات معينة عن الطرف.

وقد أحاط العرب بدفاعات الفرس وحدثت مناوشات ليست بذات شأن بين الفريقيـــن، ولما رأى الفرس أن الإمدادات متواصلة إلى عدوهم خافوا من العاقبة وقـــرروا الخروج من دفاعاتهم والاشتباك مع العرب المسلمين في معركة فاصلة، وقد مهدوا السبيل إلى ذلك بدفن بعض أقسام الخندق لجعلها طرقاً لخيلهم.

وفـــي صـــباح أحـــد أيـــام ذي القعدة سنة ١٦هـ (كان الأول سنة ٦٣٧م) خـــــرج الفرس للقتال فنشبت بين الفريقين معركة حامية إلى درجة أن نفذ ما مع الفرس من نبل ونشاب فاستخدموا رماحهم وسيوفهم.

استمر القتال على هذا الشكل حتى ظهر اليوم وكاد العرب يغلبون على أمرهم لو لم ينقذ الموقف القعقاع بن عمرو الذي مثّله في الساعة الأخيرة من معركة القادسية فكسب معركتها وها هو في معركة جلولاء يصرخ في جنوده (أهالتكم هذه؟ احملوا حملة رجل واحد حتى تخالطوهم ولا تكذبن!) ومع أن الحملة كانت عنيفة إلا أنها لم تثمر عن فوز نهائي، وفي المساء عاد القعقاع فضبط قسماً من الخندق وقد عزم على النصر الذي لاح له بين عينيه يحرّض الجيش على القتال ولم يجد بأسا لتشجيع الجيش من أن يأمر مناديه أن يقول: "يا معشر المسلمين هذا أميركم قد دخل الخندق!" فحملوا وهم لا يشكون في كون هشام بن عتبة في الخندق فإذا هم بالقعقاع قد استولى عليه[٣٧].

وانهزم الفرس، فعقرت خيلهم وتخبطت بالسياج الحديدي وصاروا رجالة، واتبعهم المسلمون فعملوا فيهم قتلاً رهيباً ولم ينج إلا القليل، وذكر البعض أن قتلى الفرس من هذه المعركة كان مائة ألف جلهم من أهل الرأي فجللت القتلى المجال ما بين يديه وما خلفه فسميت جلولاء بما جللها من قتلاهم فهي جلولاء الوقيعة وبذلك يقول الشاعر العربي:

ويوم جلولاء الوقيعة أصبحت كتائبنا تردى بأسد عوابس

وقد طارد القعقاع بمقدمته فلول السيوف الفارسية المنهزمة حتى دخل مدينة خانقين وقتل فيها قائد الجيش العام مهران الرازي واستمر على التقدم

فدخـــل مدينة قصر شيرين، وعلى فرسخ واحد فقط من حلوان قاتل حاميتها التي كان يقودها خسرو فغلبها واستولى على حلوان[٣٨].

وسبق أن غادر يزدجر الثالث هذه المدينة قاصداً مدينة الري بعد أن يئس من مقاومة العرب المسلمين والوقوف في وجههم.

وكان القعقاع يود لو سمح له بالتوغل في الجبل للقضاء على البقية الباقية مـــن المقاومـــة الفارسية، إلا أن الأوامر الصادرة إليه حالت دون أمنيته المخالفة لرغـــبة الخلـــيفة عمر ﷺ، فقد قال الخليفة بهذا الصدد: "وودت لو أنّ بين السواد وبين اجبل سداً لا يخلصون إلينا ولا نخلص إليهم...".

وقد بقي القعقاع في حلوان إلى أن اختيرت الكوفة قاعدة لجيش الفتح بدلاً مـــن المدائن أما الغنائم التي حصل عليها العرب المسلمون فكانت عظيمة أصاب كل فارس منها تسعة آلاف درهم وتسعة دواب ما عدا الخمس[٣٩].

معركة ماسبذان:

لـــم يـــبق لفـــتح القسم الأوسط من العراق في الجبهة الشرقية غير مدينة ماســـبذان التي تسللت إلى سهلها قوة صغيرة من الجيش الفارسي بقيادة أذين بن الهرموان فأرسل سعد رتلاً بقيادة ضرار بن الخطاب لطرد هذه القوة من مناطق الحـــدود العراقية فالتقى بها في مكان يدعى "بهندف" وبعد قتال قصير تغلب عليها وقتل قائدها وتعقب فلولها إلى نهر سيروان (قسم ديالي الأعلى)[٤٠].

وهكـــذا تنتهي في هذه الجبهة الصفحة الأولى من الحركات الحربية التي حررت العراق من الحكم الأجنبي لتبدأ صفحة جديدة في ميادين أخرى.

وقعة نهاوند [فتح الفتوح]:

قـــيل أنهـــا كانت سنة ثمان عشرة وقيل سنة تسع عشر وقيل سنة إحدى وعشـــرين، أثـــار أمـــر نهاوند أن المسلمين لما خلصوا من جند العلاء من بلاد فـــارس وفـــتحوا الأهواز كانت الفرس ملكهم وهو بمرو فحركوه، وكاتب الملوك بيـــن الـــباب والسند وخراسان وحلوان فتحركوا، وتكاتبوا واجتمعوا إلى نهاوند، ولمـــا وصلها أوائلهم بلغ سعداً الخبر فكتب إلى عمر وقد وشا بسعد قوم سعوا به وألـــبوا عليه ولم يشغلهم ما نزل بالناس، وكان من تحرى أمره الجرّاح بن سنان الأســـدي فـــي نفـــر، فقال لهم عمر: والله ما يمنعني ما نزل بكم من النظر فيما لديكـــم، فبعـــث عمر محمد بن مسلمة والناس في الاستعداد للفرس، وكان محمد صـــاحب العمّال يقتص آثار من شكى زمان عمر، فطاف بسعد على أهل الكوفة يســـأل عـــنه، فما سأل عنه جماعة إلا أثنوا عليه خيرا سوى آل الجراح الأسدي فـــإنهم سكتوا ولم يقولوا سوءا، حتى انتهى إلى بني عبس فسألهم، فقال أسامة بن قـــتادة: اللهـــم إنّه لا يقسم بالسوية، ولا يعدل في القضيّة، ولا يغزو في السريّة. فقـــال سعد: اللهم إن كان قالها رياءً وسمعة فأعم بصره، وأكثر عياله، وعرّضه لمضلات الفتن، فعميَ، واجتمع عنده عشر بنات، وكان يسمع بالمرأة فيأتيها حتى

يجسسـها، فـإذا عـثر عليها قال: دعوة سعد الرجل المبارك، ثم دعا سعد على أولـئك الـنفر فقـال: اللهـم إن كانوا خرجوا أشراً وبطراً ورياء فاجهد بلادهم، فجهـدوا، وقطع الجراح بالسيوف يوم بادر الحسن بن علي -عليه السلام- ليغتاله بساباط، وشذخ قبيصه بالحجارة، وقتل أربد بالوجئ ونعال السيوف.

وقال سعد: إني أول رجل أهرق دماً من المشركين، ولقد جمع لي رسول الله ﷺ أبويـه ومـا جمعها لأحد قبلي ولقد رأتني خمس الإسلام، وبنو أسد تزعم أنـي لا أحسـن أن أصـلي وأن الصيد يلهيني وخرج محمد بهم معه إلى المدينة فقدمـوا على عمر فأخبروه الخبر، فقال: كيف تصلي يا سعد؟ فقال أطيل الأوليين وأحذف الآخرين فقال: هكذا الظنّ بك أبا اسحق ولولا الاحتياط لكان سبيلهم بيناً، وقـال مـن خليفـتك يا سعد على الكوفة؟ فقال: عبد الله [ابن عبد الله] بن عبتان، فأقره، فكان سبب نهاوند وبعثها زمن سعد.

وأما الواقعة فهي زمن عبد الله، فنفرت الأعاجم بكتاب يزدجرد فاجتمعوا بـنهاوند علـى الفيرزان في خمسين ألفا ومائة ألف مقاتل، وكان سعد كتب إلى عمـر بالخـبر ثـم شافهه به لما قدم عليه وقال له: إن أهل الكوفة يستأذنوك في الانبياح وأن يبدؤوهم بالشدة ليكونوا أهيب لهم على عدوّهم.

فجمع عمر الناس واستشارهم، وقال لهم: هذا يوم له ما بعده، وقد هممت أن أسـير فيمن قبلي ومن قدرت عليه فانزلا منزلاً وسطاً بين هذين المصريين ثم

استـــتنفرهم وأكـــون لهـــم رداءاً حتى يفتح الله عليهم ما أحب، فإن فتح الله عليهم حببتهم في بلدانهم.

فقـــال طلحة بن عبيد الله: يا أمير المؤمنين قد أحكمتك الأمور، وعجمتك الـــبلايا، واحنكتك التجارب، وأنت وشأنك، لا ننبو في يديك ولا نكل عليك، إليك هـــذا الأمر، فمرنا نطيع وادعنا نجب واحملنا نركب وقدنا عليك، إليك هذا الأمر وقـــد بلوت وجريت واحتربت فلم ينكشف شيء من عواقب قضاء الله لك إلا عن خيارهم، ثم جلس.

فعـــاد عمـــر، فقام عثمان فقال: أرى يا أمير المؤمنين أن تكتب إلى أهل الشام فيسيروا من شامهم، وإلى أهل اليمن فيسيروا من يمنهم، ثم تسير أنت بأهل الحرميـــن إلـــى الكوفة والبصرة فتلقى جمع المشركين بجمع المسلمين، فإنك إذا ســـرت قـــل عـــندك مـــا قد تكاثر من عدد القوم وكنت أعز عزّا وأكثر، يا أمير المؤمنيـــن إنك لا تستبقي بعد نفسك من العرب باقية، ولا تمتع من الدنيا بعزيز، ولا تلـــوذ مـــنها بحرير، إن هذا يوم له ما بعده من الأيّام فاشهده برأيك وأعوانك ولا تغب عنه، وجلس.

فعـــاد (عمر) فقام إليه علي بن أبي طالب فقال: أما بعد يا أمير المؤمنين فـــإنك إن أشخصـــت أهـــل الشـــام مـــن شامهم سارت الروم إلى ذراريهم، وإن أشخصـــت أهـــل اليمن من يمنهم سارت الحبشة إلى ذراريهم، وإن أشخصت من هـــذه الأرض انتفضـــت عليك العرب من أطرافها وأقطارها حتى يكون ما تدع

وراءك أهمّ إليك مما بين يديك من العورات والغيالات، أقرر هؤلاء في أمصارهم وأكتب إلى أهل البصرة فليتفرّقوا ثلاث فرق: فرقة إلى إخوانهم بالكوفة مدداً لهم، إن الأعاجم إن ينظروا إليك غدًا قالوا: هذا أمير المؤمنين أمير القوم فإن الله هو أكره لمسيرهم منك وهو أقدر على تغير ما يكره، أما عددهم فإنّا لم نكن فيما مضى بالكثرة ولكن بالنصر.

فقال عمر: هذا هو الرأي، كنت أحب أن أتابع عليه، فأشيروا علي برجل أوليه ذلك الثغر وليكن عراقياً، قالوا: أنت أعلم بجندك وقد وفدوا عليك، فقال: والله لأولين أمرهم رجلاً يكون أول الأسنة إذا لقيها غداً، فقيل: من هو؟ فقال: هو النعمان بن مقرن المزني، فقالوا: هولها، وكان من خيار أصحاب رسول الله ﷺ، وكان على خراج كسكر، فدعا عمر السائب بن الأقرع إليه عهد النعمان بن مقرن، قال له إن قتل النعمان فولي الأمر حذيفة بن اليمان، وإن قتل حذيفة فولي الأمر جرير بن عبد الله البجلي، وإن قتل جرير فالأمير المغيرة بن شعبة، وإن قتل المغيرة فالأمير الأشعب بن قيس وكتب إلى النعمان بن مقرن: "إن قبلك رجلين هما فارسا العرب: عمرو بن معدي كرب، وطليحة بن خويلد فشاورهما في الحرب، ولا ترفع إلي باطلاً، وأن يهلك ذلك الجيش فأذهب، فلا أرينّك"(٤١).

سار السائب حتى ورد الكوفة ودفع إلى النعمان عهده، ووافت الإمداد، وخلّف أبو موسى بالبصرة ثلثي الناس، وسار بالثلث الآخر حتى وافى الكوفة، فتجهز الناس، وساروا إلى نهاوند، فنزلوا بمكان يسمى "الإسفيذهان" من مدينة

نهـاوند علـى ثـلاث فراسـخ، قرب قرية يقال لها "قديسجان" وأقبلت الأعاجم يقودهـا مـروان شـاه بـن هرمزد حتى عسكروا قريباً من معسكر المسلمين وخـندقوا علـى أنفسهم، وأقام الفريقان بمكانهما فقال النعمان لعمرو وطلحة: "ما تريان؟ فإن هؤلاء القوم قد أقاموا بمكانهم لا يخرجون منه، وإمدادهم تترى عليهم كـل يوم" فقال عمرو: "الرأي أن تشيع أن أمير المؤمنين توفى، ثم ترحل بجميع مـن معك، فإن القوم إذا بلغهم ذلك طلبونا فنقف لهم عند ذلك" ففعل النعمان ذلك، وتباشـرت الأعـاجم، وخرجوا في أثر المسلمين حتى إذا قاربوهم وقفوا لهم، ثم زحفـوا، فاقتـتلوا، فلـم يسـمع إلا وقع الحديد على الحديد، وكثرت القتلى من الفريقيـن، وحال بينهما الليل فانصرف كل فريق إلى معسكرهم، وبات المسلمون لهـم أنين من الجراح، ثم أصبحوا وذلك يوم الأربعاء، فتزاحموا، واقتتلوا يومهم كلـه، وصـبر الفـريقان، وركـب النعمان بن مقرن برذونا أشهب، ولبس ثياباً بيضـاء، وسـار بين الصفوف، يحيي المسلمين، ويحضهم، وجعل ينتظر الساعة التـي كـان الرسـول ﷺ يقاتل فيها، وستنزل النصر، وهي زوال النهار، ومهب الرياح، وسار في الرّايات يقول: "إني هازٌ لكم الراية ثلاثاً، فإن هززتها أول مرة فليشـد كـل رجل منكم حزام فرسه، وليستلم شِكّته، فإذا هززتها الثانية فصوّبوا رماحكم، وهزوا سيوفكم فإذا هززّتها الثالثة فكبروا، واحملوا، فإني حاملٌ".

فلمـا زالـت الشـمس بأدنى صلوا ركعتين ، ووقف، ونظر الناس إلى الراية، فلما هزها الثالثة كبّروا وحملوا فانتفضت صفوفهم الأعاجم، وكان النعمان

أول قتـيل، فحملـه أخوه سويد بن مقرن إلى فسطاطه، فخلع ثيابه، فلبسها، وتقلد سيفه، فلم يشك أكثر الناس أنه النعمان، وثبتوا يقاتلون عدوهم ثم أنزل الله نصره، وانهزمـت الأعاجم، فذهبت على وجوهها حتى صاروا إلى قرية من نهاوند على فرسـخين، تسمى "ذزيزيد" فنزلوها لأن حصن نهاوند لم يسعهم، وأقبل حذيفة بن اليمان، وقـد كان تولى الأمر بعد النعمان حتى أناخ عليهم، فحاصرها بها، ولم يلبث أصحاب الحصن أن صالحوا المسلمين على الأمان[٤٢].

وتعـد موقعـة نهـاوند خاتمة المعارك الفاصلة في تاريخ الفتح العربي لفارس ولذلك سميت "فتح الفتوح" وبها أنهار سلطان الفرس نهائياً.

وترتـب علـى انتصار المسلمين في نهاوند سقوط عدد من المدن، منها الديـنور التـي أقـر أهلها بالجزية والخراج وسألوا الأمان على أنفسهم وأموالهم وأولادهـم، فأجابهم المسلمون إلى طلبهم، ومنها ما سبذان التي صولح أهلها على مثل صلح أهل الدينور، كذلك صالحه أهل السيروان على الجزية والخراج.

وقـام جرير بن عبد الله البجلي بفتح همذان قسراً على مثل صلح نهاوند فـي آخـر سنة ٢٣هـ، كما افتتح أبو موسى الأشعري مدينة قم وقاشان عنوة، ثم أصـبهان في سنة ٢٣هـ، ولم تستعص على المسلمين سوى اصطخر التي لاذ بها "يزدجـرد"، ثم انتفض أهل اصطخر عليه فهرب يزدجرد إلى خراسان ولكنه لي مصـرعه في مرو في سنة ٣٠هـ[٤٤]، وبصرع الملك يزدجرد فقد الفرس كل أمل استرجاع فارس، ودالت دولتهم.

أمـا الجزيـرة الفراتـية التـي كانـت بعض مدنها تحت سيطرة الروم البيزنطييـن فقد كان تحريرها ضرورة حربية لتأمين فتوح الشام، وكان أبو عبيدة ابـن الجـراح قـد بعـث عياض بن غنم إلى الجزيرة ثم توفى أبو عبيدة فخلفه عـياض، وود علـيه كتاب عمر بن الخطاب بتولية حمص وقنسرين والجزيرة، فسـار إلـى الجزيرة الفراتية في النصف من شعبان سنة ١٨هـ في خمسة آلاف مقـاتل، واشـترك معـه في هذه الحملة ميسرة بن مسروق العبسي، وكان على مقدمـة جيشه، وسعيد بن عامر الجمحي وكان على الميمنة، وصفوان بن المعطل السـلمي على الميسرة، وتمكنت جيوش عياض من تحرير مدن الجزيرة الواحدة تلـو الأخـرى فوصلت إلى الرقة التي صالح أهلها على الجزيرة بعد حصار دام بضـعة أيـام وأمـن جميع سكانها على أنفسهم وذراريهم وأموالهم ومدينتهم، ثم واصـل عياض زحفه إلى "حران" فتحصن أهل المدينة، فتركها إلى الرها "أورفه" ونجـح في الاستيلاء عليها صلحاً، وكتب إلى أهلها أمانا، كذلك صالح أهل حران علـى مـثل صلح الرها، ففتحوا أبوابها للمسلمين ثم زحف عياض إلى سميساط فصـالحه أهلها على مثل صلح الرها، وسار إلى نصيبين سنة ١٩هـ ففتحها، كما فـتح قرقيسـيا وسنجار وميافارقين وقرى الفرات وآمد وحصن كفرتوثا وماردين ودارا صـلحاً على مثل صلح الرها وحران والرقة، ثم فتح عياض ارزن صلحاً، وهكـذا تـم تحرير كامل الجزيرة الفراتية بسهولة ويسر[٤٥] فقد ذكر الطبري أن الجزيرة كانت "أسهل البلدان أمراً، وأيسره فتحاً"[٤٦].

المبحث الثاني

فتوح الشام ومصر وبرقة

استكمال تحرير بلاد الشام:

معركة اليرموك:

بعـد هـزيمة الروم في معركة أجنادين، قرر هرقل نقل مقر قيادته من حمـص إلى أنطاكية -شمال بلاد الشام- كما أشرنا سابقاً، وفي الوقت نفسه راح يجهـز جيشـاً ضـخماً قدّرتـه المصادر بما لا يقل عن المائة ألف[٤٧] وقرر أن يقـوده بنفسـه لمهاجمة جيوش المسلمين، وذكر الطبري[٤٨] أن جيش المسلمين كانت عدته ٤٦ ألفاً فمن الأجناد الأربعة ٢٧ ألف ومن خلال خالد بن سعيد ثلاثة آلاف، ومـن إمـداد أهـل العراق مع خالد بن الوليد عشرة آلاف ومن المسلمين الذيـن اسـتمروا تحـت قيادة عكرمة بعد هزيمة خالد بن سعيد ستة آلاف وكان يـتولى قـيادة جيوش بيزنطة، القائد الأرمني باهان وكان يعرف عند البيزنطيين بشـدة بلائـه، وكان من الفرق البيزنطية فرقة الغساسنة، وعرب الشام من قبائل لخم وجذام يتقدمهم جبلة بن الأيهم الغساني، وفرقة من سكان أرمينيا.

تجمـــع الجـــيش الإســـلامي شمالي نهر اليرموك، في سهل واسع يعرف بالواقوصـــة أو الياقوصة، ويبدو أن نظام الجيش الإسلامي بتقسماته الأربعة تحت قـــيادة أربعـــة مـــن القـــواد لم يحظ برضى وموافقة خالد بن الوليد، وكان يرى ضـــرورة توحيد هذه الجيوش بجيش واحد منظم وتحت قيادة واحدة، ليواجهوا به جيش الروم الموحد، فخطب في المسلمين قائلاً: "إن هذا يوم من أيام الله لا ينبغي فـــيه الفخـــر ولا البغي، أخلصوا جهادكم وأريدوا الله بعملكم، فإن هذا يوم له ما بعده، ولا تقاتلوا قوما على نظام وتعبية على تساند وانتشار، فإن ذلك لا يحل ولا ينبغـــي، وإن مـــن وراءكـــم لو يعلم علمكم حال بينكم وبين هذا، فاعلموا فيما لم تؤمروا به بالذي ترونه أنه الرأي من واليكم ومحبته". فسأله المسلمون عن خطته واستشـــاروه الرأي فقال: "إن أبا بكر لم يبعثنا إلا وهو يرى إنا سنتياسر، ولو علم بمـــا كان ويكون لقد جمعكم، إن الذي أنتم فيه أشد على المسلمين مما قد غشيهم، وأنفع للمشركين من إمدادهم، ولقد علمت أن الدنيا فرقت بينكم، فالله الله، فقد أفرد كـــل رجل منكم ببلد من البلدان لا ينتقصه منه أن دان لأحد من أمراء الجنود ولا يـــزيده علـــيه أن دانـــوا له، إن تأمير بعضكم لا ينقصكم عند الله ولا عند خليفة رسول الله ﷺ، هلموا، فإن هؤلاء قد تهيأوا، وهذا يوم له ما بعده إن رددناهم إلى خـــندقهم الـــيوم، لـــم نـــزل نردهم، وإن هزمونا لم نفلح بعدها، فهلموا فلنتعاور الإمـــارة، فليكن عليها بعضنا اليوم والآخر غداً، والآخر بعد غد حتى يتآمر كلكم، ودعونـــي إلـــيكم اليوم" فأمروه على أنفسهم. ثم وزع خالد جيوش المسلمين إلى كـــراديس يـــتراوح عددها ما بين ٣٦ كردوساً وأربعين -كل كردوس يتألف من

ألــف جندي- ثم قسم الكراديس إلى ثلاثة أقسام: ميمنة وعليها عمرو بن العاص، وشــرحبيل بــن حسنة، وميسرة وعليها يزيد بن أبي سفيان، وقلب وأقام عليه أبا عبيدة بن الجراح، ثم ولّى على كل كردوس قائداً من قواد المسلمين أمثال القعقاع ابــن عمــرو وجعله على أهل العراق ومعه عياض بن غنم، وهاشم بن عتبة كل مــنهم علــى كــردوس، كما قدم على فالة خالد بن سعيد دحية بن خليفة وامرئ القــيس ويــزيد بن يحنس وعكرمة بن أبي جهل وزاد الكلاع ومعاوية بن حديج، وقــبل أن يشــتبك المسلمون مع البيزنطيين، قرأ المقداد بن الأسود سورة الأنفال وهي سورة الجهاد(٤٩).

أصــدر خالد بن الوليد أوامره إلى مجنبتي "القلب" بقيادة عكرمة والقعقاع بــالهجوم على الروم وسرعان ما نشب القتال والتحم الجند، وفي هذه الأثناء قدم الــبريد مــن المديــنة فــأبلغ خالد بوفاة أبي بكر ﷺ في ليلة النصف من جمادى الآخــرة ســنة ١٣هـ، وخلافة عمر ﷺ كما أبلغه نبأ عزله عن الإمارة وتولية أبي عبــيدة، فــأخفى خــالد خبر وفاة أبي بكر وأخذ الكتاب من البريدي واحتفظ به لحــين انتهاء المعركة حفاظاً على معنويات المقاتلين.

واصــل المســلمون قــتالهم بقيادة خالد بن الوليد إلا أنهم اضطروا إلى الــتراجع عن خطوطهم ومواقعهم بعد هجوم شنه عليهم البيزنطيون، وقد ثبت كل مــن عكــرمة وعمــه الحــارث بــن هشام أمام الهجوم البيزنطي ولم يتراجعا، وصـــــرخ عكرمة ونادى قومه قائلاً: "من يبايع على الموت" فبايعه الحارث بن هشــام وضــرار بن الأزور في ٤٠٠ من وجوه المسلمين وفرسانهم وقاتلوا أمام

فسـطاط خالد، وثبت المسلمون أمام البيزنطيين فبادر خالد بالهجوم بقلب الجيش، فانهزم فرسان العدو وتركوا مشاتهم تحت رحمة المسلمين، فأذرع المسلمون فيهم بالسـيوف واقـتحموا فـي خـندقهم، فاقـتحمه خالد عليهم، وانهزموا إلى سهل الواقوصـة، فتلقاهم المسلمون بالقتل، وانتهى اليوم بنصر حاسم للمسلمين، أبادوا فيه العدد الأعظم من جيش البيزنطيين، واستشهد من المسلمين حوالي ثلاثة آلاف مـن بيـنهم عكرمة بن أبي جهل وعمر بن مكرمة وضرار بن الأزور، وانحاز جبلة بن الأيهم إلى الأنصار وقال لهم: "أنتم أخوتنا وبنو أبينا" ثم أعلن إسلامه هو وجماعـه مـن قومه(٥٠)، أما هرقل فقد ذهل بما أصاب جيشه من هزيمة ساحقة علـى أيـدي المسلمين ورحل إلى عاصمته القسطنطينية مغادراً أرض بلاد الشام إلى الأبد.

تحرير مدن بلاد الشام:

اسـتثمر المسـلمون انتصارهم الساحق في اليرموك فتقدموا لتحرير بقية أرض الشام ومدنه، وزحف أبو عبيدة بن الجراح إلى دمشق، فنزل بمرج الصفر متتبعاً فلولك الروم، بقيادة باهان، الذين لاذوا بفحل، وبلغه أيضاً أن مدداً بيزنطياً قـد أتى أهل دمشق من حمص، وفي هذه الأثناء جاءه قرار الخليفة عمر ﷺ بأن يـبدأ بـتحرير دمشق لأنها حصن الشام وبيت ملكهم وفي نفس الوقت يشغل أهل فحـل بخـيل تقف بإزائهم، فإذا فتحت دمشق سار إلى فحل فإذا نجح في افتتاحها سار هو وخالد إلى حمص وترك شرحبيل بن حسنة، وعمرو بن العاص بالأردن

وفلسطين ونفذ أبو عبيدة توجيهات الخليفة، فزحف بمعظم الجيش الإسلامي وهاجم مدينة دمشق، وترك على فحل طائفة من المسلمين لمحاصرتها وقد لجأ البيزنطيون المحاصرون في محل إلى إغراق الأراضي حول فحل بالمياه، فوحلت الأرض الأمر الذي أعاق تقدم المسلمين.

أما القوة المهاجمة لمدينة دمشق فقد نجحت في إحكام الحصار حولها، إذ رابط خالد بن الوليد على رأس فرقة من الجيش قوامها خمسة آلاف مقاتل على بابها الشرقي، وعمرو بن العاص على باب توما، وشرحبيل بن حسنة على باب الفراديس، بينما رابط يزيد بن أبي سفيان على الباب الصغير المعروف بباب كيسان، أما أبو عبيدة فقد نزل على باب الجابية، يتجلى وسط هذه المواقف التاريخية الخالدة دور خالد بن الوليد، فقد ذكرت المصادر أنه كان يقظاً لا ينام ولا ينيم ولا يخفى عليه من أمور أهل دمشق شيئاً فانتهز انشغال الروم بأحد احتفالاتهم، وغفلتهم عن حراسة الباب الشرقي، ليقحمها، وكان قد أعد سلالم من الحبال، وبفضل هذه الحبال تمكن نفر من المسلمين من ارتقاء السور، وعندما بلغوا أعلاه كبروا، وفي هذه الأثناء اقتحم خالد الباب الشرقي بعد قتل حراسه، ولما أيقن الروم أن المدينة اقتحمت عنوة من تلك الجهة طلبوا الصلح من أبي عبيدة وفتحوا له باب الجابية، فصالحهم دون أن يعلم بما أنجزه خالد بن الوليد، فتقدم القادة والتقوا في وسط دمشق(٥١) مزهوين بنصرهم المبين.

بعد تحرير دمشق كان لابد من حسم موضوع فحل المحاصرة، وتنفيذاً للخطة التي وضعها الخليفة توجه أبو عبيدة لاقتحام فحل، فجعل خالد بن الوليد

علـــى المقدمـــة، واشـــتبك المســـلمون مع البيزنطيين في معركة انتهت بهزيمة البيزنطييـــن، وحـــرر المســـلمون فحل ثم بيسان وطبرية، من جانب آخر حرر شرحبيل بن حسنة جميع مدن الأردن وتغلب على سواده.

توالـــى بعد ذلك تحرير مدن الشام الشمالية إذ زحف أبو عبيدة وخالد إلى حمـــص، فصـــالح أهلها على مثل ما صالح به أهل دمشق، ثم قصد بعلبك وحماة وشـــيزر فخرج إليه أهلها مسالمين مصالحين، وواصل أبو عبيدة زحفه فسار إلى معـــرة النعمان، وحررها صلحاً، وعهد أبو عبيدة بفتح سواحل سورية إلى عبادة ابـــن الصـــامت ففـــتحها عنوة[٥٢] ثم اقتحم انطرطوس وكانت خالية من سكانها، وحـــرر جبلة عنوة، وأوكل بالحفاظ عليها والدفاع عنها حفظة وحراساً خلال مدة الصيف.

أمـــا أبو عبيدة فقد سار وعلى مقدمته خالد بن الوليد إلى قنسرين، وكانت لتـــنوخ، فـــنجح المسلمون في السيطرة عليها وعلى قراها، بعد دحر الروم وقتل قـــائدهم "ميـــناس"، وصالح أبو عبيدة أهلها على مثل صلح حمص، ثم دعاهم إلى الإســـلام فأســـلم بعضهم، وأقام على النصرانية بنو سليح بن حلوان، ثم تقدم أبو عبيدة إلى حلب وعلى مقدمته عياض بن غنم، فحررها صلحاً، ومن هناك زحف إلى أنطاكية واشتبك مع أهلها فطلبوا الصلح[٥٣].

واصـــل أبو عبيدة تحريره لمدن الشام الشمالية الواحدة تلو الأخرى حتى بلـــغ نهـــر الفرات وسيّر قواده في بعوث إلى مدن منبج ودلوك ورعبان وبالس،

فافتـــتحوها صــــلحاً، ثم عبرت جيوش المسلمين درب بغراس من أعمال أنطاكية إلى بلاد بيزنطة بقيادة ميسرة بن مسروق العبسي، وهو أول من سلك هذا الدرب مـــن المســـلمين، وســـير خالد بن الوليد إلى مرعش فافتتحها وصالح أهلها على الجلاء[٥٤].

تحرير بيت المقدس وسواحل الشام الجنوبية:

مضــــى عمرو بن العاص يحرر المدن الفلسطينية، وتمكن في أمد قصير مـــن الاســـتيلاء علـــى نـــابلس وعمواس وبيت جبرين ويافا ومرج عيون وعكا وعســـقلان وغزة ورفح دون قتال ثم زحف نحو ايلياء (بيت المقدس) وحاصرها زهاء أربعة أشهر، كان خلالها القتال متصلاً وقدم عليه أبو عبيدة بعد أن أتم فتح قنســـرين ونواحيها في سنة ١٦هـ، فاشترط بطريق إيلياء (صفرونيوس) على أبي عبـــيدة أن يأتـــي عمر بن الخطاب ﷺ بنفسه ليتسملها ويوقع معاهدة الصلح خوفاً مـــن أن تـــتعرض كنيستهم العظمى لأعمال التخريب، فقدم عمر بن الخطاب في ســـنة ١٦هـ وعقد عهد الصلح لأهل إيلياء، أورد الطبري نفسه[٥٥]، ولما بعث عهد الأمـــان إلـــى أهل إيلياء ودخلها جند المسلمين شخص عمر إلى بيت المقدس من الحابـــية، وتم تحرير إيلياء على يد عمر بن الخطاب في ربيع الآخر سنة ١٦هـ، أمـــا عمرو بن العاص فقد مضى إلى قيسارية وحاصرها ولم يتمكن من اقتحامها فقد كانت الإمدادات تصلها عن طريق البحر.

كــان يــزيد بن أبي سفيان قد توجه إلى مدن الساحل الشمالي بعد تحرير دمشــق مباشرة سنة ١٤هـ، ولم يأت عام ١٧هـ حتى كان قد أتم تحرير مدن صيدا وعــرقا وجبــيل وبيروت، وهي مدن ساحلية، ولم يلق فيها مقاومة ذات شأن من جانــب ســكان هذه المدن التي جلا معظمهم عنها، وكان يزيد يقيم على الحصن أيامــاً قلــيلة "فــربما قوتل قتالاً غير شديد وربما رمى" وساعده على تحرير هذه السواحل من الوجود البيزنطي أخوه معاوية.

وكانت مدينة طرابلس (الشام) قد استعصت على المسلمين في ولاية يزيد لمناعــتها ووثاقــة تحصــيناتها، فقد ذكر البلاذري أن "يزيد بن أبي سفيان وجه معاويــة إلــى ســواحل دمشق سوى طرابلس فإنه لم يكن يطمع فيها"[٥٦] إذ كان اقتحام طرابلس يتطلب حصاراً من البر والبحر في آن واحد قد يطول أمده، لذلك كــان يزيد يرى أن يرجئ هذا الأمر إلى أن تتوفر له الإمكانيات، وخاصة الخبرة في مجال الحصار البحري، الذي لم تكن للعرب خيرة فيه.

توفــي يــزيد بــن أبــي سفيان في آخر عام ١٨هـ في طاعون عمواس (وعمــواس قــرية مــن قــرى فلسطين) وخلفه أخوه معاوية على ولاية دمشق الساحل، ولم يتهيأ لمعاوية إتمام تحرير طرابلس إلا في خلافة عثمان بن عفان.

تحرير مصر:

ســكن مصــر مــنذ قديم الزمان جنس جمع خصال الساميين والحاميين، وإلى عصر الفراعنة لم يكن فيه إلا أثر ضعيف من الجنس الزنجي، وقد استطاع

هذا الجنس أن يكوّن حضارة تعد من أقدم الحضارات، التي يمتد تاريخها السياسي إلى أكثر من خمسة آلاف سنة قبل الميلاد، ولكن مصر فقدت استقلالها بفتح الإسكندر الأكبر في ٣٣٢ق.م وخضعت بعد ذلك للبطالمة والرومان والبيزنطيين، إلى أن جاءها العرب كمحررين، ومع ذلك فمصر خلال احتلال هذه الشعوب الغريبة عنها، ظلت تكون شعباً منفصلاً في الجنس واللغة والتقاليد.

ومع أن مصر عاشت بدينها الأول آلاف السنين إلى أن اضطرت إلى تركه في ظل الحكم الروماني بسبب تشويهه بما أدخله فيه من عباداته وعبادة ملوكه وأباطرته، ولذلك تحولت مصر منذ وقت مبكر إلى المسيحية التي تنادي ضد الظلم الروماني، وفي جوهرها تشبه ديانتها القديمة، فلعل المسيحية انتشرت في مصر على يد أحد تلاميذ المسيح، وهو القديس "مرقس" كما أنه ظهر فيها قبل أي مكان آخر نظام الرهبنة.

ويبدو أن الديانة المسيحية انتشرت في جميع أنحاء مصر في القرن الثالث الميلادي، بدليل كثرة الروايات التي تتحدث عن اضطهاد الدولة الرومانية وتعذيبها للنصارى المصريين، وحتى بعد أن جاءت بيزنطة -وارثة الرومان في الشرق والتي جعلت المسيحية ديانتها الرسمية- نجد أن المسيحية المصرية تتخذ مذهبا مختلفا -مذهب الطبيعة الواحدة للسيد المسيح- على عكس البيزنطيين الذين قالوا بالطبيعة الإلهية والبشرية للمسيح، أو ما عرف بمذهب الملكانية نسبة إلى الملك أو الإمبراطور البيزنطي. وقد كان هذا الموقف الديني من جانب المصريين، سبباً في أن جعل المسيحية في مصر تواكبها حركة قومية منذ

ظهورهـــا، وخصوصـــاً أن البيزنطييـــن كانوا كالرومان يضطهدون المصريين اليعاقبة، ويزيلون بطاركة كنيستهم ويستحلون سفك دمائهم.

عهـــد الخلـــيفة عمر بن الخطاب ﷺ أمر تحرير مصر بعد إنهاء تحرير بـــلاد الشـــام وفلســـطين إلـــى عمرو بن العاص، أشهر قادة الفتح الإسلامي بعد خالـــد، وكان قد أسلم سنة ثمان للهجرة، واشترك في قمع الردة، كما قاد عمليات تحريـــــر فلسطين المجاورة لمصر، ويوصف هذا الفاتح بأنه كان قصيراً عظيم الهامـــة عـــريض ما بين المنكبين، معروفاً بالدهاء وهو من مظاهر الزعامة عند العرب، وكان عمرو عارفاً بمصر التي دخلها قبل الإسلام.

لقـــد حاولت بعض الروايات أن تجعل فكرة تحرير مصر آتية من عمرو ابـــن العـــاص وحـــده، وأنه أخذ على عاتقه السير إلى مصر على الرغم من أن الخليفة غير راغب فيه، وأنه أرسل إليه كتابا يأمره بالرجوع إلا إذا كان دخل في أرض مصـــر، ولكـــن القـــائد المغامر لم يلق بالاً لأوامر الخليفة واجتاز الحدود المصـــرية ليضع الخليفة أمام الأمر الواقع، ونرى أن هذه الرواية ليس لها أساس واقعـــي وأن قـــرار تحريـــر مصر أتى نتيجة تفكير متأني ومداولات بين الخليفة وقـــواد جيشـــه فـــي مؤتمر الجابية حين مجيئه الشام، لأهمية هذا القرار بالنسبة للدولة العربية الناشئة، ولعل التردد الذي تنسبه بعض الروايات العربية إلى عمر قـــد يكون مبعثه تخوفه على سلامة المسلمين من احتمالات هذا القرار ومخاطره، لقـــد كـــان قـــرار الخليفة وأمره قاطعاً إلى عمرو بن العاص بالتوجه بجيشه إلى

مصـــر بمجـــرد قراءة كتابه، بما يدل على أن خطة التحرير كانت مدبرة من قبل الخلافة ذاتها.

إن مـــن أهـــم أســـباب ظهـــور فكرة تحرير مصر -فضلاً عن العوامل الاقتصـــادية- هي تأمين فتوحات وإنجازات العرب في بلاد الشام، والقضاء على كل محاولة بيزنطية لاستعادة الشام، ولعل التفكير فيه حدث بعد اليرموك مباشرة، فقد كان على العرب يعملون ألف حساب لرد فعل يأتي من الجانب البيزنطي، حيـــث كانـــت جيوشهم موجودة بكثافة في مصر، فضلاً عن انسحاب قواتهم التي كانـــت موجودة في فلسطين إليها، وحتى لا يقع العرب بين فكي كماشة الجيوش البيزنطية في آسيا الصغرى وجيوش مصر.

مـــن جانـــب آخـــر كـــان احـــتلال البيزنطيين لسواحل مصر وما تهيئه لأســـاطيلها مـــن قوة بحرية فيه تهديد للجزيرة العربية نفسها، وفيها مركز الدولة العربية الناشئة، وربما كان العرب أنفسهم يطمعون في احتلال مصر بقصد إنشاء قوة بحرية تمهيداً لمواجهة البيزنطيين في البحر، كما تغلبوا عليهم في البر.

ويمكـــن أن نضـــيف سبباً آخر لظهور فكرة تحرير مصر هو أن مصر كانـــت معـــروفة عند العرب من الذين زاروها منهم قبل الإسلام بثرائها الواسع، فهي في نظرهم المدرة السوداء أي الخصبة، وأنها أكثر من الشام والعراق أموالاً ممـــا يجعـــل من تحريرها من أيدي الروم قوة للمسلمين، وعونا لهم، فضلاً عن إمكان إضعاف بيزنطة بحرمانها من خيرات هذا البلد وموقعه الهام جداً.

سار عمرو بن العاص بجيشه في سنة ١٨هـ في الطريق المحاذي لساحل البحر المتوسط، فوصل إلى العريش ومنها إلى الفرما، وكانت تعرف قديماً بحصن بيلوز، وكان قوم من الروم مستعدين للقتال، فاشتبك المسلمون مع الحامية البيزنطية واستمر حصار المسلمين لها ما يقارب من شهر إلى أن سقطت في أيدي المسلمين[٥٧] وبسقوطها أمن العرب الطريق المؤدية إلى مصر وربطوا بينهم وبين قواعد تموينهم في الشام.

بعد الفرما سار عمرو نحو حصن بابليون دون أن يلقى مقاومة تذكر إلى أن نزل القواصر فدخلها ثم سار إلى حصن بلبيس فقاتل البيزنطيين نحو شهر حتى افتتحها، ثم مضى في طريقه حتى أتى أم دنين وهي قرية تقع إلى شمال حصن بابليون وهناك اشتبك عمرو مع البيزنطيين في قتال عنيف، انتهى بهزيمة الروم، فتحصنوا داخل الحصن، فحاصرهم، وقاتلهم قتالاً شديداً، وكان حصن بابليون من المناعة والحصانة بحيث لا يمكن اقتحام أسواره أو تخريب أبراجه، فلما تعذر على عمرو فتح الحصن وطال الأمر كتب عمرو إلى عمر يستمده فأمده عمر بأربعة آلاف رجل وكتب إلى عمرو: "إن قد أمددتك بأربعة آلاف رجل على كل ألف منهم رجل مقام الألف: الزبير بن العوام، والمقداد بن عمرو، وعبادة بن الصامت، ومسلمة بن مخلد"، ولما طال الحصار على قيرس حاكم مصر أخذ يفاوض عمرو في شروط الصلح وارسل قيرس هذه الشروط إلى

هـرقل فغضـب هرقل وأرسل إلى قيرس وقواد الروم يعنفهم على تخاذلهم أمام العرب، ورفض الروم الصلح واستؤنف القتال من جديد.

وفـي هـذه الأثـناء عمد الزبير إلى اصطناع الحيلة، فوضع سلماً إلى جانب الحصن، ثم صعد معه جماعة، وأمر المسلمين إذا سمعوا تكبيره أن يجيبوه جميعاً، فكـبر الزبـير وكبّر من معه، فأجابهم المسلمون من خارج، فلما سمع البيزنطـيون التكبير لم يشكوا قط في أن العرب قد اقتحموا الحصن، ففر الحراس والمدافعـون عـن تلـك الجبهة، فنزل الزبير وأصحابه إلى باب الحصن ففتحوه فـتدفق المسـلمون فـي الحصن وتم فتح الحصن بعد ما يقرب من سبعة اشهر، وعقد العرب مع المصريين معاهدة تعرف بمعاهدة حصن بابليون الأولى في سنة ١٩هـ/ ٦٤٠م.

وكان لسقوط حصن بابليون أهمية عظمى للفاتحين لأنه كان يعني سقوط مركـز الدفاع الأول في مصر، وتفتح الطريق للزحف إلى الإسكندرية، ويبدو أن قـيرس سـافر إلـى بيزنطة لينقل إلى هرقل شروط المعاهدة، ولكن الإمبراطور رفـض هذه الشروط وطلب من البيزنطيين استئناف القتال وكان عمرو قد استغل فرصـة غـياب قيرس في بيزنطة فاستولى على الفيوم وعين شمس والأشمونين إخمـيم وقـرى الصعيد وعلى تنيس ودمياط ودميرة وغيرها، ثم عبر المسلمون نهر النيل متوجهين إلى الإسكندرية حاضرة مصر(٥٨).

سـار عمـرو إلى الإسكندرية في ربيع الأول سنة ٢٠هـ/ ٦٤٢م بعد أن اسـتخلف علـى حصن بابليون خارجة بن حذافة بن غانم(٥٩) واشتبك عمرو مع

البيزنطيين في عدة مواقع محصنة، كحصن نقيوس الواقعة على الشاطئ الشرقي لفــرع النــيل الغربي، ثم في سلطيس الواقعة على بعد ستة أميال جنوبي دمنهور الحالــية، وانهــزم البيزنطــيون في كل من هذين الحصنين، ثم التقى عمرو مع البيزنطييــن في معركة حصن الكريون، وكان أهم معقل بيزنطي أمام الإسكندرية وكانــت الكريون تشرف على ترعة الإسكندرية التي يعتمد عليها أهل الإسكندرية فــي الســقي ونقــل البضائع، ونشبت بين الطرفين في هذا المكان معركة حامية اســتمرت عدة أيام انتهت بانتصار المسلمين انتصاراً حاسماً فتراجع البيزنطيون علــى أثــرها بعــد أن قــتل عدد كبير منهم، وتحصنت فلول الجيش البيزنطي المــتراجع فــي الإســكندرية وكانت الإسكندرية مدينة حصينة لها أسوار محكمة البناء ولها حصن منيع كان الفرس قد أقاموه خلال حقبة احتلالهم للإسكندرية في شــرق المديــنة مــن جهة الميناء الشرقية، وأدرك عمرو استحالة استيلائه على الإســكندرية لمناعــتها فآثر أن يترك عليها فرقة للرباط ويؤجل اقتحامها لفرصة أخرى بينما توجه لتحرير بقية الوجه البحري(٦٠).

دام حصــار الإسكندرية بضعة أشهر، فلما بلغ ذلك عمر بن الخطاب ﷺ قــال: "مــا أبطــؤوا بفتحها، إلا لما أحدثوا" وذكر ابن عبد الحكم أن عمرو حرر الإســكندرية صلحاً يوم الجمعة لمستهل المحرم سنة عشرين للهجرة، وخلف بها ألــف رجــل من أصحابه، ومضى عمرو من معه في طلب من هرب من الروم إلــى الــبحر، والمــتفق عليه أن عمرو بن العاص حاصر الإسكندرية مدة أربعة

عشـــر شهراً، منها تسعة أشهر بعد موت هرقل، وخمسة قبل ذلك، وأن تحريرها أنجز في أول المحرم سنة ٢١هـ/ ٦٤٢م[٦١].

لابـد من الإشارة إلى أن أهم العوامل المساعدة على تحرير الإسكندرية مـوت هـرقل وضـعف الحكومـة البيزنطـية بعد وفاته، وقيام المنازعات في القسطنطينة من أجل العرش، مما اضطر البيزنطيين إلى التعجيل على إنهاء حالة الحــرب، وذلك بعقد صلح مع المسلمين حتى يتفرغوا لمشاكلهم الداخلية، وقد تم الاتفــاق بيـن الطرفين على أن يدفع أهل الإسكندرية للعرب جزية شهرية وفي مقابل ذلك يتعهد المسلمون بعدم التدخل في شؤون المسيحيين وكنائسهم، والسماح للـيهود بالـبقاء في الإسكندرية، وأن يبقى المسلمون مدة أحد عشر شهراً خارج المديــنة ريثما يبحر عنها الروم، وقد تم جلاء الروم عنها نهائياً في سبتمبر سنة ٦٤٢م.

تحرير برقة وطرابلس:

بعــد تحريــر مصر سار عمرو إلى برقة أو ما يسميه اليونان بنطابوس Pentapolis أي المــدن الخمــس وإلــى طرابلس Tripolis أي المدن الثلاث: وكلاهمـــا عــبارة عـــن صقع كبير يتكون من شريط ساحلي تتوافر فيه الزراعة بسبب سقوط الأمطار في أودية تنساب إلى برك، ولوجود المياه في الآبار، وخلفه صـــحراء مجدية أو جبال، حيث يكوّن جزءا من البلاد الممتدة حتى المحيط، التي كانت تعرف قديماً بلوبية Libya، وللعرب "بالغرب".

وكـــان يســـكن بـــرقة وطـــرابلس عنصر من الناس يُعرف للعرب باسم الـــبربر، لعلهم من أجناس البحر الأبيض أو الجنس الحامي، وهم من نفس الجنس الليبـــي القديـــم الـــذي عرفه الفراعنة، فكانت أغلبيتهم كالعرب يعيشون في قبائل معظمهـــم مـــن البدو الذين يتنقلون بين الوديان والجبال للانتجاع، أما من كان قد اخـــتلطوا مـــنهم بحياة الروم فيسمون بالأفاريق (أي المتحضرين)، وقد كانت أهم قبائل برقة وطرابلس: لواتة وهوارة ونفوسة[٦٢].

بعد أن استكمل عمرو بن العاص تحرير مصر كان من الطبيعي أن يفكر فـــي فتح برقة وطرابلس الغرب لعاملين، الأول: أن برقة كانت تعد امتداداً طبيعياً لمصـــر، وإقليمياً متمماً لها، إذ هي تجاور لوبيا ومراقية، وهما كورتان من كور مصـــر الغربـــية، وكانـــت برقة وطرابلس قد انفصلتا عن ولاية إفريقية منذ عهد الإمـــبراطور البيزنطي موريق (٥٨٢- ٦٠٢م) وأصبحتا رسمياً تابعتين لمصر، وإن كانـــتا في حقيقة الأمر مستقلتين ولما اشتعلت نيران الثورة في المغرب ضد الإمـــبراطور المغتصب فوقاس كانت برقة وطرابلس في مقدمة الولايات المغربية التـــي آزرت جـــريجوريوس على الانفصال عن الإمبراطورية البيزنطية، ولذلك كـــان لابد لعمرو بن العاص بعد أن استكمل تحرير مصر أن يبادر بتحرير برقة وطرابلس تأميناً لحدود مصر الغربية من الخطر البيزنطي.

والعامل الثاني هو رغبة عمرو في تطبيق سياسة الاستمرار في التحرير نحـــو الغرب، وهو أمر يدل عليه سير الفتوحات العربية في الشام ومصر وبرقة

ثـم إفريقـية والمغـرب والأندلـس وجنوبي فرنسا، ولم يكن المحاربون العرب يـزهدون فـي مواصلة القتال بعد انتهائهم من تحرير مصر التماسا للمغانم التي كانـت تعـود علـيهم من الغزو، ولم ينتظر عمرو حتى ينتهي تماماً من تحرير مصـر، ويتفرغ لفتح برقة، فنراه يبادر بإرسال عقبة بن نافع الفهري على رأس حملة استطلاعية إلى برقة "انطابلس" فبعد تحرير مصر في سنة ٢٠هـ وجه عقبة ابـن نافع الفهرس إلى زويلة وبرقة فافتتحمها ويؤيد ابن أبي دينار القيرواني هذه الـرواية في كتابة المؤنس والظاهر أن عمرو بن العاص اطمأن إلى تقرير عقبة ابن نافع عن بلاد برقة فجعل بتسيير جيوشه لتحريرها.

سـار الجـيش الإسلامي غرباً حتى قدم برقة، وكانت وقتئذ أشبه بولاية بربـرية مستقلة عن الدولة البيزنطية، وكان يسكنها بطون من قبيلة لواته البترية وهـي مـن أكبر قبائل البربر شأناً وأشدها بأساً، وكان بربر لواتة ساخطين على البيزنطيين كارهين لحكمهم الجائر، وتعسفهم في جباية الضرائب، كما نقموا منهم لكـثرة مظـالمهم، فعملـوا على التخلص من الحكم البيزنطي، وكانت قد بلغتهم الأخـبار باستيلاء العرب على بلاد الشام ومصر فتطلعوا إلى الخلاص على أيدي العرب، وهذا يفسر مبادرتهم بتقديم بفروض الولاء لجيش المسلمين(٦٣).

بعـد إنجـاز تحريـر بـرقة توجـه الجيش الإسلامي لتحرير طرابلس باعتـبارها مفتاح الدخول لقلب إفريقيا وقد تطلب هذا الأمر تسيير جيشين: الأول يسـير بمحـاذاة سـاحل البحر بهدف الاستيلاء على طرابلس وما يليها من مدن السـاحل، والثانـي يتجه نحو الداخل بقصد السيطرة على الواحات التي ستؤلف

مراكــز المقاومة في قلب البلاد إذا ما تركت وشأنها، فسير عمرو قائده عقبة إلى فزان فحررها ثم واصل زحفه حتى بلغ زويلة وكانت مهمة عقبة –على ما يبدو– هي التأكد من طاعة أهل هذه الواحات أو على الأقل وقوفهم موقفاً حيادياً، ونجح عقــبة في هذه المهمة وأصبحت المنطقة الممتدة بين برقة وزويلة آمنة أمام تقدم المسلمين.

ســار الجــيش الأول قيادة عمرو بن العاص لتحرير إقليم طرابلس ومدن الســاحل الليبي، فبدا بمدينة سرت التي تقع بين برقة وطرابلس، فاستولى عليها، ثــم زحف على مدينة لبدة، وكانت قليلة العمران آنذاك، فاستولى عليها، ثم مضى نحــو طرابلس وكانت مدينة حصينة، أسوارها من جميع الجهات عدا جهة البحر، فحاصــرها شــهراً ولــم يتمكن من اقتحامها لمناعتها. وتشير الروايات الخاصة بتحرير طرابلس أن جماعة من الجيش الإسلامي من بني مدلج فاجؤوا الروم من جهــة ساحل طرابلس بعد انحسار مياه البحر بسبب حركة الجزر ومهدوا السبيل أمام عمرو لدخول طرابلس، وبعد تحرير طرابلس سير عمرو فرقة من الفرسان إلى سبرت (صبراته) فحرروها، كذلك أرسل قائده بسربن أرطأة إلى واحة ودان فحــررها ســنة ٢٣هـ وبذلــك تــم للعرب تحرير برقة والقسم الشرقي من ولاية طرابلس في خلافة عمر بن الخطاب ﷺ[٦٥].

المبحث الثالث

التنظيمات الإدارية في البلاد المفتوحة

بناء المدن الجديدة:

حرص الخليفة الثاني عمر بن الخطاب ﷺ على إقامة قواعد عسكرية في العراق ومصر تكون بمثابة در هجرة للمقاتلين العرب أطلق عليها اسم "الأمصار" أما الشام فلم تنشأ فيه مثل تلك الأمصار لأن الشام كان فيه الكثير من الدور والمدن التي هجرها أصحابها وجلوا عنها فراراً من الحرب، فاستولى عليها العرب واتخذوها سكناً لهم يغنيهم عن بناء دور جديدة.

إن الأساس الذي أنشئت عليه هذه المدن أو الأمصار هو أن تكون قواعد حربية ومعسكرات للجند، إلا أن هذه المدن قدّر لها أن تصبح بعد ذلك مراكز إشعاع فكري وحضاري وديني في قلب الأقطار المحررة، وهذه المدن هي البصرة والكوفة في العراق، والفسطاط في مصر.

تأسيس البصرة:

هناك عدة أدلة تشير إلى فاعلية العوامل العسكرية في اتخاذ مدينة البصرة خلال المرحلة التأسيسية على الأقل، ومن بين هذه الأدلة:

١- تتفق آراء بعض المؤرخين الرواد في أن عتبة بن غزوان قد نزل ومن معه من المقاتلين في بداية الأمر في معسكرات متنقلة، فضربوا أولاً الخيام والقباب والفساطيط، فلم يكن في البصرة بناء لهم، فهي تعكس فكرة أن الموضع الذي نزل به عتبة كان يمثل مخيماً عسكرياً.

٢- حينما نجح عتبة في هجماته رأى أهمية موقع المخيم استراتيجياً في حربه ضد الفرس فكتب إلى الخليفة عمر ﷺ بضرورة اتخاذ هذا الموضع ليجتمع فيه العرب قائلاً ما نصه "لابد للمسلمين من منزل يشتون به إذا شتوا، ويسكنون فيه إذا انصرفوا عن غزوهم".

٣- أن الخليفة عمر ﷺ قبل أن يعطي الإذن بتمصير الموضع اشترط على عتبة أن يوافق هذا الموضع جملة من الشروط والمستلزمات لابد من وجودها وتوفرها فقال له: "لا تجعلوا بيني وبينكم بحراً بل مصروها" أي اختر المكان الذي يقع على الأطراف أو الحدود علاوة على هذا الشرط فإن الخليفة اشترط: "بأن يجمع أصحابه في موقع واحد ويسكن قريباً من الماء والمرعى".

نستخلص أن الهدف من هذه الشروط الثلاثة هو تأسيس معسكر للمقاتلين العرب ليكونوا على اتصال سهل بالمدينة وليكون مكاناً يضم المقاتلين فحسب.

وبالفعل فقد ركز عتبة بن غزوان في جوابه على رسالة الخليفة عمر ﷺ علـــى المميزات الرئيسية التي تميز به الموضع فإنه: قريب من منابع المياه، يقع علـــى طرف البر، يكثر فيه القص والقضة. فوافق الخليفة قائلاً إنها أرض قريبة من المشارب والمراعي والمحتطب.

لقـــد كـــان مـــن المتوقع أن يتخذ عتبة بن غزوان الأبلة قاعدة عسكرية وعاصـــمة إدارية ومكاناً للانطلاق للحملات العسكرية القادمة للحملات العسكرية القادمـــة، فالمديـــنة قديمـــة وتتمتع بموقع وأهمية اقتصادية وتجارية متميزة ولكن عتـــبة لـــم يـــتخذها انطلاقاً من المعايير الرئيسية لاستراتيجية العرب العسكرية، فالأبلـــة ميـــناء تجـــاري محـــاط بالبســـاتين والأنهار، لذلك ستكون هذه الطبيعة الجغرافية عائقاً أمام الوظيفة التي أنشئت من أجلها البصرة.

وأخيراً استقر الرأي على اتخاذ مدينة البصرة لما لها من أهمية من حيث موقعهـــا كمعسكر للفتوحات الإسلامية، وأصبحت فيما بعد من أعظم مراكز العلم والسياســـة والحـــرب فـــي الـــبلاد الإسلامية وأصبح لها شهرة عظيمة في العالم الإسلامي[٦٦].

تمصير البصرة:

كلمة مصر تعني في اللغات الآشورية والعبرية، والآرامية الحدود، ولها في اللغة العربية مثل هذا المعنى، فيقال: "اشتريت الدار بمصورها"، وجاء عن عمر بن الخطاب ﷺ أنه قال: "لا تجعلوا بيني وبينكم بحراً بل مصروها" ويقصد اجعلوها على الحدود، ولكن هذه الكلمة أصبح استعمالها منذ زمن عمر ﷺ يقتصر بصورة خاصة على الأماكن السبعة(*) التي اتخذها العرب قواعد عسكرية يقومون منها بحملاتهم الحربية وفتوحاتهم وجعلوها مراكز لإدارة البلاد والأقاليم التي يفتحوها وقد ظل الطابع العسكري صفة بارزة لهذه الأمصار طوال القرن الأول الهجري.

وتعتبر البصرة أولى الأمصار التي أمر عمر بن الخطاب ﷺ باختطاطها، وأول من مصّر البصرة عتبة بن غزوان في سنة ١٥هـ بأمر من عمر ﷺ، وقد أدرك الخليفة عمر بن الخطاب ﷺ -الذي تمت في عهده أعظم الانتصارات الأولى في الفتوح- أهمية الاستقرار، فأمر في السنوات الأولى من خلافته بتأسيس (أمصار) يستقر فيها المقاتلون وعوائلهم، وتكون قواعد للإدارة ولتحركات الجيوش العربية، ومع أن الغالبية العظمى لسكان هذه الأمصار هم من المقاتلين إلا أن الغرض الأساسي من تأسيسها هو تأمين الاستقرار، وتثبيت نظم إدارية، وتسيير الحياة المدنية، إلا أنها سرعان ما نمت فيها حياة اقتصادية وفكرية عميقة واسعة طغت بمرور الزمن على السمة العسكرية، وأصبحت من

أعظم المراكز الحضرية لا في دول الإسلام فحسب وإنما في العالم المتحضر عموماً.

وفي رواية حول تمصير البصرة (يذكر علي بن المغيرة الأثرم عن أبي عبيدة قال: لما نزل عتبة بن غزوان، الخريبة كتب إلى عمر بن الخطاب ﷺ يعمله نزوله بها، وإنه لابد للمسلمين من منزل يشتون به إذا شتوا وإذا رجعوا من غزوهم لجؤوا إليه، فكتب إليه: "اجمع أصحابك في موقع وليكن قريباً من الماء والمرعى" فكتب عتبة بن غزوان كتاباً يقول فيه: "إني وجدت أرضاً كثيرة القضة في طرف البر إلى الريف ودونها منافع ماء فيها قصباء"، فلما قرأ الكتاب قال: "هذه أرض نضرة، فأنزل بها الناس، وبنوا مساكن بالقصب، وبنوا مسجداً".

وقد اختلف المؤرخون حول زمن تمصير البصرة، فكان نزول المسلمين فيها سنة ١٤هـ، إلا أن تخطيطها لم يتم إلا سنة ١٧هـ ومن هنا نشأ الاختلاف، وذكر ابن الأثير أنها مصرت في سنة ١٤هـ.

إلا أنه يقول: في رواية أخرى (أنها مصرت في ربيع – سنة ١٦هـ) على أن بعض المؤرخين ذكروا أنها مصرت في سنة ١٥هـ، ويقول الهمداني: "ويبدو أن نزول المسلمين أولاً في الخيام، ثم سمح لهم عمر ﷺ باستخدام القصب ثم اللبن، كان سبب الخلاف في تحديد الزمن الذي مصرت فيه".

ويقول البلاذري: "إن أبا موسى الأشعري ولي البصرة سنة ١٦" ويقال سنة ١٧هـ، وثبتت أن أبا موسى ولي البصرة في سنة ١٦هـ وهذا يقتضي أن عتبة أرسل قبل ذلك التاريخ، وتقرب هذه الرواية من ادعاء سيف بن عمر "أن البصرة

مصـــرت فـــي ربـــيع – سنة ١٦هـ، وأن عتبة بن غزوان خرج إلى البصرة من المدائن بعد فراغ سعد من جلولاء وتكريت ولعله وجهه إليها سعد بأمر عمر ﷺ.

ويجـــدر أن نشـــير إلى أن الواقدي يقول: "أنشئت البصرة سنة ١٧هـ من الـــتاريخ، قبل الكوفة بستة أشهر، وأنشئت الكوفة سنة ١٨هـ من التاريخ" ومع أن الـــتاريخ مذكور عن تأسيس البصرة، إلا أنه يوحي بتأخر إرسال عتبة بن غزوان إلى البصرة(٦٧).

لـــم تـــتفق الآراء تمامـــاً حول توقيتات إنفاد عتبة إلى المنطقة، وظهور البصـــرة فضـــلاً عن التناقض في علاقات الوقائع وعرض الظروف التي رافقت التأســـيس ويمكـــن القـــول أن هـــناك مجموعتين مختلفتين من الروايات، الأولى تجعـــــل من سنة ١٤هـ/ ٦٣٥م تأسيس المدينة وأن الخليفة عمر هو الذي أرسل عتـــبة فـــي شهر ربيع الأول من تلك السنة لفتح الأبلة بعد مقتل شريح بن عامر الـــذي كـــان قـــد أول إليه قيادة عمليات المشاغلة والإغارة على القوات الفارسية هـــناك، فمكـــث عتبة عدة أشهر دون قتال، الأمر الذي دفع الخليفة إلى أن يوجه بدـــله عـــبد الرحمن بن سهل، لكنه مات قبل أن يصل البصرة، فانتدَب العلاء بن الحضـــرمي الـــذي كـــان في البحرين ليتوجه إلى البصرة ويحل محل عتبة، وقد توفـــي هذا أيضاً، وفي هذه الأثناء أغار عتبة ففتح الأبلة ثم الفرات وبرقباد، وفي هـــذا السياق نجد رواية أخرى أن الخليفة عمر ﷺ ولى عتبة أمر فتح الأُبلة بعدما بلغـــته أخـــبار قطبة بن قتادة، وما كان يقوم به من غارات على الفرس وما أبداه

وقومــه من مساعدة للقائد خالد بن الوليد عندما اجتاز منطقة البصرة سنة ١٢هـ/ ٦٣٣م متوجهاً نحو الكوفة.

أما المجموعة الثانية من الروايات فتشير إلى أن البصرة أسست سنة ١٦ أو ١٧هـ وأن عتــبة توجــه إلـــى منطقة البصرة بناء على أوامر من القائد العام للجيوش الإسلامية في العراق سعد بن أبي وقاص، وكان تحت إمرته، وكان سعد قد تسلم أمراً من الخليفة عمر بهذا الشأن حول إنفاد عتبة إلى تلك المنطقة، فيذكر الطــبري أن ســنة تمصير البصرة هي ١٦هـ/ ٦٣٧م بينما يحددها اليعقوبي سنة ١٧هـ/ ٦٣٨م، ويقول ابن الفقية أن عتبة نزلها سنة ١٦هـ ومصرها سنة ١٧هـ أما روايــة المســعوي وهي الأقرب إلى الدقة فتشير إلى وقوع حادثين الأولى كانت ســنة ١٤هـ/ ٦٣٥م عــندما وصل عتبة أراضي البصرة وأقام فيها معسكراً مؤقتاً اتخــذه كنقطة انطلاق لغزوات محدودة على التخوم القريبة، والثانية هي تمصير البصرة في شهر محرم سنة ١٧هـ أو في ربيع الأول أو الثاني سنة ١٦هـ.

إن التدقــيق فـــي تلك الروايات يكشف لنا أن هذا التناقض أو الاختلاف هـــو مفــتعل ولا ينسجم وسير الأحداث، وربما أوجدته دوافع وظروف أخرى، ولا يمكــن للمرء أن يتصور أن أصحاب القرار في شبه جزيرة العرب قد فكروا بتأسيس مدينة مستقرة أو (دار هجرية) حضرية، والأمر لم يحسم بعد على أرض العــراق فـــي تلــك المواجهة العسكرية مع الإمبراطورية الساسانية ونعتقد أنه لا يصـــح الحديــث عــن موضوع تأسيس أو تمصير مدينة قبل النصر الحاسم في

القادسية وطرد فلول الجيش الساساني من أرض العراق واستقرار الأمور نهائياً لصالح المسلمين.

يمكننا أن ننتهي إلى أنه كانت هناك لحظتان واضحتان في ظهور البصرة، الأولى تمثلت في الإقامة المؤقتة سنة ١٤هـ بعد معركة البويب مباشر، والثانية هي الإقامة الدائمة المصحوبة بالتخطيط والبناء بعد النصر الحاسم في معركة القادسية، وفراغ العرب من السيطرة على العراق وطرد القوات الساسانية منذ سنة ١٦هـ/ ٦٣٧م، وينسب المؤرخون المسلمون بحق تأسيس البصرة إلى الصحابي عتبة بن غزوان.

تأسيس الكوفة:

كان تأسيس الكوفة إحدى الضرورات الحربية التي اقتضتها طبيعة الفتح الإسلامي لبلاد فارس في زمن عمر بن الخطاب ﷺ فقد اندفع الجيش العربي تحت قيادة سعد بن أبي وقاص بعد فتوح السواد بين المدينة حاضرة الدولة الإسلامية في ذلك الوقت وبين ميدان القتال، فكان من الضروري أن يتخذ الجيش الإسلامي المحارب نقطة ارتكاز له أو معسكراً ثابتاً قريباً من ميدان القتال فأصدر عمر أمره إلى سعد بأن "يتخذ للمسلمين دار الهجرة وقيرواناً" وكان سبب اتخاذها أن المسلمين اتخذوا المدائن قاعدة حربية لهم بعد موقعة القادسية واستمرت كذلك حتى شاهد عمر بن الخطاب ﷺ تغيراً في وجوه من نزلوها

وضعفاً، فسألهم عمر بن الخطاب ﷺ عن سبب ذلك فقالوا: وخومة البلاد غيرتنا، فأمرهم أن يرتادوا منزلاً ينزلون فيه المسلمين.

وقيل: بل كتب حذيفة بن اليمان إلى عمر: أن العرب قد رقت بطونها وجفت أعضاءها وتغيرت ألوانها، وقد كان حذيفة مع سعد، فكتب عمر إلى سعد: "أخبرني ما الذي غيّر ألوان العرب ولحومهم" فكتب إليه سعد: "إن الذي غيرهم أن العرب لا يوافقها إلا ما وافق إبلها من البلدان" فكتب إليه عمر: "أن أبعث سلمان وحذيفة رائدين فليرتادا منزلاً برياً ليس بيني وبينكم فيه بحر ولا جسر" فأرسلهما سعد، فخرج سلمان حتى أتى الأنبار فسار في غربي الفرات لا يرض شيئاً حتى أتى الكوفة.

وكان من العوامل التي دفعت العرب إلى اتخاذها من أجل تكون قاعدة عسكرية للقسم الأوسط من العراق أو دار هجرة وعاصمة للمسلمين بدل المدائن، فسكنتها القبائل العربية، وأيضاً لأن الجيش الفاتح لم يطب له المقام في المدائن عاصمة بلاد فارس فظهر على جنده السقم لاعتيادهم جو الصحراء، حيث سرعان ما كره العرب المدائن لرداءة جوها، وبعث عمر بن الخطاب ﷺ لهم يقول: "إن العرب لا تصلح بأرض لا تصلح بها الإبل" وأيضاً لأن عمر بن الخطاب ﷺ رأى أن لا يتخذوا المدن القديمة منازل لهم حتى لا يتلاشوا فيها، وأمر بثاقب بصيرته أن يبني لهم معسكرا على حدود الجزيرة الشرقية حتى يظل اتصالهم بالجزيرة وحتى لا ينساحوا في البلاد المفتوحة.

وكذلك لأنه عندما نزل سعد الأنبار فاجتوؤها وأصابهم الحمى فكتب سعد إلـــى عمر يخبره بذلك فكتب إلى سعد أنه لا تصلح العرب إلا حيث يصلح البعير والشـــاة في منابت العشب فانظر فلاة في جنب البحر فارتد للمسلمين بها منزلا، وأيضـــاً لأنه عندما نزل المسلمون المدائن وطال بها مكثهم وآداهم الغبار والذباب فـــرؤوا أن يغـــيروا المكـــان والانـــتقال إلـــى مكـــان يناسبهم فنزلوا إلى الكوفة واتخذوهـــــا بلاد والاستقرار بها، وقد اشترط عمر بن الخطاب ﷺ القيام بإنشاء المديـــنة بالقرب من مراكز قديمة هي الحيرة، وأن يراعوا في اختيارها أن يكون مناخها مناخاً صحراوياً وكذلك أن تكون على أطراف المنطقة الزراعية (الريف) ولا يفصلها عن الجزيرة أي حاجز مائي قد يعيق حركة الجند أو الهجرات إليها، وفـــي روايـــة الطبري أنه عندما رجع سعد بالناس من جلولاء قدم عمار وخرج بالـــناس إلى المدائن فاحتوؤها، قال عمّار: هل تصلح بها الإبل، قالوا: لا، إن بها الـــبعوض، قال عمر: إن العرب لا تصلح بأرض لا تصلح بها الإبل، قال: فخرج عمار بالناس حتى نزل الكوفة.

وتختلف الروايات في طريقة اهتداء سعد إلى هذه المنطقة التي اختط فيها الكوفـــة، وأياً ما كانت الرواية الصحيحة فإن النتيجة التي نصل إليها من بين هذه الـــروايات المختلفة هو أن اختيار الموضع الذي قد تم فيه تأسيس الكوفة لم يكن أمـــراً مـــرتجلاً إنما كان بعد نظر طويل وبحث دقيق وهي نتيجة لا تقبل اختلافاً ولا يطعن فيها تعدد الروايات التي انتهت بنا إليها.

أمـــا بصــــدد تـــاريخ تمصـــير الكوفـــة: فهـــناك تبايناً واختلافاً في سنة تمصـــيرهـــا فالـــبعض يجعل تأسيسها في سنة ١٤هـ/ ٦٣٥م وهناك من المؤلفين من جعل سنة تمصيرها سنة ١٥هـ/ ٦٣٦م، وقد ذكر المسعودي أيضاً أن سعد بن أبـــي وقاص قد مصرّ الكوفة في سنة ١٥هـ/ ٦٣٦م[٦٨]. في حين يرى آخرون أن تأسيســـها فـــي ســـنة ١٧ه/ ٦٣٨م، وهم من المؤلفين القدامى ويرى آخرون بأن تأسيســـها ســـنة ١٨هـ/ ٦٣٩م ورأي آخر يشير إلى أنها مصرت في سنة ١٩هـ/ ٦٤٠م، ولكن المتفق عليه أنها مرت بعدة مراحل قبل التمصير النهائي الذي جاء بعد تمصير البصرة، وتم اختيارها وتوزيع خططها في سنة ١٧هـ/ ٦٣٨م.

تأسيس الفسطاط:

أول ثمـــار تحريـــر مصر تأسس الفسطاط فقد ذكر أن عمرو بن العاص كتـــب إلى عمر بن الخطاب ﷺ يستأذنه في ذلك فسأل عمر بن الخطاب ﷺ هل يحـــول بينـــي وبين المسلمين ماء فأجابه عمرو بن العاص نعم يا أمير المؤمنين فكتـــب الخليفة عمر بن الخطاب إلى عمرو بن العاص لا أحب أن تنزل المسلمين مـــنزلاً يحـــول الماء بيني وبينهم فتحول عمرو من الإسكندرية إلى المكان الذي سمى فيما بعد الفسطاط.

بنيت مدينة الفسطاط سنة ٢١هـ وذلك بناء على رغبة أمير المؤمنين على غـــرار البصـــرة والكوفة في العراق، وأصبحت عاصمة البلاد ومركزاً إسلاميا وقاعدة عسكرية يمكن للعرب أن يواصلوا منها التقدم نحو المغرب، وكان عمرو

ابـــن العاص يريد أن يتخذ له حاضرة ليستقر فيها وكان اختيار المكان طبيعياً ولم يكن اختيارا اعتباطياً.

بـــنى عمرو بن العاص أول مسجد للإسلام في مصر وكان يسمى جامع عمرو بن العاص أو (الجامع العتيق).

وذكـــر أن مكـــان المســـجد كان خانا لقيسبة بن كلثوم من بنى سوم سأل عمـــرو قيســـبة فـــي منزله هذا أن يجعله مسجداً فقال قيسبة أني أتصدق به على المســـلمين فســـلمه إليهم واختط مع قومه وبنى الجامع في سنة ٢١هـ وكان طوله خمسين ذراعاً وعرضه ثلاثين ذراعاً.

بنى المسجد على نفس النسق الذي بنى عليه مسجد النبي عليه السلام في المديـــنة وإلـــى جانب المسجد الجامع بنى عمرو بن العاص دار الإمارة ثم قسم الأرض فـــيما حول المسجد ودار الإمارة إلي خطط ووزعها على القبائل العربية التـــي استقرت في المدينة وأصبح المسجد مع مرور الوقت موضع عناية الولاية والأمراء فأخذ يزداد في حجمه ومكانته.

وقـــام العـــرب بحفر القناة التي تصل النيل بالبحر الأحمر فسارت السفن من مصر إلى الحجاز وسميت بخليج (أمير المؤمنين) كما فتحوا الترع والجداول التي أهملها الرومان وأصلحوا طرق المواصلات فتحسنت حال الفلاحين.

وبخصـــوص تســـمية الفســـطاط فقد تعددت الآراء في تسمية هذا المكان بالفســـطاط، فالرأي الأول يعتمد على قصة اليمامة، وأن عمرو بن العاص عندما

أراد التوجه لتحرير الإسكندرية أمر بنزع فسطاطة (الخيمة) فإذا به يمامة قد باضت بيضها، فقال عمرو: تحرم علينا فأقرها هو عليه وأوصى به حتى تفرخ اليمامة وتطير صغارها.

وعند رجوع المسلمين من الإسكندرية بعد أن أوصاهم عمر بن الخطاب ﷺ عدم البقاء في مكان يحول الماء فيه بينه وبينهم فقالوا أين ننزل؟

قالوا: الفسطاط يعنون فسطاط عمرو بن العاص الذي خلفه بمصر، وهناك رأي آخر أن كل مدينة فسطاط ولذلك قيل لمصر فسطاط وإنها كلمة تعني المدينة.

والرأي الثالث يقول أن كلمة الفسطاط قد أخذت من الكلمة الإغريقية Fessatum بمعنى المدينة وأن العرب نقلوها عن اليونان عند اتصالهم بها وأصحاب هذا الرأي غالبيتهم من مؤرخي الفرنجة، وفريق آخر يقول أن كلمة الفسطاط تعني المعسكر(٦٩).

كانت هذه الأمصار ثمرة من ثمار حركة التحرير العربية الإسلامية التي انطلقت من شبه جزيرة العرب في القرن السابع الميلادي، وقدّر لهذه الأمصار أن تلعب دوراً هاماً في الحياة السياسية للدولة العربية الإسلامية، وأن تصبح مراكز علمية هامة في العصر الإسلامي، حتى قيل أن تاريخ العرب السياسي والاجتماعي والحضاري خلال القرون الأولى للهجرة كان تاريخ هذه المدن والأمصار، والملاحظ في بناء هذه المدن الإسلامية أن العرب حرصوا عند تخطيط هذه المدن أن تكون داخل البلاد بعيداً عن السواحل حتى لا تتعرض

للغـزوات الـبحرية، كمـا راعوا فيه أيضاً أن يتوفر فيها ما يتناسب مع حياتهم الـبدوية مـن مراعي الإبل وما يصلح لها، وفي ذلك يقول ابن خلدون: "... وقد يكون الواضع غافلاً عن حسن الاختيار الطبيعي، أو إنما يراعي ما هو أهم على نفسـه وقومـه، ولا يذكر حاجة غيرهم، كما فعله العرب لأول الإسلام في المدن التـي اخـتطوها فـي العراق وأفريقيا، فإنهم لم يراعوا فيها إلا الأهم عندهم من مراعـي الإبـل ومـا يصلح لها من الشجر والماء والملح ولم يراعوا الماء ولا المـزارع ولا الحطـب ولا مراعـي السـائمة مـن ذوات الظلف ولا غير ذلك كالبصرة والكوفة والقيروان وأمثالها"(٧٠).

ولابـد من الإشارة إلى مسألة على جانب كبير من الأهمية تتعلق بإدارة الـبلاد المحـررة والمفـتوحة وهي إقرار عمر بن الخطاب ﷺ الاحتفاظ بالنظم الإداريـة السـابقة علـى الإسلام في تلك البلاد حتى لا تضطرب الأمور وتسود الفوضـى، فضـلاً عـن عدم توفر الكفاءات العربية اللازمة للإدارة خاصة في الأمور الكتابية وشؤون الخراج وجبايته، وقد استبعد المسلمون من هذه النظم كل ما لا يتفق مع تقاليد العرب ومبادئ الإسلام الحنيف.

التنظيمات المالية:

الديوان:

أدت الفـتوحات الإسـلامية في بلاد الشام والعراق إلى ضرورة استقرار الجند، وإقامة معسكرات في البصرة والكوفة في العراق اللتان أمر ببنائهما لتكونا معسـكرات دائمة للفاتحين وقاعدتين حربيتين -كما أشرنا- لكي يتم من خلالهما توجـيه الجـيوش إلـى بلاد فارس، هذا بالإضافة إلى كونهما مراكز لنشر الدين الإسـلامي والحضـارة الإسلامية في بلاد فارس، وكان المسلمون يحاربون حتى زمـن الخلـيفة عمر بن الخطاب ﷺ بدون عطاء أو رزق معين، بل كانوا كلما غـزوا بلداً أخذوا نصيبهم من الفي والغنيمة، وعندما تعاقبت الفتوحات الإسلامية وازدادت الدولـة فـي الاتسـاع أصبح هذا النظام قديماً، فكان من الواجب عندئذ تطبيق نظام جديد، ومن هنا أقر عمر بن الخطاب نظام الديوان.

وذكـر ابـن خلـدون في مقدمته أن: "من الوظائف المهمة للدولة وظيفة الدواويـن وهي القيام على أعمال الجباية وتسجيل مخصصات الدولة في الداخل والخـارج وتعداد الجنود وتسجيل أسمائهم وتقدير مرتباتهم وصرف مكافآت لهم والعودة في ذلك إلى القوانين التي يتصفها رعيته، تلك الأعمال جميعها مدونة في كتاب شاهد بتفاصيل ذلك من الداخل والخارج يعتمد على جزء كبير من الحساب لا يقـوم بـه إلا الموظفيـن المهـرة من أهل تلك الوظائف ويسمى ذلك الكتاب بالديوان"(٧١).

فـــالديوان وضع لحفظ كل ما يختص بحقوق البلاد من الأعمال والأموال ومـــن يقـــوم بهـــا من الجيوش والعمال، وبهذا المفهوم لم يكن للديوان وجوداً في زمـــن الرســـول ﷺ أو الخلـــيفة الأولى أبي بكر الصديق ﷺ ذلك أن الرسول ﷺ وكذلـــك الخلـــيفة أبي بكر لم يفرض أي منهما عطاء مقرراً للمسلمين، بل كانوا يأخذون نصيبهم من الغنائم بحسب ما قررته الشريعة، وإذا ورد إلى المدينة شيء قسمه النبي عليهم في المسجد.

وقد تعددت الآراء في أصل كلمة ديوان فمنها من يقول أنه عربي ومعناه الأصـــل الـــذي يـــرجع إلـــيه ويعمـــل بها جاء فيه، ومنها قول أنت عباس: "إذا ســـألتموني عـــن شـــيء من غريب القرآن فالتمسوه في الشعر فإن الشعر ديوان العرب"، ويقال دونته أي أثبته وإليه يميل كلام سيبويه.

أمـــا السؤال الذي يطرح نفسه هنا هو كيف عرف العرب الديوان؟ مما لا شـــك فـــيه أن الخليفة عمر بن الخطاب ﷺ يعد واضع أسس الحكم الإسلامي من الناحـــية العملـــية، ويســـتدل على ذلك بقول المؤرخين: إن عمر أول من وضع الديـــوان أو دوّن الدواويـــن، وقـــد كان أغلب موظفي الدواوين من أهالي البلاد المفـــتوحة لأن معظـــم العرب خاصة في أول أمرهم، لم يكونوا يعرفون القراءة والكتابة إلا في حالات قليلة.

لهـــذا لم يشترط عمر بن الخطاب في الكتاب أن يكونوا عرباً أو مسلمين وقـــد أنشـــأ عمر بن الخطاب الديوان في سنة ٢٠هـ بعد فتح بلاد الشام والعراق

لـــيكون ســـجلاً يحـــوي قائمة بأسماء الجنود المقاتلين وأنسابهم وأعطياتهم، وكان الديـــوان مفتوحاً للعرب جميعاً متى التحقوا بالمقاتلين في المراكز التي خصصت لهم.

ولـــم يكن للجند عطاء معين زمن الرسول ﷺ بل كان يجري تقسيم الغنائم خمســـة أقســـام، واحد منها للرسول ﷺ وأربعة أخماس تقسيم بين رجال الجيش، وكذلـــك كـــان الحـــال زمن أبي بكر كما سبق الإشارة كذلك، فلما جاء عمر بن الخطاب لم يأخذ بمبدأ التسوية في العطاء بل وضع للجند ديواناً رتبهم فيه.

ويشـــير الطـــبري إلى أن عمر بن الخطاب فرض لأهل الفيء للذين أفاء الله علـــيهم مـــن ســـكان المدائـــن والقادسية وبلاد الشام الذين انتقلوا إلى الكوفة والبصـــرة ودمشـــق وحمـــص والأردن وفلســـطين ومصر، وقال: "الفيء لأهل هـــؤلاء الأمصار لمن لحق بهم وأعانهم وأقام معهم ولن يفرض لغيرهم"(٧٢).

وتعـــددت الآراء في سبب وضع الديوان، فأرجعه ابن خلدون في مقدمته لســـبب أنـــا مـــالاً جاء به أبو هريرة رضي الله عنه من البحرين فسأله عمر بن الخطـــاب ﷺ عن قيمته فأخبره أنها خمسة آلاف ألف درهم فاستكثروه وتعبوا في قسمه إلى إحصاء الأموال وخبط العطاء والحقوق، فأشار خالد بن الوليد بالديوان وقـــال: لقـــد رأيت ملوك الشام يدونون فوافقه عمر في ذلك ثم دعا عقيل بن أبي طالـــب ومخـــرمة بـــن نوفل وجبير بن مطعم، وكانوا من شباب قريش، وأمرهم بكتابة الناس على منازلهم.

وفي رواية أخرى أن عمر بن الخطاب ﷺ استشار الصحابة فيما فعل بالأموال الكثيرة هذه فكان قول الإمام علي بن أبي طالب إليه أن تقسم كل سنة ما اجتمع إليك من مال فلا تمسك منه شيئاً، وقال عثمان بن عفان: أرى مالاً كثيراً يكفي الناس، وإن لم يحصوا حتى تعرف من أخذ ممن لم يأخذ، وذلك مخافة أن ينتشر الأمر وهذه الرواية تشير على أن نشأة الديوان تعود إلى أصول عربية.

وذكر بعض الإخباريين في رواية أخرى أن عمر بن الخطاب ﷺ حين شاور الصحابة في تدوين الدواوين قال: "رأيت أنه لم يبق شيء يفتح بعد أرض فارس، وقد غنمنا الله أموالهم وأرضهم وعلوجهم، فقسمت ما غنموا من أموال بين أهله ..." فأيده الصحابة فيما قال.

فدعى مجموعة من رجالات قريش وأمرهم بكتابة الناس على منازلهم فبدؤوا ببني هاشم ثم اتبعوهم أبا بكر وأهله وعثمان وأهله ثم عمر بن الخطاب وأهله ودونوا القبائل ووضعوها على الخلافة، ثم رفعوا ما تم تدوينه إلى الخليفة عمر، فرفض ذلك، وأمر أن تكون البداية بقرابة رسول الله الأقرب ثم الأقرب فرتبوا الناس طبقات مبتدئين بالعباس عم الرسول ﷺ ثم بني هاشم ثم من يليهم من قبائل قريش بطن بعد بطن حتى يستوفي جميع قريش، ثم قام بتدوين الأنصار، فبدأ برهط سعد بن معاذ من الأوس ثم الأقرب فالأقرب لسعد.

وقد قيل أنه بدأ بمن شهد بدر من المهاجرين والأنصار لكل رجل خمسة آلاف درهم في كل سنة ومعهم أحلافهم ومواليهم على السواء، وفرض لمن له

إسلام كإسلام أهل بدر، وكذلك من هاجر إلى الحبشة ممن شهد معركة بدر أربعة آلاف درهم لكل رجل، وفرض لمن شهد فتح مكة وقاتل قبل معركة القادسية ثلاثة آلاف، ولأهل القادسية والشام ألفين ألفين، وفرض للعباس بن عبد المطلب خمسة آلاف لقرابته برسول الله ﷺ، وفضل على من شهد معركة بدر أزواج الرسول فجعل لكل منهن عشرة آلاف ما عدا السيدة عائشة ففرض لها اثني عشر ألفاً، ثم فرض للناس على منازلهم وقراءتهم القرآن وجهادهم، ولم ينقص أحداً عن ثلاثمائة ولم يغفل الديوان حق من أسلم من العجم في العطاء.

وبهذا نلاحظ أن القاعدة التي اتبعها عمر مقياساً لتوزيع العطاء فكانت لها خلفيات متصلة بمبدأ أساسه النسب والقرابة برسول الله ﷺ ثم بمبدأ الأسبقية في الإسلام أو المشاركة في أحداثه التاريخية البارزة خاصة المعارك الأولى[٧٣].

وأنشئت في زمن عمر بن الخطاب عدة دواوين أخرى غير ديوان العطاء منها ديوان القضاء ودواوين الإحصاء والخراج والمحاسبة التي لم تكن من المؤسسات الموجودة قبل زمنه فأنشأ البريد وبيت المال ومرابط الثغور، ووكل معظم الدواوين إلى أبناء البلاد يزاولونها بلغاتهم لأنها ليست من أسرار الدولة، وليس من أن يقوم بها العرب لأن أولى بهم فرائض الدفاع والجهاد، فلو وجد منهم من يتقن لتلك الأعمال لكانت خسارة الدولة في قيامهم بها أكبر من ربحها، ولكنهم غير موجودين ولا عملهم فيها باللازم للمصلحة الكبرى، وقد يكون عمل السوري من مصلحة سورية، والعراقي من مصلحة العراق أجدر.

العملة:

لم يكن للعرب عملية خاصة بهم قبل الإسلام وذلك لعدم وجود نظام دولة فـــي منطقة الحجاز بالمعنى المعروف للدولة، لذلك أبقى الخليفة عمر بن الخطاب ﷺ علـــى نظـــام العمـــلات المتداولة في البلاد المحررة والمفتوحة وهي عملات فارســـية فـــي العـــراق والمشرق وورومية في الشام وشمال أفريقيا وحميرية في اليمـــن، وهـــي عمـــلات كان يتعامل بها العرب قبل الإسلام وفي صدر الإسلام، ومـــن المعـــروف أن الرســـول ﷺ أقر "العملة" على ما كانت عليه وأن المسلمين كـــانوا يـــتعاملون فـــي عصر الرسول بهذه العملات لأنه لم يكن من اليسير على العـــرب فـــي هـــذه المرحلة أن يسكوا عملات جديدة لأنفسهم في ظروف دولتهم الناشئة تلك، بينما يرجع ابن خلدون ذلك إلى "سذاجة العرب وبداوتهم"[٧٤].

لقـــد تعامل العرب في الحجاز تجارياً مع البيزنطيين والفرس، وكان من الطبيعـــي أن يستخدموا عملات هذين الشعبين في معاملاتهم معهم، وهي الدرهم الساســـاني (الفضـــي)، والدينار البيزنطي (الذهبي)، واستمر التعامل بها في زمن الرسول ﷺ وكذلك في خلافة أبي بكر الصديق ﷺ.

وبعـــد تحريـــر بـــلاد الشـــام والعراق ومصر وبرقة في زمن عمر بن الخطاب ﷺ وانسياح العرب الفاتحين في هذه البلاد وإدارتها لم يفكروا في تغيير الســـكة ذات النقوش المسيحية (البيزنطية) أو تغيير السكة ذات الطابع المجوسي (الساســـانية) ما دامت هذه السكة مألوفة لديهم وما دامت تؤدي الغرض منها بين

الغالبين والمغلوبين، وما دام الإبقاء على هذه العملات يساعد على استقرار البناء الاقتصادي في الدولة العربية الإسلامية، لذلك كان قرار عمر الإبقاء على هذه العملات الفارسية بنقوشها البهلوية والبيزنطية بنقوشها اليونانية، ومع ذلك فقد حرص عمر بن الخطاب ﷺ على إضافة بعض النقوش والكتاب العربية ذات المعاني الإسلامية مثل "الحمد لله" و"محمد رسول الله"، كما أضاف على نقوش الفلوس البرونزية المضروبة في دمشق كلمة "جايز" وعلى الفلوس المضروبة في حمص كلمة "طيب" أو "وافٍ" إشارة إلى الوزن الصحيح، والملاحظ أن أسماء المدن كانت تنقش باليونانية والعربية معاً كدمشق وحمص وطبرية وبعلبك وإيليا وقنسرين[٧٥].

نظام الضرائب:

من جانب آخر أقر الخليفة عمر بن الخطاب ﷺ النظم المالية الساسانية في العراق وفارس بينما أقر النظم البيزنطية في الشام ومصر، وكان ذلك سبباً في الاختلاف الواضح بين أحكام الجزية والخراج وعشور الأرض وعشور التجارة في العراق عنها في الشام ومصر، وقد حمل على إيجاد هذا الاختلاف، اختلاف لغات الدواوين فيما بينها في الأراضي المفتوحة، وكان من الصعب جداً في تلك الظروف والتطورات المتسارعة أن يقدم الخليفة عمر ﷺ على نقل هذه الدواوين إلى اللغة العربية ويستخرج منها نظاماً موحداً يعرضه على الدولة العربية كلها.

وأهم الضرائب في هذه المرحلة هي: الخراج والجزية، والخراج هو ما وضع على الأرض من حقوق تؤدى عنها ويختلف مقدار هذه الضريبة باختلاف ما صولح عليه المقلوبون من أرضهم عنوة أو صلحاً بغير قتال، مع مراعاة نوعية الأرض بالنسبة للزروع تزيد أو تقل من المحاصيل والغلات، ونوعية الزروع، ونوعية السقي سواء بالأمطار أو الدوالي أو السقي السيحي المباشر من الأنهار(٧٦).

أما الجزية فضريبة على الرؤوس يلتزم بها أهل الذمة من النصارى واليهود والمجوس والصائبة، اسمها مشتق من الجزاء، ولا تجبى من النساء والصبيان والشيوخ أو من العبيد، وكانت قابلة للتعديل بحسب حالة الشخص، وقد فرضت الجزية على أهل الذمة مقابل تعهد المسلمين بالدفاع عنهم وحمايتهم وعدم انخراطهم في الجيش الإسلامي.

بيت المال:

في خلافة عمر بن الخطاب أُنشئ بيت المال، وكان الهدف منه حفظ الأموال الفائضة عن حاجة الجند، ثم تطور نظام بيت المال وتعددت موارده، وكانت هذه الموارد تعتمد أساساً على الزكاة أو الصدقات التي تفرض على المسلمين وتعد رصيداً مالياً للإنفاق على الفقراء والمساكين وأبناء السبيل، وفي الرقاب وفي سبيل الله.

وفــي أعقاب النجاحات التي تحققت في حركة الفتوح في زمن عمر ﷺ حــدث تطــور هام في نظام بيت المال ومصادره، فأصبحت موارده من الفائض من مال الخراج والجزية والعشور بعد استبعاد النفقات العامة ونفقات الجيش، كما ضــمت إليه الأراضي التي جلا عنها أهلها وأملاك العائلة الساسانية الحاكمة في فارس بعد سقوط دولتهم، وسميت بالصوافي(٧٧).

تنظيمات إدارية أخرى:

القضاء:

الشــؤون القضــائية في البلاد المفتوحة كان يشرف عليه بالنسبة للعرب رجــل دين يسمى "القاضي" وإن كان عليه أن يشرف على الفيء والغنائم أيضاً، أمــا الشــؤون الخاصة بالقضايا بين الرعية يشرف عليها رجال الدين من أهالي البلاد المفتوحة، ولا ريب أن القضاء لم يبلغ مبلغ القوة كما بلغه في خلافة عمر، بحيث أنه كان من الجائز أن يشكو أحد الرعايا عامل الخليفة للخليفة(٧٨).

التاريخ الهجري:

كذلك يرجع الفضل في تنظيم مسألة التاريخ الهجري، فالعرب كانت تتبع تواريــخ مخــتلفة علــى حسب الأحداث التاريخية المهمة مثل: يوم الفيل والسيل والعــرم، لكــن بمجيء الإسلام وقع اختيار المسلمين على سنة هجرة النبي إلى المديــنة ســنة ٦٢٢م مبدأ لتقويمهم، لأن تاريخ البعثة مختلف فيه، كما أن وفاته

كانـــت تثـــير الحـــزن والشجن، مما حدا بهم إلى اختيار الهجرة لأنها حدث فرق بيـــن الحق والباطل ومنعرج كبير في التاريخ الإسلامي لم يختلفوا في تاريخه.

ومـــع ذلـــك فمن المؤكد أن التاريخ الهجري لم يتخذ أساساً للتقويم إلا في خلافـــة عمـــر بن الخطاب ﷺ حوالي سنة ١٧هـ/ ٦٣٨م والذي دعاه إلى ذلك هو أن الخلافـــة الإسلامية كانت قد اتسعت واحتاج الخليفة إلى مخاطبة الولاة وتأريخ كتـــبهم إلـــيهم، أما قبل ذلك في عصر الرسول وأبي بكر فكان يؤرخ بسني إقامة النبي في المدينة.

وقـــد اتخـــذ العـــرب لتاريخ الهجرة السنة القمرية وهي التي وردت في القرآن الكريم عدة مرات "هو الذي جعل الشمس ضياء والقمر نوراً وقدّره منازل لـــتعلموا عـــدد السنين والحساب"(٧٩). وعلى الرغم من أن الهجرة كانت في ربيع الأول فـــإن المسلمين اختاروا شهر المحرم بداية لتاريخهم لأنه شهر حرام، ولأنه أول الشـــهور في العدة ومنصرف الناس من الحج، فكانت شهور التقويم بالترتيب الآتـــي: (المحـــرم، صـــفر، ربـــيع الأول، ربيع الآخر، جمادى الأولى، جمادى الآخـــرة، رجـــب، شـــعبان، رمضان، شوال، ذو القعدة، وذو الحجة) ولأن الليل ســـابق الـــنهار اتخـــذ الـــتاريخ الهجري الليالي أساس التوقيت، لذلك ظهر عند الـــعرب بعض التعبيرات الخاصة بهم منها: أول ليلة في الشهر أو العام، أو لليلة خلت، أو لثلاث خلون من الشهر... الخ.

هوامش الفصل الثاني

١- محمود الدرة، معارك العرب الكبرى، بيروت، ١٩٦٤، ص٣٣٢.

٢- البلاذري، ص٣٥٤- ٣٥٥.

٣- شــكري فيصل: حركة الفتح الإسلامي في القرن الأول، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٨٢، ص٧١.

٤- البلاذري، ص٣٥٥، الطبري، ج٣، ص٦٧.

٥- الطبري، ج٣، ص٦٧.

٦- البلاذري، ص٣٥٦.

٧- المصدر نفسه، ص٣٥٨، ابن الأثير، ج٢، ص٣٦٢.

٨- شكري فيصل، ص٧٨.

٩- معجم البلدان، ج٣، ص٤٤- ٤٥.

١٠- ابن الأثير، ج٢، ص٣٦٨.

١١- لذلك يطلق عليهم "البارثيون" أيضاً.

١٢- ابن الأثير، ج٣، ص٤٥١- ٤٥٢.

١٣- محمد خالد، أعلام الصحابة المجاهدون، دار القلم، القاهرة، ١٩٦١، ص ٣٢.

١٤- ابن أعثم الكوفي، الفتوح، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٦، ج٣، ص ١٩٥.

١٥- محمود الدرة، ص٣٥٢ – ٣٥٤.

١٦- ابن الأثير، ج٣، ص٤٥٣.

١٧- سيف الدين الكاتب، المثنى بن حارثة الشيباني، ط٨، دار اقرأ، بيروت، ١٩٩٢، ص٧٥- ٧٦.

١٨- انظر: محمود الدرة، ص٣٥٥- ٣٥٧.

١٩- أحمد عادل كمال، القادسية، ط٩، بيروت، ١٩٨٩، ص٣٩.

٢٠- ابن الأثير، ج٣، ص٤٥٦- ٤٥٧.

٢١- الدنيوري، أبو حنيفة أحمد بن داود، الأخبار الطوال، تحقيق عبد المنعم عامر، القاهرة، د.ت ص١٢١- ١٢٢.

٢٢- ابن الأثير، ج٣، ص٤٥٧.

٢٣- محمود الدرة، ص٣٧٠- ٣٧١.

٢٤- ابن الأثير، ج٣، ص٤٥٧.

* - تاريخ هذه المعركة مختلف عليه فالطبري وابن الأثير يجعلونها في المحرم، سنة ١٤هـ، وإن كان كل منهما يشير إلى احتمال وقوعها في سنة ١٥هـ وربما في سنة ١٦هـ، ولكن أرجح الآراء تؤكد أن المعركة كانت سنة ١٥هـ/ ٦٣٦م.

٢٥- الذهبي، تاريخ الإسلام، دار الكتاب العربي، بيروت ١٩٨٧، ج٣، ص ١٤٣.

٢٦- ابن الأثير، ج٣، ص٤٧٣- ٤٧٤.

٢٧- الطبري، ج٣، ص٥٦٣-٥٧٤، ابن الأثير، ج٣، ص٤٧٥.

٢٨- محمود الدرة، ص٣٨٢- ٣٨٣.

* – ويقصـــد بها على ما نعتقد تركيز بعض الأخشاب في الماء ليستريح عليها السابح.

٢٩- الدنيوري، ص٩٦.

٣٠- الدخان: ٢٥.

٣١- الدنيوري: ٩٦- ٩٨.

٣٢- المصدر نفسه، ص٩٨-٩٩، محمود الدرة، ص٣٨٩.

٣٣- الطبري، ج٤، ص٣٥- ٣٧.

٣٤- المصدر نفسه ص٣٨.

٣٥- محمود الدرة، ٣٩٧، أبو زيد شلبي، خلفاء راشدون، دار الكتاب العربي، القاهرة، ١٩٦٨، ص١٢٦- ١٢٧.

٣٦- البلاذري، ص٣٦٤.

٣٧- الذهبي، تاريخ الإسلام، ج٣، ص٩٩.

٣٨- المصدر نفسه، ص٩٩- ١٠٠.

٣٩- الدنيوري، ص١٢٨ – ١٢٩.

٤٠- المصدر نفسه، ص١٢٩.

٤١- الدنيوري، ص١٣٠- ١٣٤، ابن الأثير، ج٤، ص٤-٧.

٤٢- الطبري، ج٤، ص١٢٠، الدنيوري ص١٣٧، البلاذري ٣٧٥.

٤٣- البلاذري، ص٣٧٧.

٤٤- الدنيوري، ص١٣٩- ١٤٠.

٤٥- البلاذري، ص٢٦٠ وما بعدها.

٤٦- الطبري، ج٤، ص٥٤.

٤٧- البلاذري، ص٢١٨.

٤٨- الطبري، ج٤، ص٣٢.

٤٩- المصدر نفسه، ج٤، ص٣٤، ابن الأثير، ج٢، ص٤١٢.

٥٠- البلاذري، ص٢٢١.

٥١- ابن الأثير، ج٢، ص٤٢٨، البلاذري، ص٢٢٢.

٥٢- البلاذرين ص٢١٤.

٥٣- المصدر نفسه، ص٢١٥.

٥٤- ابن الأثير، ج٢، ص٤٩٦.

٥٥- الطبري، ج٤، ص١٥٩.

٥٦- البلاذري، ص٢٢٧.

٥٧- أنظر: ابن عبد الحكم القرشي، ص٨٠ وما بعدها، البلاذري ٢٤١ وما بعدها.

٥٨- ابن عبد الحكم، ص٨٥ وما بعدها.

٥٩- البلاذري، ص٢٥٩.

٦٠- ابن عبد الحكم، ص١٠٦.

٦١- المصدر نفسه، ص١١٤.

٦٢- المصدر نفسه، ص١٣٠- ١٧١.

٦٣- ابن عذارى المراكشي، البيان المغرب، تحقيق ليفي بروفنسال، بيروت، ١٩٥٠، ط١ ج١.

٦٤- ابن عبد الحكم، ص٢٣٠- ٢٣١.

٦٥- البكري، معجم ما استعجم، ص١٢.

٦٦- البلاذري ٣٣٦- ٣٤١، الطبري، ج٤، ص١٤٨، المقدسي، ص١١٧.

* - وهـي: المدينـة، الشـام، مصـر، الجزيـرة الفراتية، البحرين، الكوفة، والبصرة.

٦٧- الطبري، ج٣، ص٢٩٠، البلاذري، ص٣٤١، ابن الأثير، ج٣، ص١٢٥ . الطبري، ج٣، ص٢٩٣، المسعودي، ج٣، ص٦١١.

٦٨- ابن عبد الحكم، ص٨٩، ابن الأثير، ج٣، ص٥٦٤.

٦٩- المقدمة، ص٦٢٠.

٧٠- المصدر نفسه، ص١٩٢.

٧١- الطبري، ج٣، ص١٦٣.

٧٢- انظر: أبو يوسف، كتاب الخراج، ص٤٤، البلاذري، ص١٩٢، الطبري، ج٤، ص١٦٤.

٧٣- ابن خلدون، المقدمة، ص٤٦٢.

٧٤- عبد الرحمن، فهي، النقود العربية، القاهرة، ١٩٦٤، ص٢٨.

٧٥- أبو يوسف، الخراج، ص٣٧، ٤٨.

٧٦- المصدر نفسه، ص٥٧.

٧٧- ابن الأثير، ج٢، ٣٣١.

٧٨- يونس: ٥.

الفصل الثالث

خلافة عثمان بن عفان رضي الله عنه

المبحث الأول: نشأته، بيعته بالخلافة، سياسته

المبحث الثاني: فتوحاته وأهم أعماله

المبحث الثالث: الفتنة ومقتل سيدنا عثمان

المبحث الأول

نشأته وبيعته بالخلافة

التعريف به:

هو عثمان بن عفان بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف ابــن قصي فهو قرشي أموي، يجتمع مع رسول الله ﷺ في "عبد مناف"، ولد بعد ميلاد الرسول ﷺ وقيل أنه ولد بعد عام الفيل بست سنين، وأمه أروى بنت كريز ابــن ربــيعة بن حبيب بن عبد شمس بن عبد مناف بن قصي وجسدته لأمه هي البيضاء أم حكم بنت عبد المطلب عمة رسول الله ﷺ وبذلك يكون عثمان قد التقى فـــي نسبه من جهة أبيه ومن جهة أمه مع النبي ﷺ بل هو أقرب الخلفاء الراشدين رحماً من النبي بعد علي بن أبي طالب ﷺ.

ولـــد عثمان ﷺ بالطائف، وكان من كبار الأثرياء قبل الإسلام وبعده، فقد نشـــأ فـــي نعمـــة وعيش خفيض، وكان أبوه تاجراً واسع الثراء يحمل قوافله إلى الشـــام على دأب الكثيرين من تجار بني أمية، وقد مات في إحدى رحلاته وترك لابـــنه عثمان ثروة طائلة، فاشتغل بالتجارة مثل أبيه واستثمر أمواله خير استثمار فدرّت عليه أرباحاً كثيرة جعلته من كبار الأغنياء.

عـــاش عـــثمان ﷺ في صباه وفي شبابه عيش أمثاله من الموسرين من قـــريش عامة ومن بني أمية خاصة، ولا غرو فقد كان تاجراً مرموقاً قبل الإسلام أســـهمت أمانـــته وكـــرم سجاياه في رواج تجارته وكثرة ربحه، كما أسهمتا في الابتعاد به عن الانزلاق مع نزوات الشباب، فلم يؤثر عنه أنه كان صاحب نساء، وإن أجمعـــت الروايات على أنه كان رقيق القلب حلو المعشر، للعاطفة على نفسه ســـلطان أي سلطان، وكانت رقته وحلاوة معشره تدعوانه لتجنب الأذى والقسوة قدر الممكن والمستطاع.

كان عثمان من السابقين إلى الإسلام، فيروى أنه رابع أربعة أسلموا أول الـــناس، وقـــد تحمل الكثير من الأذى في سبيل إسلامه، فقد أوثقه عمه الحكم ابن أبـــي العاص بعد أن غضب عليه غضباً شديداً، وتوعده بأنه لا يفك وثاقه إلا إذا عـــاد إلـــى ملة آبائه وأجداده، ولكن عثمان أبى أن ينقاد إلى تهديد عمه ووعيده، فلما رأى عمه صلابته في عقيدته وتمسكه بإسلامه تركه وشأنه(١).

هـــناك عـــدة روايـــات ذكرها المؤرخون في سبب إسلامه منها ما ذكره ابـــــن هشام في السيرة: "إن أبا بكر بعد إسلامه جعل يدعو إلى الله وإلى الإسلام مـــن وثـــق بـــه من قومه ممن يغشاه ويجلس إليه، فأسلم بدعائه عثمان بن عفان وسبعة آخرون فجاء بهم أبو بكر إلى رسول الله ﷺ حين استجابوا لدعائه فأسلموا وصلوا"(٢).

وذكـــر ابـــن سعد في الطبقات رواية أخرى مختلفة فقال: "خرج عثمان بـــــن عفان وطلحة بن عبد الله على أثر الزبير بن العوام فدخلا على رسول الله

ﷺ فعــرض عليهما الإسلام وقرأ عليها القرآن وأنبأهما بحقوق الإسلام ووعدهما الكــرامة من الله، فآمنا وصدقا فقال عثمان: "يا رسول الله قدمت حديثا من الشام فلمــا كــنا بين معان والزرقاء فنحن كالنيام فإذ منادياً ينادينا أيها النيام هبوا فإن أحمد قد خرج بمكة فقدمنا فسمعنا به"[٣].

بعــد إســلام عثمان تزوج من رقية بنت رسول الله ﷺ فلما آذى مشركو قــريش المســلمين أمــرهم الرسول أن يتفرقوا في الأرض فرارا إلى الله بدينهم ونصــحهم أن يذهــبوا إلى أرض الحبشة. وكان أول الذين ذهبوا إليها أحد عشر مسلماً رجالاً ونساءً وكان عثمان وزوجته رقية أسبق هؤلاء إلى الهجرة، ثم رجع عــثمان إلــى مكــة قــبل الهجرة إلى يثرب، ثم هاجر هجرته الثانية إلى يثرب (المديــنة) وحضــر مــع رســول الله جميع غزواته ما عدا بدراً حيث كان يقوم بتمريض السيدة رقيه وذلك بإذن من رسول الله ﷺ، وعندما قسم الرسول في بدر جعل لعثمان سهما فيه كسهم من شهدها، ولذلك اعتبر عثمان من البدريين.

توفيــت زوجته السيدة رقية فحزن عثمان لموتها اشد الحزن، وعرف له رســول الله ﷺ حسن عشرته فزوجه من أختها أم كلثوم، وماتت أم كلثوم في حياة أبيها في السنة التاسعة للهجرة، فحزن عثمان لموتها فكان ما واساه بها رسول الله قولــه: "لو كان لنا ثالثة لزوجناك"، وأشهر الروايات على أنه سمي بذي النورين لأنه تزوج من رقية وأم كلثوم بنتي النبي عليه الصلاة والسلام.

كــان عــثمان تقياً ورعاً طيب النفس تقي السريرة حليماً متواضعاً رفيقاً بالــناس يقول المسعودي[٤]: "كان عثمان في نهاية الجود والكرم والسماحة والبذل

فـــي القريـــب والبعيد، فسلك عماله وكثير من أهل عصره طريقته وتأسوا به في فعلـــه" وكانـــت الخصـــلة التي ميزه بها النبي ﷺ فيما روى المحدثون وأصحاب الســـير صدق الحياء، روى عن رسول الله ﷺ أنه قال: "أصدق أمتي حياء عثمان" فمـــا كـــان عليه الصلاة والسلام يقول: "إن الملائكة لتستحي من عثمان" كما أنه بفضـــل مصاحبته للنبي ﷺ وسماعه وحفظه لأحاديثه ومشاهدته لأفعاله واستمداده المســـتمر مـــن ينابـــيع حكمـــته وهدى سنته ومكارم أخلاقه ازداد تمرساً عملياً بالفضـــائل ومزاولة للعبادة والتقوى فكان المؤمن الودع الذي يصوم نهاره ويقوم ليله ويحج كل عام.

ولمـــا كان عثمان ﷺ جليل القدر بين المسلمين عظيم المنزلة عند رسول الله ﷺ محـــبوباً فـــي قـــريش فقد جعله الرسول ﷺ سفيراً في صلح الحديبية بين المســـلمين وبيـــن قريش وعندما شاع خبر قتل قريش له بايع النبي أصحابه بيعة الرضـــوان –تحت الشجرة– على أن يبذل كل منهم نفسه في سبيل الله انتقاماً من قريش على ما اقترفوه من الإثم، ثم ظهر أنه لم يقتل ولم يصب بأذى.

وقـــد أوتـــي عـــثمان حظاً موفوراً من الثراء يقابله حظ أوفر من البذل والعطـــاء فـــي سبيل الله، فقد كان ﷺ سخياً بما له فيما يصلح المسلمين من ذلك عندما أزمع رسول الله ﷺ الخروج لغزو الروم بتبوك وجهز جيش العسرة شارك عـــثمان فـــي ذلك بثلاثمائة بعير كاملة العدة وبألف ينار ورأى رسول الله ﷺ ما صـــنع عثمان فقال: "ما ضر عثمان ما فعل بعد اليوم" وكررها مرتين، ومن ذلك أيضاً أنه كان ليهودي بالمدينة بئر يبيع المسلمين ماءها فقال رسول الله ﷺ : "من

يشـــتر بـــئر رومة فيجعلها للمسلمين يضرب بدلوه في دلائهم وله بها شرب في الجـــنة" فأتى عثمان اليهودي فساومه فيها فأبى أن يبيعه كلها فاشترى منه نصفها باثنـــي عشـــر ألـــف درهم واتفق مع اليهودي على أن يكون له يوم ولعثمان يوم وجعـــل المسلمون يسقون في يوم عثمان ليومين، وذهب اليهودي إلى عثمان فقال لـــه: "أفســدت علـــي بئري فاشتر النصف الآخر فاشتراه للمسلمين بثمانية آلاف درهم وجعل رشاءه فيها كرشاء رجل من المسلمين"(٥).

اختيار عثمان خليفة:

عـــندما طعـــن عمـــر بـــن الخطاب ﷺ لم يكن في نيته أن يولي خلفاً له فالظـــروف التـــي دعـــت أبا بكر أن يعين خلفاً له قد زالت، إذ انتصرت جيوش المســـلمين واســـتقرت الأحـــوال، ولكن المسلمين خافوا الفرقة بعد موت الخليفة فعرضوا على عمر أن يعين خلفاً له فتردد، وقال من استخلف؟ لو كان أبو عبيدة ابـــن الجـــراح حـــياً استخلفته، ولو كان سالم مولى أبي حذيفة حياً استخلفته، فإن ســـألني ربي قلت سمعت نبيك يقول: "إنه أمين هذه الأمة، أو سمعت نبيك يقول: إن ســـالماً شديد الحب لله" فقال له رجل أدلك عليه؟ عبد الله ابن عمر، فقال (أي عمـــر) قـــاتلك الله، والله مـــا أردت الله بهذا، لا إرب لنا في أموركم، ما حمدتها فأرغـــب فـــيها لأحد من أهل بيتي، بحسب آل عمران يحاسب منهم رجل واحد، ويســـأل عـــن أمـــر أمة محمد، أما لقد أجهدت نفسي وحررت أهلي، وإن نجوت كفافـــاً لا وزرَ ولا أجـــرَ إني لسعيد، أن أترك فقد ترك من هو خير مني –يريد

رسول الله ﷺ- وأن استخلف فقد استخلف من هو خير مني -يريد أبا بكر ﷺ- ولكن عمر خشي بعد أعمال الفكر أن يضطرب الأمر إذا تركه شائعاً بدون أن يبت فيه برأي فقد اشترك العرب جميعاً بمحاربة الفرس والروم، وأصبح لكل قبيلة أن تزعم لنفسها ما للمهاجرين والأنصار من حق الاشتراك في اختيار الخليفة، وقد يذهب بعضها إلى ادعاء الحق في ترشيح زعيمها لمقام الخلافة، وفي هذا الادعاء من الخطر على الدولة الإسلامية الناشئة ما لم يفت عمر، لذلك لم يلبث أن جعل الخلافة من بعده شورى في ستة يختارون أحدهم لها، وهؤلاء الستة هم: "عثمان بن عفان وعلي بن أبي طالب والزبير بن العوام وسعد بن أبي وقاص" وبعد أن ذكر عمر أسماء هؤلاء قال إنه لم يجد أحداً أحق بهذا الأمر من هؤلاء النفر الذين توفي رسول الله ﷺ وهو راضٍ عنهم، فأيهم استخلف فهو الخليفة من بعدي(٦).

لابد من الإشارة هنا إلى أن هؤلاء الستة لم يكن بينهم واحد من الأنصار ولا من غيرهم من قبائل العرب بل هم جميعاً من المهاجرين ومن قريش بشكل خاص، ومع ذلك لم يثر اختيار عمر لهؤلاء أي اعتراض لا من الأنصار ولا من غيرهم من العرب الذين أقبلوا أفواجاً إلى المدينة وظلوا بها بعد مقتل عمر ﷺ حتى بايعوا الخليفة الجديد، إن تفسير ذلك لا يعني سوى اطمئنان الأنصار وغيرهم من قبائل العرب إلى اختيار عمر لهؤلاء الستة وربما يرجع ذلك إلى ما حدث في سقيفة بني ساعدة إثر وفاة النبي ﷺ والذي -من المؤكد- أنه ما زال عالقاً في أذهانهم فقد تقرر في هذا المؤتمر (مؤتمر السقيفة) -كما مر سابقاً-

قـــاعدة دستورية هامة تمثلت في كلمة أبي بكر التي قالها عندما احتدم النزاع بين المهاجريـــن والأنصـــار، أنهمـــا أحـــق بالخلافـــة، فكان مما قاله أبو بكر: "نحن المهاجـــرون، وأنـــتم الأنصار، إخواننا في الدين، وشركاؤنا في الفيء وأنصارنا علـــى العدو، أما ما ذكرتم فيكم من خير فأنتم له أهلٌ، وأنتم أجدر بالثناء من أهل الأرض جمـــيعاً، فأما العرب فلن تعرف هذا الأمر إلا لهذا الحي من قريش فمنا الأمراء ومنكم الوزراء".

يـــبدو أن هـــذه الكلمة صارت دستور الخلافة والحكم بين المسلمين منذ قالهـــا أبو بكر، لذلك لم يعترض أحد على استخلاف أبي بكر وعمر ولم يعترض أحـــد كذلـــك على اختيار عمر لهؤلاء، بل اطمئن له الأنصار واطمئن له العرب جميعاً.

ومـــن خـــلال استقراء ظروف الحقبة التاريخية التي كانت تعيشها الدولة الإسلامية آنذاك نرجح أن عمر بن الخطاب ﷺ عندما اتخذ قراره هذا كان يخشى أن اســـتخلف واحـــداً بذاتـــه أن يدفع الحرص غيره إلى منافسته فلا تجتمع كلمة المسلمين فينشب بينهم خلاف تخشى عواقبه، كما يحتمل أن عمر لم ير واحد من الســـتة أفضل من سائره فلم يشأ أن يتحمل أمام ربه وزر مشورة لا يطمئن إليها قلبه كل الاطمئنان، يشير إلى ذلك قول عمر جواباً لمن قال له: يا أمير المؤمنين، لـــو عهـــدت عهداً ما أريد أن أتحملها حياً أو ميتاً، عليكم هؤلاء الرهط الذين قال رســـول الله ﷺ "إنهم من أهل الجنة" وربما كان هناك احتمال ثالث وهو أن عمر قـــد خشي حين طعن أن يسرع إليه حتفه قبل أن يجمع كلمة المسلمين على واحد

مـــن هــؤلاء الستة فترك الأمر للشورى يتممون ما لم يجد هو قسمة من الوقت لاتمامه.

أيـــا كانـــت الدوافع التي منعت عمر من أن يستخلف واحداً بذاته وجعلته يســـمي الشورى ليختاروا الخليفة من بينهم فقد أراد عمر أن لا يتحمل مسؤوليات الـــناس مـــن بعـــد موته، كما أراد ألا يترك المسلمين في الوقت ذاته نهباً للفرقة والانقســـام ولذلك كله نجده يقترح طريقاً وسطاً بين التعيين وعدم التعيين، فيعين الســـتة المبشرين بالجنة وهم خيرة المسلمين، ولن يكون الخليفة بطبيعة الحال إلا مـــنهم، ويطلـــب مـــن هـــؤلاء الستة أن يختاروا من بينهم الخليفة بعد استشارة المســـلمين ويضـــم عمر إليهم ابنه عبد الله ليكن له رأي في الاختيار على أن لا يختار للخلافة وحدد عمر ثلاثة أيام تنتهي المشورة خلالها.

اســـتدعى الخليفة عمر أهل الشورى الخمسة الموجودين (لأن طلحة كان غائـــباً في سفر) وقال لهم: إني نظرت فوجدتكم رؤساء الناس وقادتهم ولا يكون هـــذا الأمر إلا فيكم وإني لا أخاف عليكم إن استقمتم ولكني أخاف عليكم اختلافكم فـــيما بيـــنكم فيخـــتلف الناس، فانهضوا إلى هجرة عائشة بإذنها فتشاوروا فيها، فاجـــتمعوا وتحـــادثوا، فارتفعت أصواتهم فأمر بتأجيل اجتماعهم لما بعد موته ثم يجـــتمعون للتشـــاور فـــي اختيار واحد في مدى ثلاثة أيام، وقال: ليصلِ بالناس صهيب الرومي ولا يأتين اليوم الرابع إلا وعليكم أمير منكم ويحضر عبد الله ابن عمـــر مشـــيراً، ولا شـــيء لـــه، وطلحة شريككم في الأمر، فإن قدم في الثلاثة فأحضـــره أمـــركم وإن مضت قبل قدومه فأمضوا أمركم، ثم بعد أن تحدث عن

بعـــض المرشحين وما فيه من صفات قال لأبي طلحة الأنصاري: إن الله قد أعز بكـــم الإســـلام فاختر خمسين رجلاً وكونوا مع هؤلاء الرهط حتى يختاروا رجلاً مـــنهم، وقال المقداد ابن الأسود: إذا وضعتموني في حفرتي فاجمع هؤلاء الرهط حـــتى يخـــتاروا رجـــلاً منهم، وقال لأبي طلحة والمقداد: "إن اجتمع خمسة على رجـــل وأبـــى واحـــد فاقتلوه، وإن رضى أربعة واحداً وأبى اثنان فاقتلوهما وإن رضـــي ثلاثـــة رجلاً وثلاثة رجلاً فحكموا عبد الله ابن عمر فمن حكم له فمنهم الوالـــي، وإن لـــم يرضـــوا حكمه فكونوا مع الذين فيهم عبد الرحمن ابن عوف، واقتلوا الباقين، إن رغبوا عما اجتمع عليه الناس".

اجـــتمع أهـــل الشورى الخمسة لأن طلحة كان غائباً في بيت المسور ابن مخـــرمة ويقـــال فـــي بيت المال ويقال أنه كان عند عائشة بعد إذنها، وكان مع المجتمعيـــن عـــبد الله ابـــن عمر وقد جعلوا أبا طلحة حاجباً لهم ولما رأى تنافس هـــؤلاء في هذا الأمر تعجب وتخوف وقال: "أنا كنت لن تدفعوها أخوف مني لأن تتنافســـوا! لا والذي ذهب بنفس عمر لا أزيدكم على الأيام الثلاثة التي أمرت ثم أجلـــس في بيتي فانظر ما تصنعون، فكأن شدة الخلاف كانت توحي إلى الحاجب بأن الاستقرار على رأي واحد وبأن الاختيار النهائي لن يتم في المدة المحددة.

نتـــيجة لهـــذه المواقف المتباينة آثر عبد الرحمن ابن عوف أن يبعد نفسه عـــن الخلافة وأن يتجنب الدخول في منافسات مع غيره، وأن يحدد دوره في هذه المهمـــة بالقـــيام بالاختيار فقد بعد ارتضاء الأطراف المعنية وموافقتها فقال لهم:

"لست بالذي أنافسكم في هذا الأمر، ولكنكم إن شئتم اخترت لكم منكم، فجعلوا ذلك إلى عبد الرحمن".

أراد عبد الرحمن بن عوف أن يتفرغ للتدقيق والتحري ولم ينس أن يؤكد للمجتمعين أن يؤثر الحق ولا يتبع الهوى أو أن يخص قريباً له بفائدة لم يستحقها، أعطاه عهداً أو ميثاقاً، قال له علي بن أبي طالب: "اعطني موثقاً لتؤثرن الحق ولا تتبع الهوى، ولا تخص ذا رحم، ولا تألو الأمة".

وطلب عبد الرحمن من المجتمعين أن يكونوا معه على من بدّل وغيّر وأن يرضوا ما اختاره لهم، على ميثاق الله، لا يخص ذا رحم لرحمة، ولا يألوا المسلمين.

بعد أن تم تخويل عبد الرحمن ابن عوف بهذا الأمر لم يكتف بالتفكير الجدي بنفسه فيه وإنما كان يسعى إلى من وافى المدينة من أمراء الأجناد وأشراف الناس يستطلع أراءهم ويشاورهم في الأمر، وقيل أنه كان يستشير النساء الراشدات خاصة أمهات المؤمنين، ومال الناس إلى عبد الرحمن يشاورونه ويناجونه تلك الليالي، وذكرت المصادر أن عينا عبد الرحمن لم تذق النوم ولم يغمض له جفن طوال الليالي المحددة، واجتمع عبد الرحمن بكل من الزبير وسعد وعلي ثم بعثمان كل على انفراد، ويقال أن عبد الرحمن سأل علياً: أرأيت لو لم أوليك هذا الأمر فمن تشير علي أن اختار؟ فقال له عثمان: وعاد فسأل عثمان نفس السؤال فقال له عثمان: علياً.

انحصــر الأمر إذاً بين علي وعثمان وضاقت دائرة الخلاف ولكن أطاله نقاش بعض المسلمين فبعضهم يؤيد عثمان وبعضهم يؤيد علياً، ويسوق كل فريق الحجــج والأدلــة علــى صحة اختياره، وخشى سعد بن أبي وقاص حدوث فتنة فدعى عبد الرحمن وقال له: "أسرع يا عبد الرحمن قبل أن يفتتن الناس".

ازدحــم المســجد بالناس حتى اكتفى بأعدادهم وصعد عبد الرحمن إلى المنبر فوقف وأطال الوقوف وناد علياً فجاء إليه وقال له عبد الرحمن عليك عهد الله وميــثاقه لتعملــن بكتاب الله وسنة رسوله وسيرة الخليفين من بعده قال علي أرجــو أن أفعل وأعمل بمبلغ علمي وطاقتي ثم نودي على عثمان حتى وقف عند المنبر ففعل معه مثل ما فعل مع علي بسط عبد الرحمن يده وأخذ يد عثمان وقال لــه: هــل أنــت مبايعني على كتاب الله وسنة رسوله وفعل أبي بكر وعمر؟ قال عــثمان: نعــم، قــال عبد الرحمن اللهم اشهد اللهم اشهد اللهم اشهد ثم قام الناس فبايعوا عثمان[٧].

بويــع عثمان بالخلافة في نهاية المدة المحددة وهو اليوم الأخير من ذي الحجــة ســنة ثــلاث وعشرين، واستقبل خلافته في الأول من محرم سنة أربع وعشرين وقيل بعد ذلك بيومين وقيل يوم السبت العاشر من محرم.

اتخــذ عثمان ﷺ أول حاجب له هو (حمران) مولاه كما اتخذ كاتباً له هو مــروان بــن الحكم ولما بايع أهل الشورى عثمان خرج فأتى منبر رسول الله ﷺ فخطــب فــي الناس خطبة هي في ظاهرها ومضمونها عبارة عن نصائح تتعلق بالديــن لا بالسياسة فقال بعد أن حمد الله وأثنى عليه وصلى على النبي ﷺ: "إنكم

فـــي دار قلعـــة وفي بقية أعمار فبادروا آجالكم بخير ما تقدرون عليه، فلقد أتيتم صبحتم أو سميتم ألا وإن الدنيا طويت على الغرور، فلا تغرنكم الحياة الدنيا، ولا يغرنكم بالله الغرور، اعتبروا بمن مضى، ثم جدو ولا تغفلوا، فإنه لا يغفل عنكم، أيـــن أبـــناء الدنـــيا وإخوانهـــا الذيـــن أثاروها وعمروها، ومتعوا بها طويلاً، ألم ترفضهم؟ أرموا بالدنيا حيث رمى الله بها، واطلبوا الآخرة، فإن الله قد ضرب لها مـــثلاً، وللذين هو خير وقال عزوجل: ﴿ وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيماً تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِراً ﴾ (الكهف:٤٥)

﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَاباً وَخَيْرٌ أَمَلاً﴾ (الكهف:٤٦)

وأقبل الناس يبايعونه"(٨).

هذه الخطبة لا تبين لنا السياسة التي عول عثمان على انتهاجها في إدارة شـــؤون دولته، وإنما كانت خطبة نصائح ووعظ تحض على التمسك بالدين وهي خطـــبة تمـــثل ما يصدر عن شيء جليل محافظ على مبادئ الإسلام وما يؤمر به للتقوى.

كتب عثمان إلى الولاة وعمال الخراج وإلى العامة:

لقد تجلت سياسية عثمان في الكتب التي أرسلها إلى عماله وولاته وعامة الناس بالأقاليم، فلكي يطمئن عثمان الناس إلى أن ما ألفوا من عدل في عهد عمر لـــن يعبـــث به عابث، أرسل إلى الولاة والقواد وعمال الخراج وعامة المسلمين

بالأمصار كتباً يحثهم فيها على الأخذ بالمعروف والنهي عن المنكر، العطف على أهل الذمة وجباية الخراج بالعدل والإنصاف.

أولاً: كتاب عثمان إلى عماله:

كتب عثمان إلى عماله: "أما بعد فإن الله أمر الأئمة أن يكونوا رعاة، ولم يتقدم إليهم أن يكونوا جباة، وإن صدر هذه الأمة خلقوا رعاة ولم يخلقوا جباة، وليوشكن أئمتكم أن يصيروا جباة ولا يكونوا رعاة، فإذا عادوا كذلك انقطع الحياء والأمانة والوفاء، ألا وأن أعدل السيرة أن تنظروا في أمور المسلمين وفيما عليهم فتعطوهم ما لهم وتأخذوهم بما عليهم ثم تثنوا بالذمة فتعطوهم الذي لهم وتأخذوهم بالذي عليهم، ثم العدو الذي تنتابون فاستفتحوا عليهم بالوفاء"(٩).

هذا الكتاب يوضح سياسة عثمان في الرعية، ويدعو عماله أن يكونوا رعاة وليسوا جباة، وهي سياسة كلها سداد وحكمة، فهو يأمر هؤلاء العمال أن يرعوا الناس بالرفق وأن لا يرهقوهم جباية واستغلالا وأن يأخذوا من المسلم ومن الذمي ما عليه وأن يعطوا المسلم والذمي ماله عدلاً بغير بغي فلا يثير الناس بالمسلمين، تلك أعدل السير في نظر عثمان، إليها يطمئن الجميع فيسود الأمن ويستتب النظام، وهو إذ يوصي عماله بالتمسك بالحياء ترى الرواة الجمعين على أن هذه الخلة كانت من أهم وأخص صفاته، وخشي عثمان أن ينقطع الحياء ويحل محله الفضول والجرأة التي ليس لها حدود والتي يترتب عليها ضياع الحقوق، فيعم الباطل والفساد والفوضى، كما يحث عثمان ولاته

على أن يكونوا رعاةً لا جباة حتى لا تضيع الأمانة، ويحل محلها الغش والخداع، حـتى لا يـنقطع الوفـاء ويقوم مقامه الغدر، وكل هذا يضيع مصلحة المسلمين ويسـيء العلاقـة بيـن الولايـة والمحكوميـن وينشر جواً من عدم الثقة وعدم الطمأنينة.

إن هـدف تلك التوجيهات تحديد العلاقة بين الحكام والمحكومين، ومعرفة كـل لحقوقه فيأخذها لا يُظلم قيد أنملة، ولواجباته فيؤديها على خير وجه لا ينبغي أن يظلـم أحـد الطرفين إرضاءً للطرف الآخر، وأخيراً فإن تلك التوجيهات التي تخـص أهل الذمة (اليهود والنصارى) وغيرهم من الذين لم يدخلوا الإسلام تأمر الـولاة بحسـن معاملة هؤلاء وتحثهم على اتباع الحق وتوخي العدل معهم -كما يفعلـون مع المسلمين- وأن كل ذمي يؤدي ما عليه من واجبات وينال ما له من حقوق.

ثانياً: كتاب عثمان إلى عمال الخراج

كـان لعمـال الخراج من الاستقلالية عن الولاة ما خشي عثمان معه أن يظلـم الناس فيبهضوهم بما لا يجب عليهم أداؤه، أو أن يستغلوا مناصبهم لفائدتهم وفـائدة ذويهـم لذلك كتب إلى عمال الخراج يقول: "أما بعد فإن الله خلق الخلق بـالحق فلا يقبل إلا الحق، خذوا الحق وأعطوا الحق به، والأمانة الأمانة، قوموا علـيها ولا تكونـوا أول مـن يسلبها فتكونوا شركاء من بعدكم إلى ما اكتسبتم، والوفاء الوفاء، ولا تظلموا اليتيم ولا المعاهد فإن الله خصم لمن ظلمهم"(١٠).

والملاحظ في هذا الخطاب استخدام عامل الرهبة والتخويف من الله العلي القديم في حثهم على الإثبات بالحق والتزامه في معاملة الخلق فلا يقبل الله إلا الحق، خذوا الحق وأعطوا الحق، أعطوا كل ذي حق حقه وخذوا حقكم منه، ثم أوصاهم بالأمانة وشدد في ذلك وكررها عليهم، أدوا الأمانات إلى أهلها وأشرفوا على توصيلها، كما نهى عثمان عمال خراج الأقاليم عن ظلم اليتيم أو الذمي (المعاهد) وحذرهم من أن الله لا يرضى عن ظلمهم.

ثالثاً: كتاب عثمان إلى أمراء الأجناد:

"أما بعد فإنكم حماة المسلمين وذاداتهم، ولقد وضع لكم عمر ما لم يغب عنا، بل كان على ملأ منا، ولا يبلغني عن أحد منكم تغيير ولا تبديل فيغير الله ما بكم ويستبدل بكم غيركم، فانظروا كيف تكونون، فإني أنظر فيما ألزمني الله النظر فيه والقيام عليه"[١١].

اتسم كتاب عثمان ﷺ إلى أمراء الأجناد أو أمراء الحرب بشيء من الشدة والحزم اللذين يلائمان ما ينبغي أن يكتب إلى هؤلاء، فقد عد نفسه المسؤول الأول والأخير للنظر فيما ألزمه الله النظر فيه والقيام عليه، فهو يأمر وأمراء الأجناد ينفذون، ولكنه في ذلك التزم وألزمهم بما وضعه عمر من قبل، واشترك فيه عثمان بالمشورة، وكان ذلك على الملأ، ثم حذرهم وأنذرهم من إحداث أي تغيير أو تبديل وإذا بلغه عن أي منهم محاولة ذلك فإنه سوف يعزل ويحاسب.

رابعاً: كتاب عثمان إلى العامة:

لـم يشأ عثمان ﷺ أن يفهم الناس من كتبه إلى الولاة وإلى عمال الخراج أنـه أعفى العامة من الواجبات الملقاة عليهم، أو أنه حين زاد في عطائهم يدعوهم إلـى الـتمرغ في متاع الدنيا ورفه العيش لذلك خاطبهم في كتاب هذا نصه: "أما بعـد، فـإنكم إما بلغتم ما بلغتم بالاقتداء والاتباع فلا تلفتنكم الدنيا عن أمركم فإن أمـر هـذه الأمـة صائر إلى الابتداع بعد اجتماع ثلاث فيكم: تكامل النعم وبلوغ أولادكـم مـن السبايا وقراءة الأعراب والأعاجم القرآن، وقد قال رسول الله ﷺ: "الكفر في العجمة، فإذا استعجم عليهم أمر تكلفوا وابتدعوا"(١٢).

سياسة عثمان ﷺ في تولية الأمراء:

اعـتمد عثمان بن عفان ﷺ سياسة خاصة في تولية الأمراء على الأقاليم تخـتلف عـن سياسة سابقيه -أبو بكر ﷺ وعمر ﷺ-، فقد أسند عثمان إلى كثير مـن أهـل بيته إدارة شؤون الأمصار الإسلامية لأنه -على ما يبدو- أنس منهم الإخـلاص والمعونـة له، ومن ثم أصبحت حكومته مصطبغة بالصبغة الأموية، وكـان عمـر بن الخطاب ﷺ يختار ولاته من العرب الذين ثبتت كفايتهم وحسن إسـلامهم ولم يكن للعصبية القبلية أثر في توليتهم وعزلهم، وقد أوصى عمر ﷺ عثمان ﷺ بأن يقر عماله عاماً على ولايتهم بعد موته، فلما مضى العام الأول من خلافة عثمان أخذ يباشر سلطته في العزل والتولية.

مـــن المعروف أن البصرة والكوفة والشام ومصر كانت من أهم الولايات العربـــية الإســـلامية، فهـــي موطن قوة المسلمين ومصدر ثرائهم، لذلك عني بها الخليفة عناية خاصة.

ـ البصرة:

أقـــر علـــيها أبا موسى الأشعري ست سنوات بعد وفاة الخليفة عمر، ثم عزله عثمان وأختار لهذه الولاية ابن خاله عبد الله بن عامر بن كريز سنة ٢٩هـ.

ـ الكوفة:

كان عليها المغيرة بن شعبة، فلما انقضى عام واحد على وفاة عمر عزل المغيرة من الكوفة وولى عليها سعد بن أبي وقاص الزهري، ثم أسند هذه الولاية إلـــى الولـــيد بـــن عقبة بن أبي معيط، بعد أن تم عزل سعد منها سنة ٢٥هـ ولما أظهـــر أهـــل الكوفة تذمرهم من الوليد أرسل إليهم سعيد بن العاص بن أمية سنة ٣٠هـ.

ـ بلاد الشام:

كانـــت الأردن ودمشق قد تولاها معاوية بن أبي سفيان في خلافة عمر، فلما تولى عثمان الخلافة أقره عليها ثم ضم إليه فلسطين وحمص وقنسرين وجمع لـــه قيادة الأجناد الأربعة، وبذلك أصبح معاوية والياً على بلاد الشام كلها لسنتين مـــن خلافة عثمان، وليس من شك في أن عثمان بن عفان بإطلاقه يد معاوية في

هـــذه الولايـــة مهـــد له سبيل نقل الخلافة إلى أسرة أبي سفيان وتثبيتها في البيت الأموي.

ـ مصر:

كـــان علـــيها أيـــام عمر عمرو بن العاص غير أنه لم يكن ينقضي العام الأول مـــن خلافـــة عثمان حتى تطلع أقرباؤه إلى هذه الولاية فعزل عمراً وولى بدله عبد الله بن سعد بن أبي سرح وكان أخا لعثمان في الرضاعة(١٣).

المبحث الثاني

الفتوحات في خلافته وأهم أعماله

الفتوحات الإسلامية في خلافة عثمان:

استمرت حركة الفتوح الإسلامية في خلافة عثمان بن عفان وقد اتخذت الفتوحات في هذه المرحلة طابعاً جديداً تميز بحالة الدفاع وتأمين الحدود ودفع الخطر من هجوم الأعداء، فقد مر بنا كيف أن الدولة العربية الإسلامية امتدت في زمن الخليفة الثاني عمر بن الخطاب ﷺ من أقصى فارس شرقاً إلى حدود برقة غرباً ومن بحر قزوين في الشمال إلى النوبة في الجنوب، وقد أيقن سكان تلك البلاد الفتوحات بأن هؤلاء الفاتحين لا غالب لهم، ومع ذلك فقد كانت أسباب الانتفاض تحرك نفوس الناس من أهل هذه الأقاليم بين الحين والآخر إلى الثورة على المسلمين ونكث ما عاهدوهم عليه، لحداثة عهدهم بالإسلام، فضلاً عن عدم وجود قوات للمسلمين مرابطة في هذه البلاد، بل كان المسلمون يصالحون كل إقليم يفتحونه على جزية معينة يدفعها أهله لهم ثم يتركون حكم الإقليم لأبنائه، وتنسحب قواتهم بعد ذلك عنه إلى المعسكرات العربية الدائمة، التي كانت مقامة في كل من البصرة والكوفة في العراق ودمشق وحمص في الشام، إلا في حصن بابليون.

لقــد حاولــت بعض الجهات الانتفاض بعد أن وصلتهم أخبار مقتل عمر وبــيعة عثمان، فتمردت ولايات كانت أذعنت لسلطان العرب وصالحتهم فنقضت صلحها ومنعت الجزية التي صالحت عليها، لم يكن للخليفة الجديد بد من رد هذه الولايات إلى حمى الطاعة، وسيادة الدولة العربية الإسلامية.

مــن جانــب آخــر لم تتوقف حركة الفتح والتوسع في زمن عثمان، إنما تشعبت واحتوت أقطاراً جديدة في الشرق والغرب، فلم يقطع استخلاف عثمان بن عفــان سلسلة الفتوح التي قام بها المسلمون في زمن عمر، فقد اهتم عثمان بتأمين الفــتوح التــي تمت في خلافة سلفه الخليفة عمر بن الخطاب وواصل المسلمون العمل على توطيد نفوذهم في بلاد فارس، التي انتقض بعضها، فاجتازت الجيوش العربــية فــي زمــن عــثمان أرض فــارس ووصلت شرقاً إلى بلاد طبرستان، ووصلت فرقة أخرى بقيادة عبد الله بن عامر إلى خراسان وتكونت للمسلمين في زمــن عثمان أول قوة بحرية لمواجهة التفوق البيزنطي في مجال البحر، فانضم إلى الدولة الإسلامية جزيرة قبرص كما انضم جزء من بلاد النوبة، وانضمت لها بلاد أرمينية.

فتوحات المشرق:

علــى الرغم من الجهود التي بذلت في زمن عمر بن الخطاب ﷺ لتثبيت دعــائم الوجــود العربي الإسلامي في بلاد فارس إلا أن النفوذ العربي لم يستقر هناك فقد ثار أهل فارس على أميرهم فخرج إليهم عبد الله بن عامر والي البصرة وســار بجيشــه إلى مقاطعة فارس وأخضعهم ثم بدأ بعدها سلسلة معارك أخرى

شــرقاً وشمالاً كان النصر فيها حليفه، فأخضع نيسابور وسرخس ومرو من بلاد خراســان ثم اشتبك في معركة كبرى عند خوارزم (على نهر جيحون) حطم فيها القــوات الفارســية وانتصر نصراً مؤزراً، دفعه إلى التوغل في بلاد التركستان حــتى مدينة بلخ وأدخلها في حوزة الإسلام، كذلك وجه عبد الله بن عامر الأحنف ابــن قــيس إلــى طجارستان ثم إلى مرو الروذ فلقيته جموع من أهلها أوقع بهم الهــزيمة واضطروا إلى طلب الصلح، وما زال الأحنف بن قيس يتابع انتصاراته في تلك الجهات حتى تمكن من فتح الجوزجان والطالقان والصغانيان ثم سار إلى بلــخ فصــالح أهلها وعاد أخيراً إلى مرو بعد أن تعذر عليه فتح خوارزم، وهكذا بسط العرب سلطانهم على معظم أقطار الدولة الفارسية المنهارة(١٤).

ومــن الفــتوحات الهامة في خلافة عثمان فتح أرمينية وهي صقع عظيم واســع يمــتد مــن جــبال القوقاز والبحر الأسود شمالاً وبعض الجزيرة جنوباً، وبحـــر الخزر (أو قزوين) وهضبة أذربيجان شرقاً، وآسيا الصغرى والجزيرة غــرباً فيشمل الأراضي الجبلية التي كان يخترقها عدة أنهار عظيمة أهمها: دجلة والفرات في الجنوب والكر والرّس في الشمال(١٥).

كــان يسكن هذه البلاد شعب آسيوي لا نَعرف أصله ينسب إلى هذه البلاد ويعــرف بالأرمن، تحول إلى المسيحية من وقت مبكر بما كان سبباً في أن بدأت تظهــر له شخصــيته التــي لا يــزال محتفظاً بها إلى الآن كذلك كان يعيش في أرمينية جماعات يهودية ومجوسية انتقلت إليه من البلاد المجاورة.

اســتطاع المســلمون في خلافة عمر بن الخطاب ﷺ أن ينتزعوا أرمينية من قبضة الروم غير أنهم لم يلبثوا أن اضطروا للجلاء عنها تحت ضغط جيوش

الأعــداء التــي أحاطت بهم، فأصدر الخليفة عثمان أوامره إلى واليه على الشام معاويـــة بـــن أبي سفيان بأن يكرّس جهوده لاستعادة هذا الإقليم إلى سيادة الدولة العربـــية الإســـلامية، فســير معاوية بن أبي سفيان إليهم القائد العربي حبيب بن مســلمة الفهري على رأس جيش مكون من ستة آلاف جندي، فوصل إلى قلقيليا حيــث صالح أهلها على الجزية ثم واصل زحفه وتمكن من مباغتة حشود الروم والانتصـــار علــيهم قبل أن يمده الخليفة بالمد الذي طلبه، وبعد وصول ذلك المد استطاع الجيشان أن يواصلا زحفهما وأن يبسطا سيطرتهما على ذلك الإقليم(١٦).

مـــن جانـــب آخر استطاعت قوات عربية أخرى أرسلها والي الشام إلى الأناضـــول أن تشـــاغل الروم البيزنطيين حيث توغلت هذه القوات حتى وصلت عموريـــة ونجحـــت في مهمتها وهي إشغال الروم عن أية محاولة لاستعادة تلك المـــناطق وحـــتى لا يكون لديهم وقت للتفكير في تعزيز قواتهم خارج حدودهم، الأمـــر الذي يسهل على المسلمين الاستيلاء على بقية الشام، وقد نجح معاوية في تحقـــيق ذلـــك الهدف، وتمكن قواته من تطهير بلاد الشام من البيزنطيين وحققت القـــوات الإسلامية انتصارات على القوات البيزنطية أعقبها سقوط ثغري قنسرين وطـــرابلس آخـــر معاقل الروم في تلك البقاع، وبذلك آمن المسلمون بفضل ذلك خطر عدو قريب متداخل في بلادهم وعلى أرضهم.

الفتوحات في مصر:

لم يستقر النفوذ العربي في مصر إلا في سنة ٢٥هـ/ ٦٤٥م ذلك أن الروم لـــم يتمســـكوا بمعـــاهدة الإســـكندرية طويلاً، وبدأت الدولة البيزنطية تضيق من

أحداثهـــا الداخلـــية في عصر الإمبراطور قنمطانز الثاني حفيد هرقل الذي أرسل إلـــى الإسكندرية أسطولاً كبيراً لإجلاء العرب عن مصر، كان قائده رجل أرمني كبـــير اســـمه مانويل وذلك في سنة ٢٥هـ/٦٤٥م وأصبح وضع العرب في مصر محـــرجاً وكـــان والي مصر آنذاك عبد الله بن سعد بن أبي سرح، وقد بعث أهل مصـــر إلـــى الخلـــيفة عثمان يسألونه أن يرسل عمرو بن العاص ليتولى محاربة الـــروم لأن له خـــبرة ومعرفة بحروبهم فولى عثمان عمراً الإسكندرية وعهد إليه بحـــرب الروم وإخراجهم من مصر، ونجحت القوات الإسلامية في إجلاء الروم مـــن مصـــر بعد أن هزمتهم في معركة فاصلة عند مدينة نقبوس وقتل قائد جيش الروم(١٧).

بلاد النوبة:

اتجـــه عبد الله بن سعد بن أبي السرح إلى غزو النوبة سنة ٣١هـ/ ٦٥١م أثـــناء ولايـــته علـــى مصر من قبل الخليفة عثمان لتأمين حدود مصر الجنوبية، والـــنوبة هـــي البلاد الواسعة العريضة في الشطر الجنوبي من وادي النيل، التي تمـــتد مـــن أسوان آخر صعيد مصر حتى أواسط أفريقيا، وقد وصلت حملة سعد إلـــى "دنقله" واشتدت فيها وطأة القتال بين الجانبين، وانتهت هذه الحملة بعقد هدنة بين مصر ومملكة النوبة المسيحية، كانت أهم بنودها عدم الاعتداء بين الطرفين، وأن تؤدي النوبة إلى مصر عدداً معينا من الرقيق كل سنة، وأن تؤدي مصر إلى النوبة قدراً معيناً من القمح والعدس وغيره من منتجات مصر كل سنة كذلك(١٨).

فتح أفريقيا:

أذن الخليفة عثمان بن عفان ﷺ لعبد الله بن سعد بن أبي سرح واليه على مصر بغزو أفريقيا، وأرسل عثمان ممن رغب الجهاد في سبيل الله من المسلمين بقـيادة الحـارث بـن عبد الحكيم إلى مصر، وأمر عثمان المسلمين أن يطيعوا أمـره فخرج بهم عبد الله بن سعد إلى مدينة قرطاجة وهي مقر السلطان جرجير حـاكم أفريقيا في ذلك الوقت وقد شمل نفوذه المناطق الممتدة من طرابلس الغرب إلـى طـنجه ونجح المسلمون في تحرير أفريقيا وصالحوا أهلها على دفع مال أو ذهب أرسلت إلى مقر الخلافة مع أخبار النجاحات التي حققها المسلمون(١٩).

لقـد أراد الخليفة عثمان أن يعزز قيادة الجيش الإسلامي الذي كان يتولى عملـيات تحرير أفريقيا فأرسل عبد الله بن الزبير مع جماعة لمعرفة أخبار الجند -وموافاتـه بها، وعندما وصل ابن الزبير إلى أفريقيا تسلم قيادة الجيش بدلاً من عـبد الله بـن سعد لأن ابن الزبير كان -على ما يبدو- له رأياً آخر في مجريات القتال وأسلوب التعامل مع العدو(٢٠).

وصـلت أخـبار الفـتح والنصر إلى مقر الخلافة فأراد عثمان أن يبشر المسـلمين بنفسه فصعد المنبر وقال: "... أيها الناس إن الله قد فتح عليكم أفريقيا ... وهذا عبد الله بن الزبير يخبركم بخبرها إن شاء الله ..."(٢١).

ويـبدو أن أهل أفريقيا نقضوا عهدهم للمسلمين لذلك عزم المسلمون على القـيام بالغـزو ثانـية لهذه البلاد سنة ٣٠هـ/ ٦٥٠م واضطر الخليفة عثمان إلى

تكليف معاوية بن حديج بالقيام بغزوهم للمرة الثالثة سنة ٣٤هـ/ ٦٥٤م عندما نقض أهل أفريقيا عهدهم ثانية[٢٢].

تأسيس البحرية الإسلامية:

بعد أن سيطر العرب – في خلافة عمر بن الخطاب– على سواحل الشام ومصر الطويلتين أخذوا يفكرون جدياً في القضاء على قوة بيزنطة البحرية التي أصبحت مصدر تهديد لإمبراطوريتهم الناشئة فقد كان احتفاظ بيزنطة بالسيطرة البحرية أن جعلهم تقاوم في مدن الشام الساحلية مدة طويلة، كما استطاعت أن تعود إلى مهاجمتها في سنة ٢٣هـ/ ٦٤٤م فاحتلت بعض مدنها كما هاجمت أيضاً الإسكندرية في سنة ٢٥هـ/ ٦٤٥م وقد طردهم عمرو بن العاص منها[٢٣] وهكذا رأى العرب الذين تغلبوا على أقوى الجيوش البرية قوة بيزنطة البحرية تتحداهم وأن السواحل التي احتلوها تقف حائلاً دون تقدمهم.

لم يكن العرب – أول أمرهم– يستطيعون فعل شيء ضد هذه القوة البحرية التي كانت تصول وتجول أمام سواحهلم وتسيطر على معظم جزره بحيث سمي البحر الأبيض المتوسط باسم: "بحر الروم"[٢٤] وذلك لأن العرب أمة لم يكن لها خبرة بركوب البحر وبناء السفن، ولكي يقضوا على خطر عدوهم البحري لجؤوا إلى تقوية وسائل الدفاع عن سواحلهم بعدة أمور منها: إصلاح الحصون الساحلية القديمة التي تركها البيزنطيون في مصر والشام، وأخذ بيوت على الساحل لتحويلها إلى قلاع للمقاومة تسمى "أخائذ" وإنشاء "مناظير" أي أماكن يراقب منها العدو، كانت تتخذ "المواقيد" لطلب الإمداد إذا حدث هجوم مفاجئ

كذلـك رُتب الجند بطول الساحل حيث كانوا يغيّرون كل ستة أشهر، وفي الوقت ذاتـه عمـل على تكوين صفات بحرية للعرب، أن شجعوا على سكنى السواحل وهو ما عرف "بالرباط" وذلك بمنحهم الإقطاعات حتى يكونوا على قدم الاستعداد للدفاع ضد هجوم الأساطيل المعادية(٢٥).

ولكـن فـي خلافـة عثمان بدئ في تجهيز اسطول عربي ليكون ضماناً للقضاء على أي هجوم معاد من البحر فضلاً عن إمكان قيامه بالجهاد ضد أملاك البيزنطييـن، وقـد أوكـل بـناء هذا الأسطول إلى العناصر الخبيرة في صناعة المراكـب الـبحرية في البلاد المحررة في كل من مصر والشام وبخاصة القبط الذيـن ساهموا بنصيب كبير في بناء الأسطول الإسلامي في دور صناعتهم التي عرفـت بجزيـرة مصر أو الروضة، بحيث لم تأت سنة ٣٣هـ/ ٦٥٤م حتى كان للعـرب أسطول يتكون من أكثر من ألف وسبعمائة قطعة، استطاع العرب به أن يحطموا السيادة البيزنطية في البحر المتوسط(٢٦).

بـدأ نشـاط الأسـطول العربي كبيراً منذ أول أيامه، فقد كان يشحن في السـفن المقاتلـة ونساؤهم -على عادة العرب في القتال- من ثغور مصر والشام صـيفاً وشـتاء، للغـارة على سواحل العدو، وكانت معظم جهود أسطول الشام موجهـة نحـو جزيـرة قبرص التي كانت تحت سيطرة الروم، ويتخذونها قاعدة للهجـوم على سواحل الشام ومصر فغزاها معاوية بنفسه بقصد الإغارة في سنة ٢٨هـ/ ٦٤٨م ولعله غزاها ثانية في سنة ٢٩هـ/ ٦٤٩م ولكن في سنة ٣٣هـ/ ٦٥٤ م غـزاها العـرب من مصر والشام بقصد احتلالها وفعلاً تحقق ذلك فأبقوا فيها الحاميات وأسسوا المساجد(٢٧).

إن هـذا النشـاط البحري المتزايد من قبل العرب أقلق الروم البيزنطيين الأمـر الذي دفع الإمبراطور قنسطانز الثاني (٦٤٢ - ٦٦٨م) إلى جمع عدد من المراكـب لم يجمعها من قبل ويقال أنها كانت تزيد عن الألف، وقرر الهجوم بها علـى الأسـطول العربـي بقصد احتلال الإسكندرية أكبر موانئ البحر الأبيض المتوسـط فخرج إليه الأسطول العربي بكامل عدته بقيادة والي مصر عبد الله بن سعد فتقابل الأسطولان قرب سواحل آسيا الصغرى سنة ٣٤هـ/ ٦٥٤م في معركة بحـرية حاسمة عرفت باسم "معركة ذات الصواري" لكثرة سواري المراكب، وقد كـان القـتال عنيفاً بين الطرفين فبعد ليلة أمضوها في العبادة نظم القادة الجنود علـى ظهر المراكب في صفوف ثم قرب السفن بعضها ببعض بعد ربطها واقتتل الطـرفان بالسـيوف والخناجر فقتل من البيزنطيين ما لا يحصى ودمرت معظم مراكبهم، وفر الإمبراطور البيزنطي إلى جزيرة صقلية، وقد كان النصر في هذه المعـركة حاسما مهد الطريق لسيطرة العرب البحرية فأخذوا يغيرون على جزر مثل صقلية ورودس[٢٨].

ويمكنـنا القول بأن الخليفة عثمان بن عفان نجح في القضاء على حركة الـتمرد فـي الولايـات التي كانت قد أذعنت من قبل لسلطان العرب، ورد هذه الولايات إلى حمى الطاعة، وأدت المحاولات العسكرية التي بذلك في خلافته إلى امـتداد الفتوحات العربية وإلى اتخاذ المسلمين قواعد حربية لحماية الإمبراطورية العربية الإسلامية الناشئة وإلى إنشائهم قوة بحرية إلى جانب قواتهم البرية.

جمع القرآن:

لمـــا لوحـــظ اختلاف المسلمين في قراءة القرآن أشار أحد المسلمين على عـــثمان أن يـــدرك أمـــر المســـلمين قـــبل أن يختلفوا في الكتاب اختلاف اليهود والنصـــارى فطلـــب عثمان من حفصة بنت عمر بن الخطاب أن ترسل الصحف لكـــي تنسخ في مصاحف، وكلف عثمان كل من زيد بن ثابت وعبد الله بن الزبير وســـعيد بـــن العاص وعبد الله بن الحارث بن هشام فنسخوه في المصاحف وقال لهـــم عـــثمان: "إذا اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت في شيء من القرآن فاكتبوه بلسان قـــريش فإنما نزل بلسانهم ففعلوا" حتى إذا ما أتموا هذا العمل رد عثمان الصحف إلـــى حفصـــة وأرســـل إلى كل مكان بمصحف مما نسخ، وأمر عثمان بحرق ما سوى ذلك من المصاحف أو الصحف[٢٩].

المبحث الثالث

الفتنة ومقتل سيدنا عثمان

أسباب الفتنة:

حـــدث فـــي آخر خلافة عثمان ما يسميه المؤرخون المسلمون بـ "الفتنة" ويقصـــدون بهـــا انفصام وحدة المسلمين السياسية واختلاف آرائهم، وهي الوحدة التـــي أوجدهـــا أبو بكر بقمع الردة وزادها عمر قوة بما أوجد لها من تنظيم، وقد ترتـــب على هذه الفتنة حروب بين السلمين راح الخليفة نفسه ضحيتها، ولا يوجد اتفاق بين المؤرخين حول الأسباب المباشرة لوقوع هذه الفتنة، ولكن هناك ترجيح لجملة من العوامل والأسباب غير المباشرة لوقوعها.

لعـــل أهـــم تلك العوامل تغير ظروف المجتمع العربي فقد كان عمر بن الخطـــاب يحرص كل الحرص على أن يلتزم العرب بعد الفتوحات حياتهم الأولى القائمـــة علـــى الخشونة والتقشف والزهد خشية أن تجرفهم حياة الترف في المدن المفـــتوحة في تيارها، فقد ترتب على فتح الشام والعراق ومصر أن تفتحت أعين الفاتحيـــن علـــى بيئات حضارية جديدة لم يشهدوها من قبل، فهمّوا بالخروج عن بداوتهـــم والاستمتاع بما أتت به الحياة الحضارية من ألوان الترف المباح الذي لا يـــتعارض مـــع الإســـلام، ولكـــن عمر نهاهم عن ذلك وفرض عليهم الإقامة في

معسكرات خارج المدن يعيشون فيها على النمط البدوي، حفاظاً على خشونتهم التي جعلت منهم محاربين أشداء.

على أن السياسة التي ألتزمها عمر لم تلبث أن انتهت بانتهاء عصره، فلما تولى عثمان الخلافة لم يتشدد كما كان عمر، وإنما اتبع مع المسلمين سياسة تقوم على التساهل فانطلق العرب في عصره إلى حياة الترف وحصروا على الاستمتاع بها في الحدود المشروعة، فانتقوا في مأكلهم ومشربهم وفي ملبسهم وشيدوا القصور السامقة المنمقة الجدران الموزونة الابعاد بدلاً من الدور الساذجة التي كانوا يعيشون فيها في البادية.

وهكذا أدت سياسة التساهل واللين التي اتبعها عثمان بعد شدة عمر وتضييقه على المسلمين إلى انطلاق كبار الصحابة والتابعين إلى الأمصار الإسلامية ومشاركتهم في إنشاء ارستقراطية دينية فقد أثروا ثراء فاحشا وابتنوا القصور ووزعوا الأراضي والخطط، بينما كانت هناك طبقة فقيرة معدمة من المحاربين استقرت في الأمصار بعد الفتح.

ويعلل بعض المؤرخين[٣٠] إقبال عمّال عثمان وكثير من أهل عصره على الترف بأن عثمان كان في غاية الجود والكرم والسماحة والبذل في القريب والبعيد، فسلك عماله وكثير من أهل عصره طريقته وتأسوا به في فعله، من المعروف أن عثمان بنى داره في المدينة في سنة ٢٧هـ بالحجر والكلس وجعل أبوابها من الساج والعرعر واقتنى أموالاً وجنانا وعيوناً بالمدينة، وذكروا أنه تطاول في البنيان حتى عدوا سبع دور بناها بالمدينة[٣١] وقد حذا كثير من الصحابة حذوه ففي أيامه اقتنى جماعة من الصحابة الضياع والدور في مقدمتهم

مـــروان بـــن الحكـــم الـــذي بنى القصور بذي خشب (وادٍ على مسيرة ليلة من المديـــنة)[٣٢] والزبير بن العوام بنى دارة بالبصرة تنزلها التجار وأرباب الأموال وأصـــحاب الجهـــاز مـــن البحرييـــن وغـــيرهم، كما ابتنى دوراً بمصر والكوفة والإســـكندرية، وابتنى طلحة بن عبيد الله التميمي داره بالكوفة المعروفة بالكناسة بـــدار الطلحييـــن، وشيّد داراً بالمدينة بناها بالآجر والجص والساج، كذلك ابتنى ســـعد بـــن ابي وقاص داره بالعقيق فرفع سمكها ووسع فضاءها، وجعل أعلاها شرفات.

وذكـــروا أن زيـــد بن ثابت حين توفي خلف من الذهب والفضة ما كان يكســـر بـــالفؤوس غير ما خلف من الأموال والضياع بما قيمته مائة ألف دينار. كذلـــك ذكروا أن المقداد بن الأسود ابتنى داره في المدينة في الموضع المعروف بالجـــرف علـــى أميال من المدينة، وجعل أعلاها شرفات وجصصها من الظاهر والباطـــن، وأحصـــوا ما خلف يعلي بن منبه بعد وفاته فوجدوه قد ترك خمسمائة ألف دينار وديونا على الناس وعقارات بما قيمته ثلاثمائة ألف دينار[٣٣].

إن هذا التساهل مع كبار الصحابة في الإثراء واقتناء القصور فضلاً عن الإســـراف في إدرار القطائع والأرزاق والأعطيات على أقوام بالمدينة لم يكونوا مـــن الصحابة ولم يذبوا عن الدين، أدى إلى ظهور الترف بوضوح في المجتمع الإســـلامي وعـــودة الحجـــاز إلى الحواضر الحجازية القديمة، وانتشار نوع من الرفاهـــية التي لا تتناسب قط مع ما ساد الدولة العربية من تقشف في خلافة أبي بكر وعمر رضي الله عنهما.

لقــد كانت نتيجة هذا الثراء أن ظهر اللهو والترف في المجتمع الحجازي فعــاد أهله إلى سماع قصائد الحب كما جلبوا القيان الفارسيات والروميات بحيث اشتهرت مدينة النبي ومكة في زمن عثمان بوجود أمهر المغنيين(٣٤).

وقــد كان الخليفة نفسه يعيش عيشة فيها دعة ورفاهية وينظر إلى عمر علــى أنــه حمّل نفسه ما لا تطيق فقد كان عمر يعيش على العيش الخشن وخبز الشعير والقناعة باليسير(٣٥).

بيــنما ابــتعد سـيدنا عثمان عن هذه السياسة التقشفية فكان يلبس الخبز والطيلســان وفاخر الثياب ويذكر المؤرخون أنه شد أسنانه بالذهب(٣٦) وكان يأكل اللحــم والســمن وصغار الضأن مع ألين الطعام، صحيح أنه كان يأكله من ماله الخــاص إذ كــان أكثر قرش مالاً وأجدهم في التجارة ولكنه بحكم منصبه كخليفة للمســلمين كــان عليه أن يصطنع الزهد ليكون مثلاً للأمة الإسلامية، ولذلك أخذ عليه أبو ذر الغفاري إقباله على الدنيا وكان أبو ذر يذهب إلى أن المسلم لا ينبغي أن يكــون له فــي ملكة أكثر من قوت يومه وليلته أو شيء ينفقه في سبيل الله أو يعــده لكــريم، ويأخذ بظاهر القرآن ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾(٣٦)، فكــان يقــوم بالشــام ويقــول: "يا معشر الأغنياء واسوا الفقــــراء بشر الذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله بمكاو من نــار تكوي بها جباههم وجنوبهم وظهورهم" فما زال حتى ولع الفقراء بمثل ذلك وأوجــبوه علــى الأغنــياء(٣٧) فأمر عثمان معاوية بنفيه إلى "الربذة" -من قرى المدينة- وظل فيها حتى وفاته.

مـــن الأمور التي أخذت على سيدنا عثمان ﷺ أن الناس قد أنكروا قيامه بعـــزل العمـــال القدامى الذين كانوا يتولون الأمصار الإسلامية والذين قد ولاهم عمـــر بـــن الخطاب ﷺ وعين بدلهم أقرباءه من الأمويين مع أن عبد الرحمن بن عـــوف قبل إعلان خلافته أخذ عليه المواثيق ألا يحمل بني أمية على رقاب الناس فقـــد أســـاء الكثير من هؤلاء وتجاوزوا الحدود، ووضعوا حداً للتقاليد السائدة في عصـــر عمـــر. فاستقدم عثمان عمه الحكم بن أبي العاص وابنه مروان وغيرهما من بني أمية، والحكم هو طريد رسول الله ﷺ كان قد غربه عن المدينة ونفاه عن جواره[٣٨].

فولـــى مروان ابن الحكم -ابن عمه- على المدينة وكتب له بخمس غنائم إفريقـــية وعبد الله بن سعد بن أبي سرح -أخوه من الرضاعة- على مصر مكان عاملهـــا الكفء عمرو بن العاص، وعبد الله بن عامر -ابن خاله- على البصرة، وســـعد بن أبي وقاص والوليد بن عقبة وسعيد بن العاص -وكلهم أقربائه- على الكوفـــة، وكان معظم هؤلاء العمال غير جديرين بمناصبهم وكان عرب الأمصار يشكون منهم ويتمنون زوالهم.

لقـــد كـــان أبو مروان يسمى طريد النبي كما أشرنا وعبد الله بن سعد بن أبي السرح مطعون الخلق والدين، فقد هدر النبي ﷺ دمه بسبب تغييره في القرآن عـــند كتابته الوحي لولا شفاعة عثمان والوليد بن عقبه، كذب على النبي ونزلت هـــذه الآية بسببه ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا﴾[٣٩]، وهو ممن أخبر رسول الله ﷺ أنـــه مـــن أهل النار، وذكروا أنه شرب الخمر مع ندمائه ومغنيه يوماً من أول اللـــيل حـــتى الصباح، لما آذنه المؤذنون بالصلاة خرج في غلائله فتقدم إلى

المحـــراب فـــي صـــلاة الصبح (في مسجد الكوفة) فصلى بهم أربع ركعات، ثم قـــال: أتريدون أن أزيدكم، وفي ذلك يقول الحطيئة:

شـــهد الحطيـــئة يـــوم يلقـــى ربـــه

أن الولـــــيد أحـــــق بـــــالعذر

نـــادى، وقـــد تمـــت صـــلاتهم

أأزيدكـــم؟ ثمـــلاً، ومـــا يـــدري

لـــيزيدهم أخـــرى، ولـــو قـــبلوا

لقرنـــت بيـــن الشـــفع والوتـــرِ

وأشاع الناس في الكوفة فعاله الذميمة وتجلت لهم مظاهر فسقه ومداومته علـــى شـــرب الخمر، فهجم عليه جماعة من المسلمين فوجدوه ثملاً وقد اضطجع علـــى ســـريره لا يعقل فأيقظوه من رقدته فلم يفق فانتزعوا خاتمه من يده ورحل منهم اثنان إلى المدينة فأخبرا عثمان بخبره وأخرجا له خاتمه فزجرهما ودفع في صـــدريهما فخـــرجا إلى علي بن أبي طالب وأخبراه بقصة الوليد بن عقبة فخرج علـــي إلـــى عـــثمان وقال له: "دفعت الشهود وأبطلت الحدود" فطلب منه عثمان المشـــورة فيما ينبغي عليه عمله فأشار عليه بأن يبعث إلى عقبة من يستقدمه فإذا وجهت إليه التهمة ووجهت بالشاهدين ولم يستطع الرد يقام عليه الحد فأمر عثمان باســـتقدام الولـــيد فاستقدم وأقام عليه الشاهدان الشهادة فلم يدل بحجة فألقى عثمان الســـوط إلى علي فأخذه وجلده به أربعين جلدة[٤٠]، وقيل جلده عبد الله ابن جعفر بـــن أبي طالب، ثم ولى عثمان بعده سعيد ابن العاص فاستبد بالأموال وعبث بها

وأسـاء السـيرة وذكـروا أنـه كتب مرة إلى عثمان يقول: "إنما هذا الواد قطين لقـريش، فـرد عليه الاشتر ابن الحارث النخعي: أتجعل ما أفاء الله علينا بظلال سـيوفنا ومراكز رماحنا بستاناً لك ولقومك" فقدم الاشتر النخعي في سبعين رجلاً مـن أهل الكوفة إلى عثمان وأبلغوه سوء سيرة سعيد ابن العاص وطالبوا عثمان بعزلـه عـنهم فكره عثمان أن يعزله ولكنه اضطر إلى ذلك اضطرارا فولى أهل الكوفة على أنفسهم أبا موسى الأشعري(٤١).

ومـع كل ذلك لم تظهر الفتنة إلا بين عرب الأمصار الذين كان معظمهم جفاة من صميم البادية لا تهمهم قريش بقدر اهتمامهم بسير أمور الدولة الإسلامية سـيرا حسناً فضلاً عن حقدهم على قريش لمكانتها ولظهور الإسلام فيها وتمتعها بمعظم خيرات الفتوح.

فهؤلاء الذين قامت الفتوح على أكتافهم كانوا يريدون أن يكون لهم رأي مسـموع فـي اختيار الخليفة، بحيث أنهم أرسلوا أمراءهم إلى المدينة بعد موت عمـر وإذا كانوا قد ارتضوا الخليفتين الأولين دون معارضة لمكانتهم، ولجسامة الظروف في ذلك الوقت، وهي ظروف ارتداد العرب والفتح ولكن هذه الظروف الحـرجة كانت قد انتهت واقتصرت الفتوح على تأمين حدود الخلافة، فلم تعجبهم طـريقة اختـيار خلـيفة الإسلام دون مشورتهم ومن وراء الكواليس. من ناحية أخـرى لم يرَ أهل "المدينة" تحقيقاً للوعد الذي بذله لهم المهاجرون في سقيفة بني ساعدة بأن يكونوا هم الوزراء فهم لم يستشاروا إطلاقاً في اختيار عثمان(٤٢).

نتـيجة لكـل هـذا وذاك فشت الأقاويل بين عرب الأمصار بنقد الخليفة وتصرفاته، وساعد على ذلك لينه وحلمه بعد شدة عمر، وأيضاً كبر سنه، فقد بلغ

الثانـــية والثمانين من عمره، مع العلم أنه لم يجرؤ أحد من قبل على نقد أبي بكر وعمر، حيث كان كل منهما يسوس الأموال والمناصب بالعدل والقسطاس.

في سنة ٣٥هـ/ ٦٥٥م خرجت جماعات من الثوار على عثمان في مصر والبصرة والكوفة إلى المدينة لتطالبه بالإصلاح أما الشام فلم يظهر منها ممتعض لوجود معاوية القوي فيها، وكان هذا التصرف يعني تدخلاً صريحاً من الأمصار فـــي أمور السياسة العليا واجتراء على هيبة الخلافة، وبدلاً من أن يظهر الخليفة قـــوة وحـــزماً أمام عرب الأمصار ضعف ولجأ إلى مفاوضتهم ووعدهم بإصلاح الأخطاء واعترف بأنه زل وتاب مما جعل أغلبهم يقبلون العودة إلى الأمصار(٤٣).

ولكـــن بعـــد رحيلهم عن المدينة ادعى عثمان في إحدى خطبه أن عرب الأمصـــار اعـــترفوا لـــه بأن ما بلغهم عنه باطلاً ولما كان أهل المدينة على علم بحقـــائق الأمور فقد استكثروا على الخليفة الكذب، وحينما خطبهم رموه بالحجارة حـــتى وقع مغشياً عليه، من ناحية أخرى وقع في يد عرب مصر الفسطاط كتاب مرسل من عثمان إلى عامله(٤٤) يأمره بجلد المتمردين والمَثلة بهم وطول الحبس، ولذلـــك أسرع عرب الأمصار بالعودة إلى المدينة ليجابهوه بالكتاب ولكن الخليفة أنكـــر ممـــا أوغر صدورهم وجعلهم يحاصرون بيته بقصد تعطيشه ومنع القوت عنه حتى يخلع نفسه عن الخلافة.

مقتل عثمان:

لما تحقق سيدنا عثمان من خطورة الحالة بالمدينة ورأى نفسه عاجزاً عن إخمـــاد حركة الثوار بعث بكتب إلى الأمصار يطلب فيها المساندة والنجدة وليس

مـن شـك فـي أنـه كـان بين أهل المدينة من عمل على تشجيع هؤلاء الثوار ونصـرتهم، ثـم انضـموا إليهم أثناء حصارهم دار عثمان، فقد كتب عثمان إلى معاويـة بـن أبي سفيان بالشام حين تعرض لسخط الناس ونقدهم قائلاً: "بسم الله الرحمـن الرحـيم، أمـا بعد، فإن أهل المدينة قد كفروا وأخلفوا الطاعة ونكثوا البـيعة، فأبعث إليّ من قبلك من مقاتلة أهل الشام، ثم أرسل إلى عبد الله بن عامر بالبصرة نسخة من هذا الكتاب".

لـم يـتجاوز حصـار الثوار في بادئ الأمر الإحاطة بدار عثمان فكان الخلـيفة حـراً يخرج من داره ويصلي بالناس ويسعى الرسل في أثناء ذلك بينه وبيـن الـثوار وكان الثائرون من أهل الأمصار يرمون من وراء المحاصرة إلى إرغامـه على خلع نفسه لكنه أبى النزول عن الخلافة، وقال: "... أما قولكم تخلع نفسـك، فـلا أنـزع قميصاً ألبسنيه الله عزوجل، وأكرمني به وخصني به على غيري ولكني أتوب وأنزع ولا أعود لشيء عابه المسلمون".

علـى أن التوتر الذي ساد المدينة من جراء توافد الثوار وحصارهم دار عـثمان مـا لبـث أن اشتد عندما علم الثائرون أن عمال الخليفة في الأمصار قد أجـابوا طلب الخليفة فأعدوا الجند لإرسالهم إليه ليكونوا عوناً له بالمدينة يشددون الحصـار على عثمان ليرغموه على التنازل عن الخلافة، ووصل ببعضهم الأمر إلى تهديده بالقتل.

لـم يكـن عـثمان يظن أن من بين المسلمين من يقدم على قتل خليفتهم، ويتضح لنا ذلك من قوله لأصحابه: "ولم يقتلونني وقد سمعت رسول الله ﷺ يقول "لا يحـل دم امـرئ مسـلم في إحدى ثلاث: رجل كفر بعد إيمانه، أو زنى بعد

إحصانه أو قتل نفسا بغير ذنب" فوالله ما زنيت في جاهلية ولا في إسلام قط، ولا تمنيت أن لي بديني بدلا منذ هداني الله، ولا قتلت نفسا، ففيم يقتلونني؟.

طال حصار الثوار لدار عثمان، وساءت معاملتهم له، فمنعوه من الخروج والصلاة في المسجد وحالوا دون وصول الماء إليه، وصار الزاد لا يصل إليه إلا خفية وقد قيل أن الحصار استمر أربعين يوماً، وكان عثمان من حين لآخر يحذر الثائرين الفتنة ويذكرهم بآيات الله فلا يعبؤون بقوله، ويظهر أن الأمور تطورت بسرعة، فأشعل الثوار النار في باب داره واقتحموه وكان جالساً في محرابه يقرأ القرآن، فضربوه بالسلاح وبعجوا بطنه بالحراب وشلخوا هامته بالعمد فسال دمه على المصحف في حجره، وقد حاولت زوجته نائلة بنت الفرافصة -التي تزوجها من قبيلة كلب على حدود الشام- اتقاء سيوف الثوار بيدها فقطعوا إصبعين من أصابعها، فكشفت عن قناعها، ورفعت عن ذيلها ليكون ذلك ردعا لهم، ولكن هذا لم يمنع من قتل زوجها الذي ألقي بجسده في الأوساخ وقد سعت نائلة إلى دفن زوجها وأرسلت بقميصه المخضب بالدم وأصابعها التي قطعت إلى معاوية لتحريضه على الأخذ بثأر الخليفة المقتول مما ترتب عليه أن هبت ريح الفتنة بين المسلمين(٤٥).

واعترافاً بفضل عثمان وإنصافاً له يجب أن نجلّه وأن نسترحم عليه لأنه رضوان الله عليه كان مصدر خير للمسلمين وداعية هداية وسلام، ثم هو أحد العشرة المبشرين بالجنة وأحد الستة الذين توفى رسول الله ﷺ وهو راضٍ عنهم.

وإنه من الإنصاف في حق عثمان ألا ننظر إلى إحجامه عن أخذ الثائرين ضده بالشدة والقسوة ومعاملتهم باللين والصفح على أنه من أثر وهن من

شـيخوخته أو ضـعف أراده وغير ذلك على أنها سجيته التي طبقها تطبيقاً عمليا طـوال حـياته، فقد كان يرجو الهدوء والاستقرار لأمته، لكن مهارة الأعداء في الكـيد له وكذلك عدم إخلاص بعض قرابته له في المشورة وفي السلوك وسعيهم لخدمـة مصـالحهم الخاصـة على حساب مصالح الأمة حال بينه وبين ما كان يـرجوه من أمن وأمان وأدى إلى تلك النهاية الأليمة والتي دفعت الأمة الإسلامية ثمنها باهظاً في المراحل اللاحقة.

هوامش الفصل الثالث

١- الطبري، ج٤، ص٤٢٠، ابن هشام، السيرة النبوية، ص٢٥٠.

٢- ابن هشام، ص ٢٥٠ - ٢٥٣.

٣- ابن سعد، ج٣٠، ص٣٥٢.

٤- المسعودي، مروج الذهب، ص٤٢٦.

٥- الطبري، ج٥، ص١٣٠ - ١٣٢

٦- المصدر نفسه، ج٤، ص٢٣٠ - ٢٤٢.

٧- المصدر نفسه، ج٤، ص٢٣٣- ٢٣٤.

٨- ابن الأثير، ج٣، ص٣٠- ٣١.

٩- الطبري، ج٤، ص٣٤٤ - ٣٤٥.

١٠- المصدر نفسه، ج٤، ص٣٤٥.

١١- المصدر نفسه والجزء والصفحة.

١٢- المصدر نفسه والجزء والصفحة.

١٣- المصدر نفسه، ج٤، ص٢٩٢، ٢٤٤، ٢٥١ - ٢٥٢.

١٤- البلاذري، ص٤٥٣.

١٥- معجم البلدان، ج١، ص٢٠٣.

١٦- البلاذري، ص٢٨٩.

١٧- ابن عبد الحكم، ص١١٩.

١٨- المصدر نفسه، ص١٢٨.

١٩- الطبري، ج٤، ص٣١٧.

٢٠- البلاذري، ٢٣١ - ٢٣٤.

٢١- ابن عبد ربه، العقد الفريد، ج٢، ص٣٧٥- ٣٧٦.

٢٢- ابن عبد الحكم، ص١٣٢.

٢٣- البلاذري، ص١١٦ - ١١٧.

٢٤- ابن خلدون، المقدمة، ص١٩٩.

٢٥- ابن عبد الحكم، ص١٩٣.

٢٦- ابن الأثير، ج٣، ص٤٨.

٢٧- البلاذري، ص١٥٢.

٢٨- ابن الأثير، ج٣، ص٥٨- ٥٩، ابن عبد الحكم ص١٩١.

٢٩- ابن الأثير، ج٣، ص٥٦.

٣٠- المسعودي، مروج الذهب، ج٢، ص٣٣٢، ابن خلدون، المقدمة، ص٣٦٢.

٣١- ابن قتيبة، الإمامة والسياسة، ص٣٣.

٣٢- ياقوت الحموي، ج٢، ص٣٧٢.

٣٣- المسعودي، ج٢، ص٣٣٢- ٣٣٣.

٣٤- أمـــثال: ابن محرز وطويس وابن سريح، ابن خلدون، المقدمة، ص ٣٦٥.

٣٥- ابن الأثير، ج٣، ص٥٧.

٣٦- التوبة: ٣٤.

٣٧- الطبري، ج٥، ص٦٦.

٣٨- المســـعودي، ج٢، ص٣٣٤، ابن الأثير، ج٣، ص١٨٣، اليعقوبي، ج٢، ص١٧٠.

٣٩- الحجرات: ٦.

٤٠- المسعودي، ج٢، ص٣٣٦، ابن الأثير، ج٣، ص١٠٧.

٤١- ابن الأثير، ج٣، ص١٣٨.

٤٢- المصدر نفسه، ج٣، ص١١١.

٤٣- المصدر نفسه، ج٣، ص٨٣- ٨٥.

٤٤- لقد روى الطبري قصة ذلك الكتاب، ومواجهة الثوار لعثمان بالأمر وقســمه علـــى أنه ما كتب ولا أمر بكتابة هذا الكتاب، أنظر: ج٥، ص١٠٨.

٤٥- ابن الأثير، ج٣، ص١٧٨.

الفصل الرابع

خلافة علي بن أبي طالب رضي الله عنه

المبحث الأول: شخصيته، بيعته، منهجه في الحكم

المبحث الثاني: معركة الجمل

المبحث الثالث: معركة صفين ونهاية الخلافة الراشدة

المبحث الأول

شخصيته، بيعته، منهجه في الحكم

شخصية علي بن أبي طالب رضي الله عنه:

ولـد علـي من أبوين من بني هاشم قبل البعثة بعشر سنوات، فأبوه أبو طالـب ابـن عبد المطلب بن هاشم عم الرسول، وأمه فاطمة بنت أسد ابن هاشم، وقـد سـمته أمه في البداية "حيدرة" على اسم أبيها أسدن والحيدرة هو الأسد، ثم غيّره أبوه فسماه "عليا" وبهذا الاسم عرف واشتهر، ومن الثابت أن فاطمة أسلمت وهاجرت مع الرسول، وكانت من السابقات إلى الإسلام.

كـان علـي أصغر أخوته، ونظراً لما أصاب أبا طالب من الجهد بسبب كـثرة عياله عرض عليه ذوو قرباه كفالة بعضهم من قبيل التخفيف عنه، فاحتفظ بابـنه عقـيل الذي كان أثيراً لديه وسمح لأخيه حمزة بأن يأخذ جعفر، وللعباس يـأخذ طالـب وللنبي بأخذ علي، وهكذا قدّر لعلي أن يتربى في كنف النبي الذي أحاطـه برعايـته وأكرم مثواه رداً لجميل عمه نحوه حين كفله في صغره عقب موت جده عبد المطلب.

ولمـا بعـث النبـي كان علياً صبياً فآمن بدعوته فكان أول من آمن من الصبيان. ولا عجب! فكل الذين ضمهم بيت النبي وقتذاك أظهروا حبهم الشديد له

وبادروا إلى الدخول في الإسلام وفي مقدمة هؤلاء زوجه الطاهرة السيدة خديجة ومولاه زيد بن حارثة الذي فضل أن يعيش في كنف النبي على العيش مع والده وقد أحنَّ على النبي مثلهما وتحمس للدعوة الإسلامية وهو بعد صبي، فحين دعا النبي قومه عند الصفا وناشدهم الدخول في الإسلام ومؤازرته على نشره لم يستجيب منهم أحد وقال عمه أبو لهب في سخرية لاذعة: "تبا لك ألهذا جمعتنا؟ فانبرى علي من بين الحاضرين وقال للنبي: أنا وزيرك.. أنا عون لك حرب على من يعاديك".

ولعلي تاريخ حافل في خدمة الإسلام منذ صباه وأبلى بلاء منقطع النظير فقد نام مكان الرسول ليلة أن هاجر إلى يثرب وهو يعلم أن الكفار وطدوا العزم على قتله، ثم لحق بالرسول بعد أن رد الودائع التي كانت لدى الرسول إلى أهلها، فضرب علي بذلك أروع أمثلة البطولة والفداء، وحين آخى النبي في يثرب بين اتباعه من المهاجرين والأنصار خص علياً من بين هؤلاء يشرف أخوته عليه الصلاة والسلام، ثم لم يلبث أن زوجه من ابنته فاطمة في السنة الثانية للهجرة.

ومن الثابت أن علياً شهد المشاهد كلها باستثناء "تبوك" إذ عهد إليه النبي برعاية شؤون أهله حين خرج في هذه الغزوة، وكان علي في كل هذه المشاهد النجم اللامع والبطل المغوار، ففي يوم بدر كان ثالث ثلاثة قدمهم النبي لمبارزة الكفار، وعلى الرغم من صغر سنه يومذاك فلم يمهل خصمه إذ بادر بالإجهاز

علـــيه، وفـــي يـــوم الخندق اجترأ وهو فتى ناشئ على عمرو بن عبد ود فارس جزيرة العرب الذي كان يقوم بألف رجل عند أصحاب وعند أعدائه على السواء.

وقـــد خرج عمرو يومذاك مقنعاً في الحديد ينادي في جيش المسلمين: هل من مبارز؟فقال علي بأعلى صوته: أنا له يا رسول الله، فأشفق عليه وقال له: إنه عمـــرو، اجلس، ثم عاد عمرو ينادي في تحد ظاهر: ألا رجل يبارز؟ وأعاد هذا القـــول المرة تلو المرة، وعليّ يحاول النهوض إليه والرسول يقول له إجلس، إنه عمـــرو، وهـــو يجيبه، وإن كان عمروا ... وأخيراً أذن له الرسول بالنهوض إليه وقـــد استنكف عمرو منازلة فتى صغير وراح يقول: يا ابن أخي إن من أعمامك مـــن هـــو أســـن، وإني أكره أن أريق دمك، فرد عليه علي بقوله: لكني والله لا أكـــره أن أريق دمك، فاستشاط عمرو غضباً ووجه ضربة بسيفه البتار إلى علي فـــتلقاها بدرقته، ولم يلبث أن رد عليه بضربة أردته صريعاً، مما حدا بالمسلمين إلى أن يجأروا يؤمذاك بالتهليل والتكبير.

وفي غزوة خيبر وقع اختيار الرسول على علي بن أبي طالب ﷺ وقال: لأعطيـــن الراية غداً لرجل يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله، فيفتح الله عليه، فلمـــا أصبح الناس دعا عليه ووجهه إلى ما استعصى على المسلمين من حصون خيبر، فأتم الله فتحها على يديه.

ازدانـــت شجاعة علي بالتورع عن البغي والمروءة مع الخصم قوياً كان أو ضـــعيفاً، وســـلامة الصـــدر مـــن الضغن على العدو بعد الفراغ من القتال، والدلـــيـــل على ذلك أنه على الرغم من قوته البالغة وشجاعته النادرة لم يبدأ أحد

بقـــتال، فمـــا رفع يده بالسيف قط إلا وقد بسطها قبل ذلك للسلام، ومن الثابت أنه كـــان ينصح ابنه الحسن بقوله: "لا تدعو إلى مبارزة، فإذا دعيت إليها فأجب، فإن الداعـــي إلـــيها باغ والباغي مصروع"، وقد علم علي ذات يوم أن جنود الخوارج يغـــادرون عســـكره وهم يتأهبون لحربه، ونصحه البعض بضرورة المبادرة إلى قـــتالهم قبل أن يشرعوا هم في قتاله، لكن عليا أبى أن يكون هو البادئ في القتال وقال لنا صحبه: "لا أقاتلهم حتى يقاتلوني" وقد التزم علي بهذا المبدأ على الدوام، فلـــم يكن المبادئ بالقتال في وقعتي الجمل وصفين، ولا في غيرهما من الوقائع، صغرت أو كبرت، وضح فيها عداء العدو أو غمض.

كـــان علـــي منع جنده من الإجهاز على مدبر أو جريح، ومن أن يكشفوا ســـتراً أو يـــأخذوا مالاً، وقد صلى في وقعة الجمل على القتلى من أصحابه ومن أعـــداء على السواء، ولما ظفر بعبد الله ابن الزبير ومروان بن الحكم وسعيد بن العـــاص –وهـــم ألـــد أعدائه المؤلبين عليه– عفا عنهم ولم يتعقبهم بسوء، وظفر بعمـــرو بـــن العـــاص وهو أخطر عليه من جيش ذي عدة، فأعرض عنه وتركه ينجو بحياته حيث كشف عن سوأته اتقاء لضربته.

وحال جند معاوية بينه وبين الماء في وقعت صفين وهم يقولون له: ولا قطرة حتى تموت عطشا، فلما حمل عليهم وأجلاهم عنه سمح لهم أن يشربوا منه كما يشرب جنده، وحين راجعه أتباعه حرص علي على زيارة السيدة عائشة بعد وقعـــة الجمل التي قادتها ضده رغم انتصاره على جيشها، كما ودعها أكرم وداع حيث سار في ركابها أميالاً وسير معها من يخدمها ويحف بها على الرغم من أن

طلحة بن عبيد الله قد خلع بيعته وجمع الجموع لحربه، إلا أنه رثاه حين قتل رثاء محـــزون يفـيض كلامه بالألم والمودة، ولم يتخل علي عن هذه المبادئ السامية حتى آخر رمق في حياته فمن الثابت أنه نهى أهله وأصحابه عن أن يمثلوا بقاتله عبد الرحمن بن ملجم أو أن يقتلوا أحداً غيره.

كذلـــك اشتهر علي بحرصه الشديد على أموال المسلمين، فيذكر الطبري أن خـــازن بيت المال في خلافة علي قال: "دخل علي يوماً وقد زينت ابنته فرأى علـــيها لؤلـــؤة من بيت المال فقال: من أين لها هذه؟ لله عليّ أن أقطع يدها، فلما رأيت جدّه في ذلك قلت: أنا يا أمير المؤمنين زينت بها ابنة أخي، ومن أين كانت تقـــدر عليها لو لم أعطها؟ فسكت" وطلب أخوه عقيل بن أبي طالب شيئاً ذات يوم مـــن بيـــت المـــال بدون وجه حق فمنعه علي وقال له: "يا أخي ليس لك في هذا المـــال غير ما أعطيتك، ولكن أصبر حتى يجيء مالي وأعطيك ما تريد" غير أن عقيلاً لم يرضه هذا الجوب وفارق أخاه إلى بلاد الشام حيث قصد معاوية بن أبي سفيان" [١].

مـــن جانب آخر كان علي فوق بلائه في الحرب مدينة علم وورع وتقوى وفضـــائل يعرفها الجميع ومضرب الأمثال في العلم والفقه والفصاحة، يلقي القول فـــيأخذ بمجامع القلوب ويخطب الخطبة فيثير النفوس، فيذكر السيوطي في تاريخ الخلفـــاء[٢]: إنـــه كـــان أشعر الخلفاء الراشدين، وقد احتوى الكتاب المنسوب إليه والمســـمى (نهج البلاغة) كثيراً من الأشعار والخطب البليغة والحكم النادرة. هذا فضـــلاً عـــن أنه كان يرجع إليه في كثير من مسائل الدين وتفسير القرآن ورواية

الحديث ومسائل الميراث والقضايا الفقهية المستعصية، وقد روي أن عمر كان يستعوذ من القضايا المعضلة ويقول: قضية ولا أبا حسن لها، وأبو الحسن كنية علي بن أبي طالب.

بيعة علي:

بعد مقتل الخليفة الثالث عثمان بن عفان أصبحت المدينة "عاصمة الدولة الإسلامية" في قبضة الثوار، وأصبح المسلمون بدون خليفة يقودهم ويجمع كلمتهم ويدبر أمورهم، وأوشكت الفوضى أن تطل برأسها وظل الحال على ذلك أربعة أيام بعد مقتل عثمان وفي اليوم الخامس أعلن الثوار أنهم لن يتركوا المدينة قبل اختيار خليفة جديد، لأنهم كانوا يعلمون أنه لابد للناس من إمام ولابد أن يبايع هذا الإمام في أسرع وقت قبل أن يستبد عمال عثمان بما في أيديهم، وخاصة أقواهم "معاوية بن أبي سفيان" وربما يرسل قواته إلى المدينة لإخضاعها لسلطته.

وعلى الرغم من اتفاق الثوار على ضرورة اختيار خليفة غير أنهم لم يتفقوا على شخص الخليفة، وقد اضطرب أمرهم وبقوا حيارى لا يدرون ماذا يصنعون وأدركوا أنهم إن رجعوا إلى أمصارهم بقتل عثمان دون تولية خليفة جديد اختلف الناس في أمرهم، كما أدركوا أنهم لن يستطيعوا وحدهم أن يقيموا للناس إماماً، وأنه لابد من الاستعانة بالمهاجرين والأنصار على ذلك فجمعوا أهل المدينة وقالوا لهم: "يا أهل المدينة أنتم أهل الشورى، وأنتم تعقدون الإمامة وحكمكم جائز على الأمة فانظروا رجلاً تنصبونه ونحن لكم تبع وقد أجلناكم

يومكـم، فـوالله لئن لم تفرغوا ليقتلن غداً علي وطلحة والزبير وأناس كثيرون، فذهـب أهـل المديـنة إلى علي يعرضون عليه الإمامة ويلحون عليه في قبولها وحاول أن يمتنع فخوفوه من الفتنة.

وهـناك رواية أخرى تقول: إن عليا قال لهم: "دعوني والتمسوا غيري، فإنّـا مسـتقبلون أمـراً -له وجوه وله ألوان - لا تقوم به القلوب ولا تثبت له العقـول" فقـالوا له: "نُنشدك الله ألا ترى ما نحن فيه؟ ألا ترى الفتنة؟" فقال: "قد أجبـتكم، واعلمـوا أنـي إن أجبتكم ركبت بكم ما أعلم، وإن تركتموني فإنما أنا كأحدكم إلا أني من أسمعكم وأطوعكم لمن وليتموه"، ثم افترقوا على ذلك واتعدوا الغد، وتشاور الناس فيما بينهم.

وفـي الـيوم التالـي الموافق ٢٣ من ذي الحجة سنة ٣٥ هجري اجتمع المسـلمون بالمسـجد فقال لهم علي: "إن كنتم لا تزالون على ما أبرمنا أمس فأنا معكـم علـى ذلك وإلا فلا سبيل لي على أحد" فقالوا له نحن على ذلك، وتداعى الـناس للبـيعة وبايعـه جمهور من كان حاضراً بالمدينة وتخلف عنها بعض من كـانوا بالمديـنة من الصحابة كسعد بن أبي وقاص وعبد الله بن عمر وحسان بن ثابـت والـنعمان بن بشير ومحمد بن مسلمة وأبو سعيد الخدري وأسامة بن زيد وغيرهم ممن اعتزلوا الفتنة"[٣].

أمـا طلحـة والزبير فقد اختلفت الروايات في موقف كل منهما من بيعة علـي ﷺ فبعضـها يـروي أنهما تأخرا عن البيعة حتى أكرها عليها فجيء بهما

قهــراً فبايعاه تحت ظلال السيوف وبعضها يروي أنهما كانا على رأس المبايعين لعلي بالخلافة عن رضا واختيار(٤).

لقــد تمــت البيعة لعلي بعد مقتل عثمان بخمسة أيام وظهر أن الأمور قد اســتقامت لعلي في الحجاز وفي الكوفة وفي البصرة وفي مصر، ولكن الذي كان يشــغل علــياً هــو الشام لعدم اشتراكه في البيعة من جهة ولأن واليه هو معاوية أقــوى الولاة وهو ابن عم عثمان من جهة أخرى، ولكن علياً كان يرى أن بيعته قــد انعقــدت ولزمت من تأخر عنها بإجماع من اجتمع عليها بالمدينة دار النبي وموطن الصحابة وهم أهل الحل والعقد.

وعلــى الــرغم مــن أن البــيعة قد تمت لعلي إلا أنه كانت توجد جبهة معارضــة -إن صحت هذه التسمية- ضد هذه البيعة، وأسباب هذه المعارضة لا يمكــن أن تفســر أو تــندرج في إطار الحرص على مصلحة الإسلام أو مصالح الأمة بقدر ما كانت تعبر عن مصالح وأهواء شخصية، فالمعارضة لم تكن شعبية بقــدر ما كانت معارضة "نخبة" أو مجموعة محددة من الصحابة ويمكن أن نفسر أسبابها بالآتي:

كــان علــي ﷺ غرة بن هاشم وكانت أحقيته في الخلافة مبنية في المقام الأول -في نظر البعض على الأقل- على قرابته من الرسول ﷺ وكان معنى هذا أن إســناد الخلافة إليه سوف يجعلها وراثية في بنيه من بعده، وهذا مبدأ لا يقرّه الإسلام ولا تقبله العرب، ولا يرتضيه الطامعون في الخلافة.

من جانب آخر - وهو الأهم - أن وصول علي إلى حكم الدولة الإسلامية معناه العودة إلى المبدئية والصلابة والحزم في تطبيق المبادئ الإسلامية هذا في الوقت الذي استراح فيه كثير من الناس إلى سهولة ولين وتسامح عثمان بعد تشدد عمر -رضي الله عنهما- فكيف لهم العودة إلى الدقة والصرامة والحساب، كما كان هناك الكثيرون الذين أثروا بدون حق وحصلوا على نفوذ كبير ومعنى إسناد الخلافة إلى علي ضياع ثرواتهم وفقدان سلطانهم.

لهذه الاعتبارات وغيرها لم تكن بيعة علي بالإجماع الكامل من الذين كانت تحركهم مصالحهم الخاصة.

سياسة الإمام علي ﷺ ومنهجه:

بعد أن تمت البيعة لعلي خطب الناس خطبة قال فيها: "إن الله عزوجل أنزل كتاباً هادياً بيّن فيه الخير والشر، فخذوا بالخير ودعوا الشر، الفرائض أدوها إلى الله سبحانه يؤدكم إلى الجنة إن الله حرم حرماً غير مجهولة، وفضّل حرمة المسلم على الحرم كلها، وشد بالإخلاص والتوحيد المسلمين، والمسلم من سلم الناس من لسانه ويده إلا بالحق، لا يحل أذى المسلم إلا بما يجب، بادروا أمر العامة، وخاصة أحدكم الموت، فإن الناس أمامكم، وإن من خلفكم الساعة تحدوكم، تخففوا تلحقوا، فإنما ينتظر الناس آخرتهم، اتقوا الله عباده في عباده وبلاده، إنكم مسؤولون حتى عن البقاع والبهائم، أطيعوا الله عزوجل ولا تعصوه، وإذا رأيتم الخير فخذوا به، وإذا رأيتم الشر فدعوه، (واذكروا إذ أنتم قليل مستضعفون في الأرض)(٥).

نهـــج علـــي ﷺ منهج عمر وسار بسيرته في الزهد وإقامة العدل والشدة علـــى ذوي الأهواء فقد كان يرى أن أسلوب عمر في الحكم هو الأسلوب الأمثل لقيادة الدولة الإسلامية، فيروى عنه أنه قال: "إن عمر كان رشيد الأمر ولن أغير شـــيئاً صنعه"، وقد عاش ﷺ عيشة أقرب إلى الخشونة والشظف أقرب منها إلى الـــرفه واللــيـــن، وكان يحمل عماله على الزهد والتقشف والرفق بالرعية، ويطلب مـــنهم الاستعانة في أعمالهم بالأشخاص الذين يستطيعون تحمل المسؤولية بغض الـــنظر عن الصداقة والقرابة، وكان شديد الحرص على مصالح الأمة شدة أبعدت عنه كما كرهت فيه أصحاب المطامع الشخصية.

ومـــن أبـــرز ملامح سياسة علي بن أبي طالب ﷺ أنه أمر بتقسيم المال الفائض على الناس بالسوية دون تفضيل أحد على أحد، كما عاد إلى سياسة عمر في عدم السماح لكبار الصحابة بالانسياح في الأمصار والإبقاء عليهم بجواره في المدينة مخافة أن يفتتن بهم الناس، أو يفتنوا هم بالناس.

مـــن جانب آخر قام الإمام بعزل الولاة الذين كانوا في خلافة سلفه عثمان ابن عفان، واستبدالهم بولاة جدد، لأنهم كانوا مثار شكوى وتذمر المسلمين، وأهم أســـباب الفتـــنة ولأن عزلهم كان ضرورياً لإسكات ألسنة الذين يتهمونهم بالعسف وعدم الكفاءة[٦].

مـــن ذلك يتبين لنا أن عليا ﷺ قد سار في الناس سيرة عمر بن الخطاب ﷺ ولكـــن مـــع رعية أشد وأعسر من رعية عمر، وأرغب في الدنيا منها، وأخذ نفســـه بأشـــد ممـــا أخذ عمر نفسه، فهو بذلك ابتغى المثالية في وقت انعدمت فيه

المثالـــية هـــذا فضـــلاً عن اتحاد كلمة المسلمين وانقيادهم لعمر، بينما في عصره اختلفت الآراء، وتشتتت الأهواء، وعلى ذلك فمنهج علي جاء في وقت غير وقته.

المبحث الثاني

معركـــــة الجمـــــل

مقدمات الأحداث:

لـــم تصـــف الخلافة لعلي بن أبي طالب يوماً واحداً منذ تسلمها بعد مقتل عـــثمان، فقد أخذت الأحداث تسير بسرعة مذهلة نحو مسار مؤلم أسفر عن دراما دمويـــة خضبت وجه التاريخ الإسلامي المشرق بالدماء البريئة وأجبر علي على خـــوض غمـــار معركتيـــن كبيرتين كانتا أول حرب أهلية في الإسلام هما: وقعة الجمل ووقعة صفين.

إن المتتـــبع لـــتلك الأحداث ومقدماتها لابد أن يقرر بأن هاتين المعركتين ترتـــبطان فـــي أسبابهما بعنصرين أساسيين، الأول: شخصية الإمام علي بن أبي طالـــب ﷺ وسياســـته، والثاني: مقتل الخليفة عثمان بن عفان، وإن مناقشة هذين العنصـــرين بموضـــوعية وحياد هي محاولة لوضع الأمور في نصابها التاريخي الصحيح.

أمـــا عـــن سياسة علي – فمما لا شك فيه- أن سياسة الإنسان جزء منه ومـــرآة لأخلاقـــه، وعلـــي بـــن أبي طالب مجبول على المبدئية والصراحة، لا يعـــرف في الحق لومة لائم، فكانت سياسته صدى لهذه الأخلاق، وقد بادر بعد

بيعـــته مباشرة وتنفيذاً لمنهجه الذي التزم به في خطبته السابقة بإصدار أمرين في منـــتهى الصـــرامة وهمـــا: عزل ولاة عثمان وإرسال ولاة بدلاً عنهم، واسترداد القطـــائع والهبات الكبيرة التي أقطعها ووهبها عثمان من بيت المال لأقربائه بدون حـــق، ولـــم يســـتمع علي لنصح أقاربه وأتباعه الذين أشاروا عليه أن يؤجل هذا التصـــرف ريـــثما تستقر له الأمور لأنهم توقعوا أن تصرفه هذا سينتج عنه حتماً تمرد بني أمية -أقارب عثمان- وعصيانهم وفي مقدمتهم معاوية بن أبي سفيان.

وذكـــر المؤرخـــون أن المغـــيرة بن شعبة -أحد دهاة العرب- أتى علياً عـــندما علـــم باتجـــاه علي نحو هذه السياسة فخلا المغيرة بعلي ونصح له بإقرار عمـــال عـــثمان على ما في أيديهم ليكونوا عوناً له وسنداً حتى إذا ما أتته بيعتهم واستقامت له الأمور يعزل من يشاء، فقال علي للمغيرة: "لا أداهن في ديني، ولا أعطـــي الدنية في أمري" فتركه المغيرة ثم عاد في اليوم التالي وقال: "إن الرأي أن تعـــزل عمـــال عثمان وتستعين بمن تثق به"، وقد جاء بعد ذلك ابن عباس إلى علـــي فقص عليه رأي المغيرة بالأمس ورأيه اليوم فقال ابن عباس: "لقد نصحك بالأمس وغشك اليوم" فقال علي: "ولم نصحني؟" قال: "لأن معاوية وأصحابه أهل دنيا فمتى ثبتهم لا يبالون من ولى هذا الأمر، ومتى تعزلهم يقولون أخذ هذا الأمر بغير شورى، وهو قتل صاحبنا (أي عثمان)، ويؤلبون عليك فتنتفض عليك الشام والعـــراق، مع أني لا آمن من طلحة والزبير أن يكرّا عليك، وأنا أشير عليك أن تثبّـــت معاوية، فإن بايع لك فعلي أن أخلعه من منزله" فقال علي: "والله لا أعطيه إلا الســـيف"، وقال ابن عباس: "يا أمير المؤمنين أنت رجل شجاع لست صاحب رأي فـــي الحرب"، وبعد محاورة طويلة قال له ابن عباس: "أطعني... فإن العرب

قد تجول جولة وتضطرب ولا تجد غيرك، أما اليوم فإن بني أمية يلزمونك شعبة مــن هــذا الأمر، ويشبهون على الناس، ويطلبون مثل ما طلب أهل المدينة، ولا تقــدر علـــى مـــا يريدون" فأبى علي إباء شديداً وسار في طريقه واختار عماله اختــياراً حســناً ولكــن أكــثر هؤلاء العمال عادوا إليه ولم يستطيعوا أن يدخلوا الولايات التي حددها لهم(٧).

وبصـــدد موقف كل من طلحة والزبير فقد استدعاهما علي وطلب رأيهما فلم يعطياه رأيا واضحاً وطلبا السماح لهما بالخروج إلى مكة للعمرة فأذن لهما(٨).

أمـــا معاويـــة بن أبي سفيان والي الشام فقد رفض الطاعة لعلي وانتفض علـــيه وإزاء ذلك بدأ الخليفة علي بن أبي طالب يتجهز لغزو الشام والقضاء على تلـــك الحـــركة الانفصالية التي قادها معاوية قبل تفاقمها، وبينما كان الخليفة يعد العدة لغزو الشام جاءه الخبر بأن أهل مكة قد أجمعوا أمرهم للخروج على الخليفة فوجه نظره إليهم(٩).

أمـــا العنصـــر الثاني الذي يتصل بأسباب المعارك التي خاضها علي بن أبـــي طالـــب مضطراً وهو مقتل عثمان بن عفان والمطالبة بثأره والقصاص من قاتليه فإنه لم تكد تتم بيعة علي ويرجع إلى بيته حتى جاءه طلحة والزبير في عدد من الصحابة وقالوا: يا علي، إنا اشترطنا إقامة الحدود، وإن هؤلاء القوم (الثوار) قد اشتركوا في قتل هذا الرجل (عثمان) وأحلوا بأنفسهم، فقال لهم علي: يا أخوتاه لســـت أجهل ما تعلمون ولكنني ماذا أصنع بقوم يملكوننا ولا نملكهم هاهم هؤلاء قـــد ثارت معهم عبدانكم وثابت إليهم أعرابكم وهم حلا لكم يسومونكم ما شاءوا،

فهـل ترون موضعاً لقدرة على شيء مما تريدون؟ قالوا: لا، قال: فوالله لا أرى إلا رأيا ترونه إن شاء الله، إن هذا الأمر أمر جاهلية -يعني الثأر- فاهدؤوا عني حتى يهدأ الناس، وتقع القلوب مواقعها وتؤخذ الحقوق، فتفرق القوم.

كان الخليفة علي واضحاً في موقفه بخصوص القصاص من قتلة عثمان، وهـو التريـث والانتظار حتى تستقر الأمور وتهدأ النفوس، ويتمكن من سيطرته علـى الأوضـاع فـي الدولـة وبذلـك تقوى سلطة الخليفة، ثم بعد ذلك يشرع بالقصـاص من قتلة عثمان، ولكن يبدو لنا من جهة أخرى أن الذين أثاروا مسألة القصـاص فـي وقت مبكر أردوا إحراج الخليفة الجديد ومحاصرته في مركز لا يحسـد علـيه، فقد أصبح أمام المطالبة بالثأر من قتلة عثمان بين أمرين لا ثالث لهمـا: إمـا التعجـيل بالقصاص من قتلة عثمان وإقامة الحد عليهم وبذلك سيثور أنصار هؤلاء الجناة وتكون فتنة أخرى لا قبل له بها، لأنهم -كما قال- "يملكوننا ولا نملكهـم" وإما أن ينتظر حتى تستقر له الأمور ويقوى مركزه ويستطيع الأخذ بالقصـاص وبذلـك سـوف تـزداد نيران الثورة اشتعالاً من أجل المطالبة بثأر عثمان.

أمـام هذا الاختيار الصعب رأى الإمام علي الانتظار حتى تستقر الأمور ويستقيم له المر، وذلك لم يرضِ المطالبين بثأر عثمان وازدادت ثورتهم اشتعالاً، فقد رحل بنو عثمان إلى الشام حيث أميرها معاوية وقد أصبح عميد بني أمية هذا فضلاً عن قدرته بحكم مركزه القوي في بلاد الشام على المطالبة بالثأر كما رحل غـيرهم إلـى الأمصار المختلفة يصورون لأهلها تلك الجريمة البشعة التي حلت

بالخلــيفة عــثمان من قتل وتمثيل، فثارت النفوس وارتفعت الأصوات في مصر والشام والكوفة والبصرة واليمن تطالب بسرعة القصاص من قتلة عثمان.

في مثل هذه الظروف الصعبة أقدم الخليفة علي بن أبي طالب على عزل ولاة عــثمان الأمــر الذي زاد الأحوال سوءا وتأزماً ولم يتريث في مسالة عزلهم عــن تلك الأمصار حتى يضمن وقوفهم بجانبه ولو إلى حين، ولكن الإمام علي لا يعــرف المداهنة والمداورة ولم يكن رجل سياسة بالمعنى المعروف بل كان مثالياً صــريحاً في الحق لا يخشى في ذلك لومة لائم، فكيف يتناقض مع نفسه ويستبقي هــؤلاء الــولاة الذين طالما طالب عثمان بعزلهم لظلمهم، إنما عزلهم على الرغم مــن معارضة الناصحين له -كما سبق وأشرنا- وكان ما كان من رفض أغلبهم الانصــياع لأوامــر الخليفة وتمردهم عليه ولا سيما معاوية الذي أقام بالشام بعد العــدة، ويرتــب مــا تسفر عنه الحوادث معلقاً قميص عثمان على منبر المسجد الجــامع بدمشق ومتهماً الخليفة علي بالتستر أو التراخي مع قتلة عثمان فولّد ذلك فــي- النفوس هناك حركة انتقامية تهدف إلى معاقبة هؤلاء المجرمين، كما حمل الــبعض بيــن طــيات هذا الموقت أغراضاً أخرى واتخذه ستاراً لتحقيق أهدافه ومآربه الخاصة وفي مقدمتهم معاوية بن أبي سفيان.

أمــا الموقف في مكة فلم يكن خيراً منه في الشام فقد ساء عائشة -زوجة الرسول ﷺ- ما لقيه عثمان وانضم إليها بمكة سائر بني أمية وبعض أهل الحجاز وعلــى رأســهم طلحــة والزبير، وكان الجميع يستتر تحت شعار "المطالبة بدم عــثمان" فــاثلج ذلك صدر معاوية وازداد جرأة وإقداما وعمد إلى إلهاب الحماسة

فـــي نفوس هؤلاء بما وجهه إليهم من رسائل، وراح ينتظر ما يسفر عنه الموقف بين أهل مكة والخليفة وعلي بن أبي طالب ﷺ[١٠].

لقــد ذهــب بعض المستشرقين وبعض المؤرخين إلى القول بأن السياسة غــير الموفقــة التــي اعتمدها الإمام علي بن أبي طالب هي التي جرته إلى تلك الحــروب ولكنــنا لــو نظــرنا إلــى مسار الأحداث بشيء من التمعن والدراسة الموضــوعية لوجدنا أن هذا الرأي مبالغ فيه وينطوي على رؤية قاصرة للأمور، وتأكــيداً لقولــنا هــذا نطــرح الأسئلة الآتية، والجواب عليها يمثل خير رد على أصحاب ذلك الرأي:

- هــل كــان مــن الممكن أن يحتج عليّ على الولاة الظالمين ويطلب من الخليفة عثمان عزلهم حتى إذا تولى الخلافة تركهم يمارسون ظلمهم؟.
- هل كان من الممكن أن يثور علي على القطائع والهبات التي أعطيت من بيــت مــال المســلمين بدون حق لأقارب الخليفة حتى إذا تولى هو الخلافة أقرها؟.
- هل كان التمرد الذي عاناه علي ناشئا عن عزل الولاة واسترداد القطائع؟ وإذا كــان الأمر كذلك فلماذا تمرد طلحة والزبير وخاضا غمار حرب الجمل ضده؟.
- هــل يتخيل المؤرخون أن معاوية كان سيبايع عليا ويسير في ركابه لو لم يعزل؟.

- وأخـيراً هل يمكن أن نطلب من علي بن أبي طالب ﷺ أن يكون شخصاً آخر غير علي"؟[11].

وفـي سياق هذه التساؤلات قال بعض المؤرخين: إن ذلك الوقت لم يكن الوقـت المناسـب لعلي لكي يصبح خليفة، وكان من الأفضل للمسلمين أن يتولى أمـر الخلافة شخصية أخرى غير علي في ذلك الوقت، شخص يستطيع المداهنة والمـداورة، علـى أننا يجب أن نتذكر جيداً أن محاولة تنصيب شخص آخر غير علـي فـي منصـب الخلافة كان أمراً محكوماً عليه بالفشل، وهل كان هناك من يجرؤ على التقدم لمنصب الخلافة وعلي موجود؟.

وتأسيسـاً علـى كـل ذلك يمكن القول أن تولية علي كانت طبيعية، وأن سـلوكه في سياسته كان أمراً طبيعياً، وأن التمرد الذي واجهه كان طبيعياً أيضاً، وكان نتيجة لسير الأحداث لأنه كان صراعاً من أجل السلطة والمصالح الخاصة، وإن اتخـذ تبريره في مقتل عثمان، أو المطالبة بثأره، أو عزل الولاة أو استرداد الأموال المسلوبة من بيت مال المسلمين.

موقعة الجمل[*]:

عـزم علـي ﷺ علـى غـزو الشام لإخماد فتنة معاوية قبل أن يستفحل خطـرها، فلما بلغ ذلك طلحة والزبير استأذناه في العمرة فأذن لهما، فلحقا بمكة، ولقـيا عائشـة فسألتهما عما صنع الناس بعد مقتل عثمان فأجابها طلحة: "بايعوا علـياً ثم أتوني فأكرهوني حتى بايعت" فقالت: "وما لعلي يستولي على رقابنا، لا أدخل المدينة ولعلي فيها سلطان"[12] فرجعت.

فلمـــا أتاها خبر أهل الشام بأنهم ردوا بيعة علي وأبوا أن يبايعوه فأخذت تدعو لطلب الثأر من قتلته، أما علي فأخذ يجهز حملته المقبلة إلى بلاد الشام فدفع اللـــواء إلى ابنه محمد بن الحنفية وولى عبد الله بن عباس على ميمنته وعمر بن أبي سلمه على ميسرته وأبا ليلى بن عمر الجراح على مقدمته ثم استخلف قثم بن العباس على المدينة، ودعا أهلها إلى قتال أهل الشام، كما كتب إلى قيس بن سعد (عاملـــه علـــى مصـــر) وإلى عثمان بن حنيف (عامله على البصرة) وإلى أبي موســـى الأشـــعري (عاملـــه على الكوفة) يدعوهم إلى ندب الناس لمحاربة أهل الشـــام، وبينما كان في طريقه إلى الشام إذ وصله كتاب من أخيه عقيل يخبره بأن طلحـــة والزبـــير نكثا بيعتهماله وانضمت إليهما عائشة وأنهم خرجوا في جموع كثـــيفة نحو البصرة فاضطر علي إلى تغيير وجهته إلى الكوفة وسار في تسعمائة من وجوه المهاجرين والأنصار(١٣).

كانـــت عائشة أول من طالبت بدم عثمان على الرغم من أنها كانت أكثر خصـــومة وعداءً له، وقد استجاب لها عبد الله بن عامر الحضرمي عامل عثمان علـــى مكة، وتبعه عدد كبير من بني أمية على ذلك، وكانوا قد تسللوا من المدينة هاربيـــن ولاذوا بمكـــة، وتبعهم المغيرة بن شعبة وسعيد بن العاص كما قدم إليهم عـــبد الله بـــن عامـــر من البصرة بمال كثير، ويعلى بن منبه ومعه ستمائة ألف درهـــم، فأنـــاخ بالأبطح، ثم قدم إليها طلحة والزبير بحجة قضاء العمرة، وأعلنا نكـــثهما لبيعتهما لعلي، واستقر رأي الجمع على السير إلى البصرة لكثرة من بها مـــن صـــنائع ابـــن عامـــر، وساروا إليها في ألف من أهل مكة والمدينة ولحقهم الـــناس، حتى أصبح عدة من معهم ثلاثة آلاف رجل، وما أن وصلت عائشة ومن

معهـا إلـى نواحي البصرة حتى أقامت "بالحفير" وكتبت إلى رجال أهل البصرة وإلى الأحنف بن قيس وغيره تدعوهم إلى الانضمام إليها في المطالبة بدم عثمان، ولمـا بلغ ذلك أهل البصرة دعا عثمان بن حنيف والي المدينة الناس إلى التأهب للقـتال، ثـم أقبلـت عائشة فيمن معها حتى انتهوا إلى "المربد" وتم الاشتباك بين اتـباع علـي وعلـى رأسهم عثمان بن حنيف وحكيم بن جبله العبدي وبين اتباع عائشـة وطلحـة والزبير في ٢٥ ربيع الآخر سنة ٣٦ هجري، وانتهت بهزيمة اتباع علي ومقتل حكيم بن جبله، أما عثمان بن حنيف فقد وقع أسيراً فأمر مروان بـن الحكـم بعثمان فنتفت لحيته وشعر رأسه وحاجباه، وضرب أربعين سوطاً ثم أطلق سراحه فقابل عليا في ذي قار(١٤).

ومـا كـاد علي يصل إلى "الربذة" حتى علم بما أصاب عثمان بن حنيف واتـباعه مـن أهل البصرة على أيدي العثمانية فأقام بالربذة بعض الوقت وسير خـلال ذلـك رسولين من قبله (محمد بن أبي بكر، ومحمد بن جعفر) إلى الكوفة لدعـوة أهلها إلى نصرته ثم تابع علي سيره إلى البصرة ماراً بفيد والثعلبية حيث بلغـه هـناك مصـرع حكيم بن جبلة وواصل سيره بعد ذلك حتى بلغ "ذي قار" وهـناك أقبلـت علـيه وفود من بكر بن وائل وطيء وأسد وعرضوا عليه بذل النصـرة والعـون فشـكرهم علـى عرضـهم وأبلغهـم بأن لديه من يكفيه من المهاجريـن، وفـي ذي قـار أدركـه رسولاه إلى أبي موسى الأشعري بالكوفة يخـبرانه بفشل مهمتهما فسير إلى الكوفة ولده الحسن في صحبة عمار بن ياسر فعادا هذه المرة ومعهما من أهل الكوفة نحو تسعة آلاف وقيل ١٢ ألفاً قدموا عليه بذي قار(١٥).

بلغ جيش الإمام علي بعد وصوله ذي قار نحو عشرين ألفاً، معظمهم من المهاجرين والأنصار وأهل الكوفة والبصرة، زحف بهم حتى دنا من البصرة فنزل "الخريبة" وهناك كتب الكتائب وعقد من الألوية والرايات سبعاً لقبائل العرب، وجعل لكل أصحاب راية قائداً، ثم عقد لسائر قريش والأنصار والحجاز راية، وولى عليهم عبد الله بن عباس، ثم قسم هذه الألوية إلى ميمنة جعل على مقدمتها الأشتر النخعي، وميسرة على رأسها عمار بن ياسر وقلب يتقدمه ابنه محمد بن الحنفية.

ولما بلغ ذلك طلحة والزبير قاما بتعبئة حشودهما وعدتهما -على ما رواه البعض- ثلاثون ألفاً، وقسموها إلى كتائب، ثم عقدوا الألوية واستعدا للقتال وعز على علي أن يقاتل المسلمون بعضهم بعضاً، فأقام ثلاثة أيام ورسوله يتردد على أهل البصرة يدعوهم إلى الرجوع إلى الطاعة والدخول في الجماعة، ولكنهم لم يستجيبوا لندائه، فزحف بقواته لخوض المعركة في ١٠ من جمادى الآخرة فلما دنت صفوفه من صفوف خصومه، وعائشة في هودجها في المقدمة قد كسي بصفائح الحديد والدروع يحمله جمل مجفف بتجافيف الحديد دعا القوم إلى الصلح وناشدهم حقن الدماء، ولكنهم أصروا على الحرب فطلب عليّ من طلحة والزبير أن يدنوا منه ليتحدث إليهما، فدنوا منه حتى اختلفت أعناق فرسيهما، فذكرّ لطليحة والزبير بأنهم أخوة في الإسلام يحرمان دمه ويحرم دمهما ثم سألهما عن السبب في تحولهما عن الإحسان فأجابه طلحة بأن مرجع ذلك أنه ألب على عثمان وأنه إذا كان قد بايع عليا فلأنه مكرها والسيف على عنقه، ثم ذكّر علي الزبير بأمور جرت في حياة رسول الله ﷺ عندما قال ﷺ موجها حديثه للزبير بعد

أن رآهما يحبان بعضهما بعضاً: "إما أنك تقاتله وأنت ظالم له"[١٦] فلما ذكره بذلك أبــدى الزبــير أسفه وأقسم ألا يقاتل علياً أبداً ثم انصرف إلى أصحابه وهو ينوي اعــتزال المعــركة، ولكــن ابنه عبد الله أثناه عن ذلك واتهمه بالجبن عندما رأى رايات علي بن أبي طالب ﷺ فاحفظه هذا الاتهام وكفّر عن يمينه لعلي بأن اعتق غلامــه مكحــولا ومع ذلك فقد ترك المعركة منذ بدايتها ولم يستطع أن يواصل القــتال وقيل أن الزبير أقبل على ولده عبد الله فأفضى إليه برغبته في الانصراف من المعركة ودعا ولده إلى الانصراف معه فأبى عبد الله أن يرجع حتى يحكم الله بيــن الفريقيــن فــتركه الزبير ومضى نحو البصرة وعقد النية على العودة إلى الحجــاز، وقــدّر له أن يلقــى مصرعه فقد أجمع المؤرخون على أن الزبير قتل غــدراً بوادي السباع، على يد عمرو بن جرموز أحد اتباع الأحنف بن قيس الذي طعنه ثم قتله[١٧]. أما طلحة فقد أصابه سهم فاعتزل المعركة وهو جريح ينزف، ونــزل في دار خربة وظل ينزف حتى مات وقيل طعنه مروان بن الحكم بعد أن أيقن بالهزيمة[١٨].

دارت المعركة في شهر جمادي الآخرة سنة ٣٦هـ وكانت المعركة عنيفة فــي بدايتها ولكنها انتهت سريعاً في يوم واحد بهزيمة الحلفاء الثلاثة ونهى علي أصحابه عن قتل جريح أو أسير أو فار كما نهاهم عن انتهاب أي مال، وكان بين الأســرى مروان بن الحكم وعمر بن عثمان وموسى بن طلحة وعمرو بن سعيد ابن العاص فلما عرض عليهم علي أن يبايعوه أجابوه إلى ذلك فأخلى سبيلهم[١٩].

وأيـا مـا كان الأمر فقد كانت المعركة عنيفة فر منها الزبير لا جبنا ولا خوفـاً ولكـن لعدم إيمانه بأنه على حق فيما أقدم عليه وعند عودته مر بماء لبني تميم فرآه الأحنف بن قيس فقال: جمع الزبير هذين المعسكرين ثم ولى وتركهما، فـثار عمرو بن جرموز لذلك وكان في مجلس الأحنف فلحق بالزبير خفية حتى جلـس تحـت شجرة ليستريح ثم اضطجع وغفا فقتله عمرو وهو نائم، أما طلحة فيروي أن مروان بن الحكم عندما رآه في مطلع المعركة قال: لا أنتظر بعد اليوم بـثأري مـن عـثمان ورماه بسهم فأرداه قتيلاً. أما عبد الله بن الزبير فقد ضربه الأشتر أحد قادة علي الأشداء حتى سقط، ولكنه لم يجهز عليه وبقي في خندق فلم يشـترك في المعركة بعد ذلك، واعتبر ذلك منه فراراً، وقد ظل ابن الزبير يُعيراً بفـراره وفرار أبيه من هذه المعركة فقد روي أنه هاجم عبد الله بن العباس مرة فـي المسجد الحرام فكان مما قاله ابن العباس له مدافعاً عنه نفسه: وأما قولك يا ابـن الزبير أني قاتلت أم المؤمنين فأنت أخرجتها وأبوك وخالك، أما أنت وأبوك فقـد قاتلتما عليا، فإن كان علي مؤمنا فقد ظلمتم بقتالكم المؤمنين وإن كان كافراً فقد بؤتم بسخط من الله بفراركم من الزحف[٢٠].

وبعد أن اختفى هؤلاء القادة بالموت أو الفرار ظلت المعركة تدور بدون قـائد أو تحت قيادة عائشة من الناحية الشكلية وقد سقط آلاف القتلى من الجانبين، ولمـا رأى علي ذلك أرسل من عقر الجمل فسقط هودج السيدة عائشة فأمر علي بحملـه إلى ناحية بعيدة عن ميدان القتال حتى لا تصاب أم المؤمنين بأذى وبقيت عائشة في هودجها إلى الليل وبسقوط الهودج انتهت المعركة بنجاح علي.

ثم جاء محمد بن أبي بكر إلى أخته عائشة فأدخلها داراً من دور البصرة فأقامت أياماً وعندما أرادت الارتحال جهزها علي بكل ما يلزمها من مركب وزاد ومتاع واختار لها أربعين امرأة من نساء البصرة ليكونوا برفقتها وسير معها أخاها محمد بن أبي بكر وعاتبها عتابا خفيفاً ولما حانت ساعة الرحيل ودعها علي بنفسه وسار بجانب الهودج حتى خارج المدينة وكان ذلك في غرةرجب سنة ٣٦هـ فسارت عائشة إلى مكة وأقامت بها إلى موسم الحج ثم توجهت إلى المدينة ولم تتدخل بعد هذه المعركة في الشؤون السياسية حتى وفاتها سنة ٥٨هـ.

كان عدد قتلى معركة الجمل -على ما يقدره بعض المؤرخين- نحو عشرة آلاف، وقدره آخرون بأكثر من ذلك، وقتل في هذه المعركة الكثير من أعلام المسلمين وقد حزن علي ﷺ لذلك أشد الحزن فكان يتعرف على القتلى من أصحابه ومن خصومه ويترحم عليهم جميعاً، كما صلّى على القتلى جميعاً من أنصاره ومن خصومه، وأذن للناس من دفن موتاهم، وأقام في معسكره خارج البصرة فلم يدخل المدينة إلا بعد ثلاثة أيام، وحين دخلها جاء المسجد فصلى فيه وجلس للناس فبايعوه ثم عمد بعد ذلك إلى بيت المال فقسم ما وجد فيه بين الناس وأقبل على معاملة الناس جميعاً على السواء فلم يحاول معاقبة زعماء الحزب الذين انضموا إلى عائشة وجيشها، وقد أغضب فعله هذا بعض أنصاره ولكنه لم يكترث لهذا ومضى في طريقه ولا عجب فهو ربيب النبوة.

بعد أن تلقى عليّ ﷺ بيعة أهل البصرة انتقل إلى الكوفة واتخذها عاصمة لدولته وبذلك فقدت المدينة مركزها السياسي باعتبارها عاصمة للمسلمين وأصبح النزاع بعد ذلك محصوراً بين علي خليفة المسلمين وبين معاوية بن أبي سفيان زعيم الأمويين.

لقد كانت معركة الجمل أول حرب أهلية بين المسلمين وكانت بداية لمعارك قادمة اصطلى بنارها عشرات الألوف من المسلمين الأبرياء، وقد اختلف المسلمون بطوائفهم بعض الشيء في تحديد المسؤول عن هذه المعركة بل نجد بعض طوائف المسلمين يؤثر السكوت عن الخوض في هذا الموضوع نظراً لمنزلة زعماء الفريقين المتحاربين فهم جميعاً من الصحابة، كما أن بينهم السيدة عائشة زوجة الرسول ﷺ.

ولتحديد المسؤولية يجب أن نستبعد أولاً الكفر فليس لإنسان أن يكفّر من قال [لا إله إلا الله محمد رسول الله] معتقداً لها، وزعماء هذه المعركة من الفريقين من خيرة من قالها مؤمنا بها، وقد سئل علي ﷺ عن أصحاب الجمل: "أمشركون هم؟" قال: "من الشرك فروا". قيل: "فمنافقون هم؟" قال: "إن المنافقين لا يذكرون الله إلا قليلا"، قيل: "فما هم؟" قال: "إخواننا بغوا علينا" فالذي نتحدث عنه هو المسؤولية والإثم لهذه الدماء البريئة التي استغلت لأهداف خاصة، وهنا سؤال هام يطرح نفسه وهو: هل كانت هذه الحرب حرب مبادئ؟ وهل ثارت السيدة عائشة وطلحة والزبير لدم عثمان حقيقة؟

إن فـي الإجابـة على هذا السؤال مدخل لتحديد المسؤولية إذ لو كانت حـرب مبادئ لهان الأمر، ولكان اجتهاداً أخطأ فيه المجتهد، ولكن هذه الحرب لم تكـن حـرب مـبادئ، ولـم تكن من أجل دم عثمان، وليست اجتهاداً أخطأ فيه صـاحبه، وقد سئل مروان بن الحكم -وكان في جيش عائشة- إلى أين تسيرون؟ فأجـاب: لقتل قتلة عثمان، فقال السائل: فاقتلوا قادة جيشكم فهم قتلة عثمان، وقد فـر الزبير من المعركة -كما سبق وأشرنا- لأنه لم يكن يعتقد أنه على صواب، ولـم يكن يدافع عن عقيدة، كما قتل مروان طلحة، ولم ينج من قادة جيش عائشة سـوى السيدة عائشة نفسها لأنها امرأة ولأنها زوجة رسولنا ﷺ -وقد ظلت- كما يقـول المؤرخـون طوال عمرها حزينة تتمنى لو كانت ماتت قبل معركة الجمل بعشـرين عامـاً، كما يروي ابن عبد ربه أنها لما مرضت مرض الموت قيل لها تدفنيـن مـع رسـول الله؟ قالت: لا، إني أحدثت بعده حدثاً فادفنوني مع أخوتي بالبقـيع، وذلـك لأنهـا كانت تشعر بأنها تتحمل قسطاً كبيراً من المسؤولية لأنها خرجـت في الجيش فتحمس الكثير للخروج معها، كما أن آلاف القتلى قتلوا دفاعاً أو هجوماً حول جملها.

هـذا ويقرر بعض الباحثين أن المسؤولية في هذه المعركة تكاد تنحصر فـي عائشة وابن أختها عبد الله بن الزبير، أما بقية الأطراف فإن مسؤوليتها قليلة ومـن الأدلة التي يسوقها هؤلاء الباحثون: أن السيدة عائشة خرجت للمعركة على الـرغم مـن وجود عوامل كانت كفيلة بمنعها من الخروج كبكاء آلاف المسلمين يـوم خرجـت من مكة لهذه الرحلة المشؤومة حتى سمي ذلك اليوم يوم النحيب، وأيضـاً الخطـاب الـذي تلقته عائشة من أم سلمة تعظها وتذكرها بأن خروجها

للحــرب هــتك للحجاب الذي ضربه الرسول عليها، وأهم من ذلك الآية الكريمة: ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ﴾ التي لم يغب عن عائشة مغزاها.

ومــع كل ذلك فقد خرجت السيدة عائشة مدفوعة بما في نفسها من علي بســبب موقفه منها في حادثة الإفك، كما أن هناك عامل أكبر دفعها للخروج وهو ابن أختها عبد الله بن الزبير الذي تربى في بيتها وتبنته حتى كانت تسمى أم عبد الله، وكــان عــبد الله يطمــع في الخلافة ولكن وجود علي كان يحول بينه وبين تحقــيق أمنيته، فدفع خالته عائشة لتخوض هذه المعركة ضد علي لعل عليا يسقط فــيها فيخلو له الجو، وكثيراً ما ترددت عائشة ولكن عبد الله كان يحاول دائماً أن يــزيل ترددها، وعلى ذلك فيمكن القول: إن السيدة عائشة دُفعت لهذا العمل وأن الــذي دفعهــا هو عبد الله، وقد روي أن عائشة سمعت منازعة أصحابها وكثرة صــياحهم فقالــت: المــنازعة في الحرب خور؛ والصياح فيها فشل، وما برأيي خرجــت مــع هؤلاء. كما يستدل على ذلك من خلال الحوار الذي جرى بين ابن الزبــير ومعاويــة إيــان خلافــة معاوية الذي قال لابن الزبير: "... وخدعتم أم المؤمنين ولم تراعوا رسول الله ﷺ إذ أبرزتم زوجته للحتوف ومقارعة السيوف".

وكذلــك فــإن عائشة أثناء سيرها في الطريق إلى البصرة نبحتها كلاب فســألت أيــن نحن؟ فقيل لها: عند ماء الحوأب، فقالت: ما أراني إلا راجعة لأني ســمعت الرسول يقول لنسائه: كأني بإحداكن تنبحها كلاب الحوأب، ولكن عبد الله ابن الزبير سرعان ما جاءها بمن يقسم لها أن ذلك ليس ماء الحوأب واستشهد لها ببعض الأعراب الذين أكتراهم لذلك.

مـــن جانـــب آخر فإن عبد الله هو الذي دفع أباه الزبير أيضاً ليشرك في هذه الموقعة، فيروى أن عليا قال للزبير: كنا نعدك من بني عبد المطلب حتى بلغ ابنك ابن السوء ففرق بيننا وقد أشرنا سابقاً إلى أن الزبير عزم على الرجوع عن الحـــرب وأعلن عزمه فجاءه ابنه عبد الله وحمّسه بقوله: لعلك خشيت رايات ابن أبي طالب، وعلمت أنها تحملها فتية أمجاد وأن تحتها الموت الأحمر فجبنت[٢١].

المبحث الثالث

معركة صفين ونهاية الخلافة الراشدة

مقدمة:

كـــان الإمام علي بن أبي طالب ﷺ وأتباعه يعتقدون أن معركتهم الفاصلة يجـــب أن تكـــون ضد معاوية أتباعه من الأمويين وأهل الشام، فمعاوية هو الذي رفـــع شعار العصيان والتمرد بحجة المطالبة بدم عثمان لأنه ابن عمه وهو زعيم بني أمية وله جاه عريض بين جنده واتباعه بالشام، ولم يكن طلحة والزبير –بعد بيعتهما لعلي– محسوبين من الأعداء الألداء، وكذلك لم يظن ظان أن ما بين علي وعائشـــة ســـيدفع بـ "أم المؤمنين" أن تقود الجيوش وتخوض معارك الحرب ضد علي، وبناء على كل ذلك كان استعداد علي من أول الأمر موجهاً لمقاومة معاوية وإخمـــاد فتنـــته، ولكن الأحداث تطورت باتجاه آخر ومن ثم رأى علي أن يطمئن إلـــى ظهره أولاً قبل أن يتوجه لأهل الشام فخاض معركة الجمل، وكان من نتائج هذه المعركة سقوط الآلاف من القتلى، وهذا بالطبع أضعف جيش علي، كما سقط الآلاف أيضـــاً من أهل مكة والمدينة والبصرة ممن تبعوا عائشة وأصحابها، هذا بالإضـــافة إلى أن جيوش الإمام علي كانت حديثة الصلة به فسيطرته عليها ليست كاملـــة، كمـــا أنه ليس معه مال يغدق منه على الأبطال والشجعان وعلى فرض

وجــود المال معه فليس عليّ بالذي يعطي من مال الله في غير وجهه، من جانب آخــر كــان ﷺ صريحاً صلباً في رأيه لا يحيد عنه طالما اقتنع بحصته وارتضاه ضميره، ولذلك كان كثيراً ما يحاسب عماله على الصغيرة والكبيرة حساباً عسيراً الأمر الذي أغضبهم فانفض بعضهم من حوله.

وفــي المعسكر الآخر كان يقف معاوية متخذاً من دمشق عاصمة لإمارته التــي تولاها منذ خلافة عمر بن الخطاب، وقد أضاف عليها بلدانا أخرى ضمها إلــيها عــثمان، وامــتدت السنوات بمعاوية في الشام وهو سياسي ضليع يعرف الوســيلة إلــى قلوب الناس عن طريق الدهاء أو العطاء، لاسيما وأن بلاد الشام غنــية فتــية لــم يعرف سكانها منذ دخلوا الإسلام أو دخل الإسلام بلادهم حكما أزهى ولا أطول من حكم معاوية.

وقــد جمــع معاوية حوله بطانة من دهاة العرب على رأسهم عمرو بن العــاص أحاط بهم نفسه وأشركهم في أمره لا يفتات عليهم برأي ولا يبرم دونهم أمــراً، فأثمر ذلك إخلاصاً له وتفانياً في خدمته، كما تجمع حول معاوية بنو أمية أو أكثرهم، وكثير من غيرهم من بطون العرب وقبائلها لاسيما القبائل اليمنية في الشام لما كان بينهم وبينه من صلة المصاهرة، فقد كانت زوجته ميسون من قبيلة كلــب، كما كانت إحدى زوجات الخليفة الشهيد عثمان كلبية أيضاً، فوقف هؤلاء إلــى جوار معاوية يشدون أزره ويعملون وفق إرادته، وكان لدى معاوية جيش لا يعــرف غيره ولا يطيع سواه، ففي الوقت الذي بلي فيه علي بأخبث جند يدعوهم

فيتـــثاقلون، ويستنفرهم فلا يخرجون محاولين الإطلاع على ما ينبغي إخفاؤه من الأمور.

كـــان جــيش معاويـــة طوع أمره لا يسألونه عما يفعل، وقد مضى على معاويـــة ثمانية عشر عاماً وهو أمير الشام، توطدت فيها قدمه وزاد نفوذه لا سيما إبـــان حكم عثمان، فأصبح في الواقع الحاكم الأعلى والمرجع النهائي لكل الأمور ومـــن ثم وجد في نفسه الجرأة على أن يتحدى الخلافة الإسلامية الشرعية، تحت غطاء المطالبة بدم عثمان.

موقعة صفّين:

فـــي الوقت الذي كان علي يواجه المشاكل التي ترتبت على مقتل عثمان كـــان معاوية بن أبي سفيان يجمع صفوفه في بلاد الشام ويؤلب أهلها على علي، ويـــتهمه علـــى منبر جامع دمشق بأنه تستر على قتلة عثمان وأن دمه في عنقه، ومـــبالغه مـــنه فـــي استثارة أهل الشام على علي واجتذابهم حوله، نصب قميص عـــثمان وقد خضب بدمه على منبر دمشق وعلى أردانه أصابع نائلة مدلاة، وكان يذكـــر لهـــم في خطبه ما صنعه قتلة عثمان به فيبكي الناس، فينتهز هذه الفرصة لـــيدعوهم إلـــى المطالـــبة بدمـــه، كما أن زواجه من ميسون بنت بحدل الكلبي النصرانية كان سنداً قبلياً قوياً له.

وقـــد نجـــح معاوية في خطته نجاحاً لم يكن في الحسبان، إذ أجمع أهل الشـــام علـــى الالتفاف حوله وأقسم رجال منهم أن لا يمسهم الماء إلا للغسل من

الجـــنابة وأن لا يـــناموا على الفرش حتى يقتلوا قتلة عثمان[٢٢]، كما أجمعوا على مبايعة معاوية أميراً عليهم، فبعث الرسل إلى كور الشام يطلب منهم أن يبايعوا له بالإمـــارة، فـــبايعوا له بها باستثناء شرحبيل بن السمط الكندي والي حمص الذي بايعـــه بالخلافـــة هـــو وأهل حمص وكتب إليه يقول: "أما بعد فإنك أخطأت خطأً عظـــيماً حيـــن كتبـــت إليّ أن أبايع لك بالإمارة وأنك تريد أن تطلب بدم الخليفة المظلـــوم وأنت غير خليفة، وقد بايعت ومن قبلي لك بالخلافة"، ثم إن معاوية دعا الناس وأطلعهم على هذا الكتاب ودعاهم إلى بيعته بالخلافة فأجابوه[٢٣].

وكـــان علـــي قد استعمل الأشتر على الموصل ونصيبين ودارا وسنجار وآمـــد وميافارقيـــن وهيـــت، كمـــا اســـتعمل على مصر قيس بن سعد، ثم عزله واســـتعمل الأشتر النخعي، فتوفي بالطريق فبعث محمد بن أبي بكر ثم بعث علي بعـــد فـــراغه مـــن الجمل إلى جرير بن عبد الله البجلي وكان عاملاً لعثمان على همـــذان، وإلى الأشعث بن قيس وكان عاملاً لعثمان على أذربيجان يأمرهما بأخذ البـــيعة والحضـــور عنده، فقدما إليه فسير جرير رسولاً إلى معاوية فألفاه وعنده وجـــوه أهل الشام، فلما أطلع على مضمون كتاب علي استشار أشراف أهل بيته فأشـــار علـــيه أخوه عتبة بأن يستعين بعمرو بن العاص وكان مقيماً في ضيعة له بفلســـطين معـــتزلاً الفتنة، فأرسل إليه معاوية يستقدمه وكان عمرو يفضل معاوية علـــى علي، فأقبل مع ابنيه وأبدى قبوله لمساعدة معاوية في صراعه المقبل ضد علـــي، علـــى أن يجعل له مصر طعمة[٢٤]، فلما بايع أهل الشام لمعاوية بالخلافة

علـــى النحو الذي أشرنا إليه أرسل جريراً إلى علي يخبره أن معاوية وأهل الشام لا يجيبونه إلى البيعة.

ثم عزم معاوية على السير إلى صفين فعبأ أهل الشام وجعل على مقدمته أبـــا الأعـــور السلمي وعلى ساقته يشير بن أرطأة وعلى الخيل عبيد الله بن عمر ابـــن الخطاب، وعلى الميمنة يزيد العبسي، وعلى الميسرة عبد الله بن عمرو بن العـــاص، ثـــم سار في ٨٣ ألفاً من أهل الشام حتى نزل بصفين في النصف من المحرم[٢٥].

أما علي فقد تجهز للسير نحو الشام عن طريق الجزيرة، فدعا الناس إلى الـــتجمع فـــي المعسكر بالنخيلة، واستخلف على الكوفة أبا مسعود الأنصاري ثم خـــرج إلـــى النخيلة، فأقام معسكراً وبعث زياد بن النضر الحارثي في طليعة من ثمانـــية آلاف مقـــاتل، وبعـــث معه شريح بن هاني في أربعة آلاف ثم رحل في ثمانيـــن ألف رجل حتى وافى المدائن فسير من هناك معقل بن قيس في ٣ آلاف من الرجال لموافاته عن الرقة[٢٦].

ثـــم واصـــلت قـــوات علـــي السير حتى انتهت إلى موضع يدعى سور الـــروم، وكان معاوية قد زحف بجيوش الشام حتى وصل صفين، وهي قرية من بـــناء الروم وعسكرت قواته هناك، وأمر معاوية أبا الأعور السلمي بأن يقف في عشـــرة آلاف مـــن أهل الشام على طريق الشريعة ليمنع من أراد ورود الماء من جـــيش العراق، ولكن قوات علي تمكنت من مهاجمة أبي الأعور السلمي ونجحت فـــي التغلـــب على الماء، ولكن علي أمر بألا يمنع أهل الشام من وروده، فكانوا

يســـقون جمـــيعاً ويختلط بعضهم ببعض، بل كان عسكر بعضهم يدخل في عسكر بعض، حتى ظن الناس أن الصلح وشيكاً[٢٧] وقضى الفريقان شهر محرم من سنة ٣٧ دون حـــرب طمعاً في الصلح، واختلفت بينهما الرسل، ولكن هذه المفاوضات لـــم تســـفر عـــن أي نتـــيجة فلما انسلخ شهر المحرم استعد الفريقان للقتال، وتم الاشـــتباك فـــي أول صفر، ودامت الحرب عشرة أيام تخللتها في بعض الأحيان مـــبارزات فردية، وفي أحيان أخرى اشتباكات ضارية تبادل فيها الفريقان النصر والهزيمة وقتل من الجانبين أعداد هائلة.

وفـــي اليوم العاشر من بداية المعركة رجحت كفة علي، وأوشكت قواته علـــى سحق قوات معاوية وعمرو، فلما رأى عمرو أن أمر أهل العراق قد اشتد وخـــاف الهـــزيمة عمد إلى اصطناع الخديعة، فأمر برفع المصاحف على الرماح والمـــناداة بتحكـــيم كتاب الله بين معاوية وعلي، والظاهر أن عمراً ومعاوية دبرا ذلـــك مقدمـــاً، فأمر أصحابهما بحمل نسخ من المصحف لترفع على الرماح عند الضـــرورة، لعلمهمـــا بـــأن جيش علي كان يضم فريقاً من القراء الذين يعملون بكتاب الله إذا دعاهم إلى ذلك.

وكان عمرو يرمي من وراء رفع المصاحف على الرماح إحداث انقسام فـــي صـــفوف جـــيش علـــي، وقد عبر عمرو عن ذلك في قوله لمعاوية: "نرفع المصـــاحف، ثـــم نقول لما فيها: هذا حكم بيننا وبينكم، فإن أبى بعضهم أن يقبلها وجـــدت فـــيهم من يقول: ينبغي لنا أن نقبل، فتكون فرقة بينهم" وإن قبلوا ما فيها رفعـــنا القـــتال فيها إلى أجل[٢٨]. وفي رواية أخرى قال: "إني قد أعددت بحيلتي

أمراً أخرته إلى هذا اليوم، فإن قبلوه اختلفوا، وإن ردوه تفرقوا، قال معاوية: وما هو؟ قال عمرو: تدعوهم إلى كتاب الله حكماً بينك وبينهم، فإنك بالغ به حاجتك"[٢٩] وهــذه الرواية تؤكد أن عمرو كان قد دبر هذه الحيلة قبل أن تتقدم قوات معاوية إلـى صفين، فقد وضع عليا بذلك موضعاً حرجاً، فإن قبل بتحكيم الله فإن جماعة مـن جنده يفترقون عنه، وإن واصل الحرب والقتال والمصاحف مرفوعة يكفره أصحابه، وفي أي من هاتين الحالتين يتحول الموقف إلى صالح الأمويين.

لـم تـنطل تلـك المحاولة الخادعة على الإمام علي، فأقبل على أصحابه يحذرهـم مـن المكـيدة ويؤكد لهم معاوية وعمرو وابن أبي سرح وغيرهم من المتحالفيـن مع معاوية ليسوا بأصحاب دين ولا قرآن، فهو يعرفهم كل المعرفة، وأنهم لم يرفعوا هذه المصاحف إلا خديعة ووهنا ومكيدة[٣٠].

ولكـن نفراً من رجاله هددوه إما أن يجيب إلى كتاب الله إذ دعي إليه أو يفعلـوا بـه كما فعلوا بابن عفان، وعز على علي أن يخيره رجاله بين الأمرين فـتركهم أحـراراً في اختيار أحد أمرين: إما طاعته وتتمثل في مواصلة القتال، وإمـا عصيانه فيفعلوا كما شاء لهم أن يفعلوا، فاختاروا التحكيم، ثم وقع اختياره علـى أبي موسى الأشعري ممثلاً لأهل العراق في التحكيم، وحاول علي عبثا أن يثـنهم عن هذا الاختيار ورشح لهم ابن عباس فإن لم يرضوا به فالأشتر النخعي فأبوا إلا أبا موسى.

وتمـت كتابة صحيفة التحكيم التي تتضمن شروط الحكم وموعد اجتماع الحكمين في ١٧ صفر سنة ٣٧هـ بحضور عمرو بن العاص ممثلاً عن أهل الشام

وأبي موسى الأشعري ممثلاً عن أهل العراق، واتفق الطرفان على أن يكتب اسم علـــي بـــدون لقـــب أمير المؤمنين وفي ذلك اعتراف ضمني من المشرفين على التحكـــيم -على الأقل- بنزول علي -عندهم- كخليفة للمسلمين إلى مرتبة معاوية المطالب بالخلافة، ونصت الصحيفة على أن يحيى الحكمان ما أحيا القرآن ويميتا ما أمات القرآن، وأن ينزلا عند حكم الله وألا يتبعا الهوى ولا يدهنا في شيء من ذلـــك، فإن فعلا فلا حكم لهما والمسلمون من حكمهما براء، وجعل الطرفان أجل القضاء إلى شهر رمضان على أن يجتمع الحكماء في مكان عدل بين أهل الكوفة وأهل الشام، وشهد من المسلمين شهود من الطرفين.

ونتـــيجة لاخـــتلاف الكلمـــة وتفـــاوت الرأي وانقسام الصفوف بين مؤيد للتحكـــيم ومعـــارض له، إلى حد التضارب بالمقارع ونصال السيوف، أمر علي أنصـــاره بالرحـــيل إلـــى الكوفة بينما ذهب معاوية وجماعته إلى دمشق، وخرج المعارضون للتحكيم على عليّ وعادوا من طريق أخرى غير الطريق التي سلكها هـــو وأصـــحابه فقد "عادوا وهم أعداء متباغضون وقد فشا فيهم التحكيم يقطعون الطـــريق بالشتائم والتضارب بالسياط"[٣١]، فدخل علي الكوفة ولم يدخل الخوارج معـــه، فقـــد انحـــاز مـــنهم عنه اثنا عشر ألفاً من القراء وغيرهم، فلحقوا بقرية حـــروراء من قرية الكوفة وجعلوا عليهم شبيب بن ربعي التميمي وعلى صلاتهم عبد الله بن الكواء اليشكري، وعرفوا بـ "الحرورية" نسبة إلى هذه القرية وهم أول من أنكر تحكيم الرجال وكان شعارهم "لا حكم إلا لله".

لقد أجبر الإمام علي على قبول التحكيم كارها له تماماً، كما أكره أيضاً على اختيار نائبه في التحكيم وهو أبو موسى الأشعري، وبهذا التحكيم انتهت موقعة صفين التي راح ضحيتها عدد كبير من المسلمين وكانت نتيجتها زيادة الفرقة بين المسلمين وخاصة ضد الإمام علي.

التحكيم:

إن قبول الإمام علي لفكرة التحكيم -كارهاً كما أشرنا- ألحقت ضرراً بمركزه كخليفة للمسلمين، وهو بالتأكيد مدرك لهذا، كما ترتب على ذلك ظهور حركة الخوارج أو المحكمة، والتي تعد في حد ذاتها ثورة على استئثار قريش بالسلطة، فهم يذهبون إلى القول بأن "الأمر شورى بعد الفتح، والبيعة لله عزوجل، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر"[٣٢]، وهم بذلك ينكرون الخضوع للسلطان المركزي ويظهرون سخطهم على قريش لانفرادها بالخلافة.

لقد وجد الإمام علي ﷺ نفسه وقد أقحم في قضية يرفضها، ولكنه من جانب آخر لم يجد مناصاً من متابعتها، فوجه مع أبي موسى الأشعري شريح بن هانئ في أربعة آلاف من خاصته وبعث معاوية مع عمرو بن العاص أبا الأعور السلمي في عدد مماثل إلى دومة الجندل وسار إلى دومة الجندل بأذرح أيضاً فئة اعتزلت الحرب منهم عبد الله بن عمر بن الخطاب، وعبد الله بن الزبير وسعد بن أبي وقاص والمغيرة بن شعبة ليشهدوا صدور قرار التحكيم، وسبق إصدار الحكم

مداولـــة بيـــن الحكمين اتفقا خلالها على خلع علي ومعاوية وترك الخلافة شورى بين المسلمين[٣٣] وافترقا على ذلك.

ثم عقد الحكمان في صباح اليوم التالي مجلساً لإصدار الحكم في المسجد الجـــامع حضـــره عـــدد كبير من المسلمين فقدم عمرو أبا موسى عليه في الكلام تظاهـــرا باحـــترامه لكـــبر سنه حتى يبدأ بإعلان خلع علي ومعاوية، فصعد أبو موســـى وقـــال: "أيها الناس إنا قد نظرنا فيما يجمع الله به ألفة هذه الأمة ويصلح أمـــرها، فلـــم نـــر شيئاً هو أبلغ في ذلك من خلع هذين الرجلين: علي ومعاوية، وتصـــييرها شورى ليختار الناس لأنفسهم من رؤوه لها أهلاً، وإني قد خلعت عليا ومعاويـــة فاستقبلوا أمركم وولوا عليكم من أحببتم" ثم نزل، فصعد عمرو وخاطب المســـلمين قـــائلاً: "إن هـــذا قد قال ما سمعتم، وخلع صاحبه، ألا وأني قد خلعت صـــاحبه كمـــا خلعـــه، وأثبت صاحبي معاوية فإني ولي أمير المؤمنين عثمان، والطالب بدمه، وأحق الناس بمقامه"[٣٤].

وفي رواية يذكرها المسعودي[٣٥] أن أبا موسى أعلن خلعه لعلي ومعاوية كخلعـــه لعمامته التي كانت على رأسه، فأهوى إلى عمامته فخلعها، وأنه استخلف عـــبد الله بن عمر ثم صعد عمرو وأعلن قبوله لخلع علي ولكنه يستخلف معاوية، فشتمه أبو موسى وحاول تكذيبه، ولكن عمراً قال: "بل كذب عبد الله بن قيس، قد خلـــع علياً ولم أخلع معاوية" وماج القوم ... وأنسل موسى فركب راحلته وهرب حـــتى لحـــق بمكة، في حين انصرف عمرو وأهل الشام إلى معاوية فسلموا عليه بالخلافة.

نتائج التحكيم:

كانـــت نتـــيجة التحكـــيم فـــي صالح معاوية لا لإعلان خلع علي وتثبيت معاوية ولكن لأن الانقسام بعد التحكيم قد ظهر واضحاً في جيش علي، فقد انقسم اتــباعه إلـــى شـــيعة ظلوا على الولاء له، وإلى خوارج رفضوا التحكيم وأعلنوا العصـــيان، وبـــدؤوا يثورون على علي ويعتزلونه لأنه قبل التحكيم والعجيب أنه كـــان بين الخوارج كثيرون ممن أرغموا علياً على قبول التحكيم، وكانوا يعترفون بذلـــك ويقولون: أخطأنا فلماذا تتبعنا في خطأنا وأنت الخليفة، يجب أن تكون أبعد نظراً وأعمق رأيا! وانشقوا عليه وخرجوا إلى النهروان.

وكـــان معاوية قد أرسل بعد صدور قرار التحكيم جيشاً إلى مصر بقيادة عمـــرو بـــن العـــاص، وكان يلي مصر في هذه الآونة محمد بن أبي بكر، وكان محمـــد شابا لا تجربة لديه جاهلاً بأمور السياسة وإدارة البلاد فأساء إلى العثمانية في مصر بدلاً من أن يصطنعهم فثار عليه معاوية بن حديج السكوني ومسلمة بن مخلـــد وطالبا بدم عثمان، وأجابهما إلى ذلك جمهور كبير من أهل مصر، فاستغل معاويـــة هـــذه الفرصة وأمر عمرو بن العاص بقيادة حملة مؤلفة من ستة آلاف رجل، فسار عمرو إلى مصر وانضمت إليه العثمانية، واشتبك مع قوات ابن أبي بكـــر في المسناة بالقرب من الفسطاط فانهزم محمد بن أبي بكر وآوى إلى خربة بنواحي الفسطاط فقبض عليه ابن حديج وهو يكاد يموت عطشاً فقتله ووضعه في جـــيفة حمار ثم أحرقه بالنار، وهكذا أصبحت مصر تابعة لسلطة معاوية، وأصبح عمرو بن العاص والياً عليها[٣٦].

من جانب آخر ترتب على صدور التحكيم أن تضعضع مركز علي بن أبي طالب بانقسام أهل العراق على أنفسهم في الوقت الذي قوي فيه مركز معاوية بعد ضم مصر إليه ومبايعته بالخلافة، بل إن معاوية لم يكتف بذلك الانتصار بل هاجم البصرة من مناطق نفوذ علي في العراق، في سنة ٣٨ هجري ووزع جيوشه في العام التالي في العراق، فوجه النعمان ابن بشير في ألف رجل إلى عين التمر، كما وجه سفيان ابن عوف في ستة آلاف رجل إلى هيت والأنبار والمدائن وعبد الله ابن مسعدة في ألف وسبعمائة إلى تيماء، بل ذكروا أن معاوية خرج بنفسه في نفس سنة ٣٩ هجرية حتى شارف دجلة ثم عاد، كذلك سير معاوية بعثاً إلى الجزيرة فأغار على نواحي الرقة كما بعث السرايا إلى دارا والسماوة ودومة جندل.

وفي العام التالي بعث معاوية بشر بن أبي طالب أرطأة للإغارة على الحجاز واليمن ودخل بسر ولم يقاتله أحد وهدم بها دوراً ثم سار إلى مكة وأكره الناس على البيعة لمعاوية ثم زحف إلى اليمن وقتل جماعات من الأبناء من شيعة علي في اليمن، وهكذا استقر الأمر لمعاوية في الشام ومصر والحجاز واليمن وشمال الجزيرة، أما علي فقد شغل بمحاربة الخوارج، فاشتبك مع الحرورية اتباع عبد الله بن وهب الراسبي في النهروان في سنة ٣٨ هجرية وهزمهم وقتل زعماءهم في ساعة، وكان ممن قتل زيد بن حصين الطائي وعبد الله بن وهب الراسبي، وحرقوص بن زهير، وعبد الله السلمي، ثم حارب علي خوارج الأنبار وماسندان وجرجرايا بالقرب من المدائن[٣٧].

اتفــق ثلاثة رجال من الخوارج بعد وقعة النهروان بأشهر على قتل علي ومعاوية وعمرو بن العاص في ليلة واحدة، وهم: عبد الرحمن بن ملجم المرادي، والـــنزال بـــن عامر، وعبد الله بن مالك الصيداوي، على أن يتولى بن ملجم قتل علي، والنزال معاوية وابن مالك عمرو، فترصد عبد الرحمن بن ملجم عليا وهو مقــبل يــؤدي صــــلاة الفجر فقام عليه بن ملجم وضربه بسيف قد سم حده على رأســـه، فحمل علي إلى منزله، وقبض الناس على ابن ملجم، ولم يمسي علي عنه يومه ذاك حتى مات في ١٧ رمضان سنة ٤٠ هجرية، أما محاولة اغتيال كل من معاوية وعمرو بن العاص فلم يكتب لها النجاح[٣٨].

وهكـــذا قضى -كرم الله وجهه- شهيداً بعد أن امتدت خلافته أربع سنين وتسعة أشهر، وكانت سنة يوم وفاته ثلاثاً وستين عاما. وبوفاة الإمام علي بن أبي طالب انتهى عصر الخلفاء الراشدين.

والحمد لله والصلاة والسلام على سيد المرسلين سيدنا محمد ﷺ وعلى آله وصحبه إلى يوم الدين.

هوامش الفصل الرابع

١- الطبري، ج٥، ص١٥١ وما بعدها.

٢- السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص٢٢٢.

٣- ابن الأثير، ج٣، ص١٩٣ وما بعدها.

٤- الطبري، ج٥، ص١٥٣، ابن الأثير، ج٣، ص١٨٩.

٥- الطبري، ج٥، ص١٥٧.

٦- المسعودي، مروج الذهب، ج٣، ص٤-١٠.

٧- ابـن الأثير، ج٣، ص١٩٧، ابن قتيبة، ص٥٠، المسعودي، ج٢، ص٣٥٤.

٨- ابن الأثير، ج٣، ص١٩٧.

٩- أبو حنيفة الدنيوري، الأخبار الطوال، ص١٤٣، ابن الأثير، ج٣، ص٢٠٣.

١٠- ابن الأثير، ج٣، ص١٩٧.

١١- انظـر: محمـد الدقن، عصر الخلفاء الراشدين، دار الكتاب الجامعي، القاهرة، ١٩٧٧، ص١٧٧- ١٧٨.

* - أخـذت هـذه الموقعـة اسمها من الجمل الذي كانت تركبه السيدة عائشة زوجة الرسول بنت أبي بكر الصديق.

١٢- ابن الأثير، ج٣، ص١٩٧.

١٣- ابن قتيبة الدنيوري، ص٥٦.

١٤- الأخبار الطوال، ص١١٤، ابن قتيبة، ص٧٢، ابن الأثير، ج ٣، ص٢٢٥.

١٥- ابن الأثير، ج٣، ص٢٣١.

١٦- ابـن قتيـبة، ص٧٤، أبـو حنيفة الدنيوري، ص١٤٧، ابن الأثير، ج٣، ص٢٤٠.

١٧- ابن قتيبة، ص٧٦، أبو حنيفة الدنيوري، ص١٤٨.

١٨- ابن قتيبة، ص٧٩، ابن الأثير، ج٣، ص٢٤٤.

١٩- الدنيوري، ص١٥١، ابن قتيبة، ص٨٠.

٢٠- ابن قتيبة، ص٧٦، ابن الأثير، ج٣، ص٢٤٤ - ٢٤٥.

٢١- أنظر: محمد الدقن، مرجع سابق: ١٨٢- ١٨٧.

٢٢- ابن الأثير، ج٣، ص٢٧٧.

٢٣- ابن قتيبة، ص٨٢.

٢٤- الدنيوري، الأخبار الطوال، ص١٥٨.

٢٥- المسعودي، ج٢، ص٣٧٥.

٢٦- ابن الأثير، ج٣، ص٢٨٠.

٢٧- المسعودي، ص٣٧٧، ابن الأثير، ج٣، ص٢٨٥.

٢٨- ابن الأثير، ج٣، ص٣١٦.

٢٩- الدنيوري، ص١٨٨.

٣٠- ابن الأثير، ج٣، ص٣١٦.

٣١- المصدر نفسه، ج٣، ص٣٢٢.

٣٢- المصدر نفسه، ج٣، ص٣٢٦.

٣٣- الدنيوري، ص٢٠٠، المسعودي، ج٢، ص٣٩٧.

٣٤- المصدر نفسه، ص٢٠١.

٣٥- المسعودي، ص٣٩٩.

٣٦- اليعقوبي، ج٢، ص٢٢١.

٣٧- ابن الأثير، ج٣، ص٣٧٢- ٣٨٣.

٣٨- ابـــن قتيبة، ص١٥٢، الدنيوري، ص٢١٥، ابن الأثير، ج٣، ص٢٩٤.

المصادر والمراجع

١- القرآن الكريم.

٢- الكتاب المقدس.

٣- ابن الأثير، الكامل في التاريخ، دار أصادر بيروت، ١٩٦٧.

٤- الأزرقي، أخبار مكة، بيروت، ١٩٦٤.

٥- الأصبهاني، أبو الفرج، كتاب الأغاني، بيروت، ١٩٥٦.

٦- الأصـــفهاني، حمزة، تاريخ سني ملوك الأرض والأنبياء، برلين، ١٣٤٠ هـ.

٧- الأصطخري، كتاب المسالك والممالك، ليدن، ١٩٢٧.

٨- أحمد أمين، فجر الإسلام، القاهرة، ١٩٤٥.

٩- البلاذري، فتوح البلدان، القاهرة، ١٩٥٧.

١٠- ابن خلدون، كتاب العبر، بيروت، ١٩٦٥.

١١- الدنيوري، أبو حنيفة، الأخبار الطوال، القاهرة، ١٩٦١.

١٢- ســالم، الســيد عــبد العزيــز، تاريخ الدولة العربية حتى سقوط الدولة الأموية، بيروت، ١٩٨٦.

١٣- ابن سعد، أبو عبد الله محمد، الطبقات الكبرى، بيروت، ١٩٥٧.

١٤- السمهوري، أبو الحسن بن عبد الله، كتاب وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى، القاهرة، ١٣٢٦هـ.

١٥- السيوطي، حسن المحاضرة، القاهرة، ١٣٢٧.

١٦- ابن شربة، عبيد الجرهمي، أخبار اليمن، ملحق بكتاب التيجان، حيدر آباد الدكن، ١٣٤٧هـ.

١٧- الطبري، محمد بن جرير، تاريخ الرسل والملوك، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، القاهرة، ١٩٦٨.

١٨- عاقل، نبيه، تاريخ العرب القديم وعصر الرسول، دار الفكر، دمشق، ١٩٨٣.

١٩- العلي، صالح أحمد، محاضرات في تاريخ العرب، بغداد، ١٩٥٩.

٢٠- علي، جواد، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، بيروت، ١٩٦٨.

٢١- فروخ، عمر، تاريخ الجاهلية، بيروت، ١٩٦٤.

٢٢- ابن قتيبة، الدنيوري، أبو محمد عبد الله بن مسلم، كتاب المعارف، القاهرة، ١٣٠٠هـ.

٢٣- ابن الكلبي، الأصنام، القاهرة، ١٩٦٥.

٢٤- المسعودي، مروج الذهب ومعادن الجوهر، تحقيق محي الدين عبد الحميد، القاهرة، ١٩٤٨.

٢٥- كستر، الحيرة ومكة، ترجمة يحيى الجبوري، بغداد، ١٩٧٦.

٢٦- المقدسي، المطهر بن طاهر، كتاب البدء والتاريخ، باريس، ١٩٠٣.

٢٧- المقدسي، شمس الدين أبو عبد الله محمد، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ليدن، ١٩٠٦.

٢٨- نولدكه، ثيودور، أمراء غسان، ترجمة بندلي جوربي وقسطنطين زريق، بيروت، ١٩٣٣.

٢٩- هاردنج، لإنكستر، آثار الأردن، ترجمة سليمان موسى، عمان، ١٩٦٥.

٣٠- ابن هشام، أبو محمد عبد الملك، كتاب سيرة النبي، تحقيق مصطفى السقا وآخرون، القاهرة، ١٩٤٦- ١٩٥٥.

٣١- الهمداني، أبو محمد الحسن بن أحمد، صفة جزيرة العرب، نشرة محمد عبد الله بلهيد النجدي، القاهرة، ١٩٥٣.

٣٢- الواقدي، أبو عبد الله محمد بن عمر، مغازي رسول الله، تحقيق مارسدن جونس، اكسفورد، ١٩٦٦.

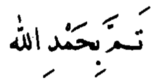
٣٣- هشام جعيط، في السيرة النبوية، ج١، ط٢، دار الطليعة، بيروت، ٢٠٠٠.

٣٤- ياقوت الحموي، معجم البلدان، بيروت، ١٩٥٥.

٣٥- يحــيى الشامي، الشرك الجاهل وآلهة العرب المعبودة قبل الإسلام، دار الفكر، بيروت، د.ت.

٣٦- اليعقوبـــي، أحمد بن أبي يعقوب، تاريخ اليعقوبي، دار صادر، بيروت، د.ت.

الفهرس


تم بحمد الله